

تَمَار

تامار

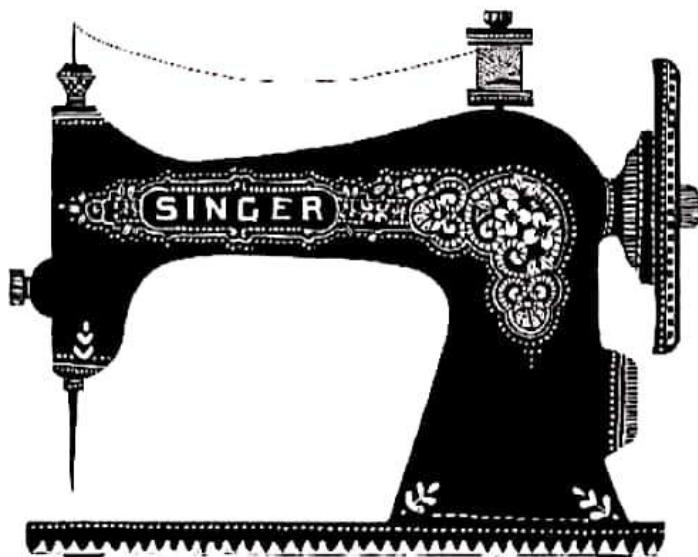
مي خالد

رواية



العربي
للنشر والتوزيع

تَمَار



مي خالد

رواية

تَمَار

0%

مي خالد
350 دقيقة متبقيّة من «تمار ...»

اهداء

"لولا ظهورهم الجميل في حياتي، ما كتبث هذه الرواية.."

شريف بكر - د. حمدي السيسى - نجوى مهدى ..

"إليهم..."

"الشخص الوحيد الذي أعرفه ويتصرف بعقلٍ هو الخياط، فهو يأخذ مقاساتي من جديد في كل مرّة يراني. أمّا الباقون فيستخدمون مقاساتهم القديمة، ويتوّقّعون مُنّي أن أනاسبها".

- "برنارد شو"

"مَّرَّ عَلَى عَدُوكَ كَسِيَانٌ، وَلَا تَمَرَّ عَلَيْهِ شَبَعَانٌ".

- " مثل شعبي "

"Good things happen to those who dress well."

- Hadley Davis

"تحدُّث الأشياء الجميلة لمن يهتمُّون بهندامهم".

الأماكن كلها حقيقة،

أمّا الأشخاص والأحداث،

فأي تشابه بينها وبين الواقع،

ربما لأن الله يخلق من الشّبه أربعين.

الجزء الأول : القاهرة



VectorStock®

VectorStock.com/2041973

"تمارا"

0%

دقيقة متبقيّة من «تمارا» 349

the first verse of *sura* 17 of the Qur'an, but the details of the *al-Buraq* legend were not consolidated until the formulation of the *hadith* literature (Bravmann 1983: 75). The established representation of *al-Buraq* usually comprises a crowned head, often of a young woman, attached to a winged horse (see figure 5.3). The inspiration for this, according to Arnold (1963: 119), was drawn from many pre-Islamic representative traditions in western Asia, including the



Figure 5.3 Al-Buraq image (after Bravmann 1983: 73)

centaur of Babylon, the 'man-headed bulls' of Assyria and the Sphinx. It was a powerful image among Sufis in Iran, but also of particular popularity in both West Africa and Indonesia. In West Africa, *al-Buraq* is represented on printed posters imported from Egypt and North Africa, and in stylized amulet form, on masks, and in one instance supporting an initiation drum of the non-Muslim Baga people of coastal Guinea (Bravmann 1983: 82). *Al-Buraq* images



"للسُّطُحَاتِ حَدُودٌ، وَأَنْتَ تَجَاوِزُهُ لِعَدْمِ تَقْيِيدِكَ بِالْإِطَارِ الْمُحَدَّدِ"
للمُسَابِقَةِ".

بهذه الجملة صرِفتُ، أو بمعنى أدقّ، طرِدْتُ من مُسابقة تصميم الأزياء. لم تمتلك عيني بالدموع وأنا أحضرن زملائي أمام الكاميرات، ولا هربت وأنا أداري وجهي خزيًا لأنفجر حسرةً في الكواليس كما نشاهد في البرامج. انسحبت في خطوات رشيقة واثقة؛ لأنني تأكّدت من صحة يقيني الأوّل بأنه لا خير في التنافس، وبأن المُسابقات قيدٌ يحدُّ من جموح الإبداع. فالموضة على الأساس مسطحة ثباتٌ في رأس إنسان، حولتها إلى ثياب تلفّ 0%

أجساد آلاف البشر، وتشبّثوا بها بفرحة وافتخار.

لكن هل كوني أصبو لأن أكون صانعة للموضة، أو شغفي بسماع حواديت جدّي عنها، يُعتبر مبرراً للشّطط الذي يجعلني أتقيد بحزام عريض في مقعد طائرة، وأصطحب معي شقيقتي "ثقى"، التي ثعاني فوبيا الركوب في الهواء والمرتفعات والأماكن المغلقة والخوف من كل شيء، لنسافر إلى بلد لم يسمع عنه نصف سكان الكُرة الأرضية، لمجرد أنني تلقّيت رسالة إلكترونية من مجهول، يعدها بكلِّـ، إن سلّمته إنجيلاً مهترئاً وفردة قُرط مُتكمّلة؟

نعم....

إن الأمر يستحق، فلا مكان يُناسبنا أنا و"ثقى" أكثر من چورچيا. ذلك البلد الذي حين قُلْتُ إنني مسافرة إليه منذ عامين لحضور أسبوع الموضة، سطع وجه كلَّ من سمعني انبهاراً، ظنّاً منهم أنني مدعوّة إلى "أمريكا". وحين صحّحت الخطأ وقلّت إنه بلد يُدعى چورچيا، كان ضمن مقتنيات الاتحاد السوفياتي البائد، ويقع على البحر الأسود، ينطفئ وجه المُتلقّي؛ لأنَّه ببساطة عدو لما يجهله، أو يتحوّل فجأةً لطفل ساذج ويُتلقّى الكلمة حرفيّاً، فيتوه خياله في أمواج بحر لونها فعلاً أسود.

لم تكن "ثقى" منذ عامين مقيّدة على خريطة حياتي كما هي الآن، لا هي، ولا أي شخص آخر، فقد هجرت آنذاك البشر جميّعاً، وهربت إلى چورچيا بالصدفة البحتة، حين قرأت خبراً عابراً عن أسبوع الموضة الذي سيقام هناك. لم يكن الحدث هو المهم في حد ذاته، بل لأن الخبر قد أشار إلى دار أزياء "بالينسياجا"، ومصمّمها الجديد "ديمنا جفاساليا"، الذي يحمل الجنسية الجورجية. كُنْتُ مثل طفلة أهرع نحو أي كلمة يرددتها جدّي. أحببُ هذا المصمم الراحل المدعو "بالينسياجا" كأسطورة، أو كحدوتة، فتشبّثت بالرحلة مثل طفلة، وليس في رأسي سوى تصميمات لثياب فاخرة من الحرير، والقطيفة، والأصواف الدافئة؛ لأرسم بها باتروناً جديداً لحياة أتعلّق إليها. كُنْتُ في ذلك الوقت أَبْعَـ حرفيّاً نصائح جدّي، فذهبت لأبحث عن روح "بالينسياجا"، ٥٤٨ دقيقة متبقيّة من «تفار بي»، ٥%

الذي رحل في القرن الماضي بعد أن ألهم معظم مصممي الموضة. أخذت أنتبه إلى كل تفصيلة في الطريق والبشر والطبيعة بحثاً عن الإلهام والشهرة، إلا أنني منذ وطئت قدمي "تبليسي" العاصمة، وشققت بي السيارة طرقاً ملتوية تحفها جبال داكنة الخضرة وتحتويها مثل غوريلا حنون تحمي صغارها، ثم وجدت نفسي في الدور السابع عشر بفندق "هوليداي إن"، أحضرن الجبال نفسها بعيوني من فوق فراشي الوثير، فكُررتُ أن لوني في ذلك الموسم سيكون الأخضر بمشتقاته؛ زيتوني، فستقي، زيتتي.. لون الطبيعة والخير والنماء والعملة الصعبة.

غلبني الثعاس فور أن ارتمي فوق ملاءة السرير البيضاء، وظننتني كالعادة سأشاهد إشراقات في أحلامي على هيئة وجوه مقدسة، تتحول إلى خيالات لنساء جميلات يرتدين فساتين وسراويل وتنورات، وسانهض سريعاً لرسمها، قبل أن تتبعَر مرأة أخرى. إلا أنني سمعت همساً بنبرة مألوفة؛ كانت كصوت "أم إدريس" تتلو آية في أذني:

{عَالَيْهِمْ ثِيَابٌ سَنْدُسٌ حُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوًّا أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ
وَسَقَاهُمْ رَبِيعُهُمْ شَرَابًا طَهُورًا }

ظننتها آنذاك البشارة، وهممت بسحب كرامة رسمى، لأن خطأ ثوباً يجمع بين نعومة ورقّة الحرير السندي، وغلاطة وسمك حرير الإستبرق المنسوج بخيوط الذهب، وأوقف بينهما بأساور من فضة مُطَقَّمة بالزمرد. لكن ذراعي ثقلت، ولم تسعنني قدمي على مغادرة الفراش. وبينما أنا مُستلقية في شبه إغماءة، شاهدت بياضاً مرسوماً بشكل مُجَسَّد لفرس، ومُحَلَّقاً في السماء بحجمه الأسطوري، رافعاً قوائمه الأمامية، وفارداً جناحيه. إنه البراق، ليس تماماً كما وصفته لنا "أم إدريس" في حواديتها عن ليلة الإسراء، فلم يكن له وجه كوجه الإنسان، وغرف من اللؤلؤ، منسوج بقضبان من الياقوت، وأذنان من الزمرد الأخضر، كما كانت تقض علينا وتبهرنا. كان فقط فرساً، مرسوماً بإبداع نوراني من شُحْب بيضاء مُتكتّفة، تطلُّ من عينيه أشعة شمس، ويطفو بحقيقة على متيقظين ³⁴ تلماوية بحجم مدينة "تبليسي". هكذا أيضًا

تخيلت البراق الذي قالت لنا عنه "أم إدريس":

- بيطير بالطيبين لسابع سما، وهو اللي طار بأمكم في ليلة حلوة.

لم يكن ما رأيته من تكوينات السُّحب خارج نافذتي الزجاجية العريضة جمود فنانة أو شطحة إبداع، فلقد ساحت تليفوني، وسجّلت تلك اللقطة بالصوت والصورة، وأرسلتها إلى أصدقائي المقربين في الحال، وكتبت فوقها "البراق يطير أمام نافذتي". تيقّنت أن هذه هي الإشارة والبشرة كما روتها لنا "أم إدريس"، حين حكت لنا أنا و"ثقى" عن يوم مولدنا الذي كان في ليلة الإسراء والمعراج.

وفي اللحظة نفسها التي كدت أترك فيها تليفوني، رأت إشارة بوصول رسالة قصيرة. كانت من "البرت". فتحتها سريعاً، فوجدت أنها تحتوي على اعتراف بالغرام:

"لا أدرى لماذا لم أخبركِ منذ زمنٍ أنني عشقتك!!!".

تذكّرت في تلك اللحظة حدوة "أم إدريس" المفترّزة عن ليلة الإسراء، فقد حكت لنا أنه حين سأله النبي "محمد" ﷺ الملك "جبريل" عن الفرس ذي الجناحين، قال "جبريل": "هذا براق الغُشّاق، وسفينة الوصول للالتحاق". فتيقّنت أن ظهور تلك السحابة علامة، وأنه سيكون لي مقام وكرامة في هذا البلد البعيد، المدعو چورچيا. لكن الأسبوع المقرر للرحلة مرّ سريعاً، وكان التلفريك الذي ركبته وطار بي فوق سماء "تبليسي" ليس إلا بساطاً للريح. وشاهدت مثل نائمة تحلم بالجنة أحياه قديمة من كتاب ألف ليلة وليلة، ومباني مزخرفة بألوان ومزركشة بأخشاب مشغولة، وكنائس بقباب ذهبية، وأديرة حجرية عتيقة، ومسجدًا أزرق، ومعبدًا يهوديًا يتجاوران صعوداً وهبوطاً على تلٌ واحد، و"شهبندر" التجار يبيع سجاداً فاخراً، وأكلمة ملوّنة، بدرجات لم تشهدها عيناي، وساعة ذهبية كبيرة تتتوسّط ميدانًا صغيراً، تدور حولها عرائس تتحرّك، وحگاء يجلس بجوارها يروي قصصاً ومواعظ لم أُعِنْ منها شيئاً؛ لأن المطر هطل فجأة بشدة، ولأنني أيضًا كُتُبَتْ مُفْسَدَةً فـ¹ مشاهدة الشَّلَم الحديدي اللوبي وسوره

المزركش مثل أسوة مطلية بالفضة، فهمس لي سائح لا أعرفه:
"هذا السُّلَم يشبهك". إلا أنني غدت ممتلئة بروح غامضة حلّت بي
حين لمست بأصابعِي طرف تمثال "الأم چورچيا"، بحجمها
الضخم، ولونها الفضي، والتي تطلُّ من أعلى قمة جبلية على
مدينة "تبليسي"، تشهر سيفاً للأعداء، وتحمل كأئماً من النبيذ في
اليد الأخرى للأصدقاء.

ولما أتتني رسالة أخرى عجيبة على بريدي الإلكتروني بعد ذلك
الحدث بعامين كاملين، تأمننا أنا و"ثقي" بالحضور إلى البلد نفسه،
وأن نحجز تذكري ذهاب فقط، نفذت الطلب مثل مُريد يُطيع
شيخه؛ لأنني كنت هائمةً في البحث عن سر وروح جدّي هذه
المرأة، والكنز المزعوم الذي سينقذنا بعد أن طار جدّي في ليلة
"ليسست حلوة"، تاركاً لنا إرثاً من الحيرة.



"ثقي"



VectorStock®

VectorStock.com/10843422

"إلهي، أنا فقيرة إليك. سوف أتحمّل كل ألم، ولكن عذاباً أشدّ من هذا العذاب يؤلم روحي ويفكّ أوصال الصبر في نفسي".

أشعر أن دُنْوَأجلي سيكون في السماء الرابعة، فليس ذنبي أن "تمارا" تمتطى الطائرات وتتجوب العالم مثل طفلة تلهو فوق أرجوحة، أو أنها سافرت إلى هذا البلد منذ عامين وقضت به وقتاً أمتتعها.

ليس اسمي "شانيل" أو "ديور"، أو أي من الأسماء الأعجمية التي تتفاخر بمعرفتها، وتقول إنها تساوي الآلاف من الجنبيات. اسمي "ثقي"، من تقوى الله، كما علّمتني سشي "أم إدريس" في طفولتي، وأخبرتني أن شيخ المسجد قال إن اسم "تمارا" حرام، ففرحت في ذلك اليوم، وذابت قليلاً عقدة الخجل من اسم "ثقي"، الذي ينطقه الجميع "ثؤي"، ولا يفهم معناه الأطفال الذين يجلسون بجواري في الفصل. لم يفهم أحد معنى اسم "تمارا" أيضاً، لكن أعينهم كانت تضيء بلمعة غريبة حين يسمعون اسمها للمرة 342^{2%}.

صارت صديقة لهم.

لست حقيبة يدها، أو عطرها الفوّاح لكي تطير بي إلى عالم الغيب.

يكفي ما حدث سابقًا في رحلاتنا المدرسية وما جرى لي ولها. لا أريد أن أموت مرّة ثالثة. تكفيني ميتتان جلبت منها ملائكتي التي تُحدّثني وتهمس لي بصوت "أم إدريس" أن هذه الرحلة شر، خاصة أنني أشعر بأن الكتلة المعدنية التي ينحبس الناس بداخلها تحلق طويلاً في السماء الرابعة. لن أنسى وجه "أم إدريس" وهو ينقض، حين حكت لنا أن سيدنا "إدريس" (عليه السلام) كان على صلة بالملائكة، وكان بعضهم يزورونه ويتحدّثون معه. وفي يوم من الأيام، قال للملائكة: "أنا أريدك أن ترفعني للسماء لأشاهدتها"، فحمله هذا الملائكة إلى أن وصل إلى السماء الرابعة، وهناك انتهى أجله، وُقُبضت روحه. ثم تحرّم وجنتا "أم إدريس" وتتندى عيناهما، وكأن "إدريس" ولدها وحبيبها هو الذي لقي حتفه.

تُحيّنني "أم إدريس" كابنها الذي سُمّته على اسم النبي "إدريس". قالت إن للأسماء معاني غير التي نتداولها، وللحوروف أسرار. حتّمًا سأناشد أنا أيضًا حظًا من اسم "إدريس" النبي الذي لفظ أنفاسه الأخيرة فوق السحاب.

أرى الشّعب دائمًا على هيئة عفاريت وأصنام تتحرّك ببطءٍ وجوهٍ مُلقة تحت باب زويلة، وقد استبدل لونها الأحمر بلون أبيض مُخيف، ثم تتحول إلى ديبة ضخمة، وكلاب تنبج، وأحصنة ترفع قوائم لتنقض علىَّ.

تنسحب روحي إلى حلقي، ثم تخرج على هيئة صرخات مُتقطّعة، وأشعر بأن ملك الموت الذي تحديته مرّتين سينال مني في المرّة الثالثة. يغمرني شلال من العرق على الرغم من أن ذراعي يمكنهما أن تتجمدا من البرودة التي يبيثها مُكثف الهواء في غرفتي الآن. تبزغ صديقتي "ميراي" فجأةً في زي مثل زي الممرضات. تمسك بأدوات طبية، وتعاون شخصًا يجلس الآن إلى جواري بدلاً من

- هي جالها قبل كده أوي "بانيك آتاك"؟

ترد "تمارا" في ثقة:

- لأ، خالص.

وبينما يسري مفعول الحقنة المهدّئة ويعود قلبي إلى موضعه وتتجاوز أنفاسي في صدري، أغفو وأنا أبتسم من سذاجة "تمارا" التي لا تدري شيئاً عن شقيقتها التوأم، وإنه لو أمكن إطلاق اسم يناسبني أكثر من "ثقى"، لكان اسمي "نوبة فزع".



"تمارا"



بمجرد أن تقلع الطائرة، أو ينطلق بي قطار أو حافلة سفر،أشعر بأنني انقطعت عن فوضى العالم الأرضي، وتوحدت مع العالم السماوي، فتخرج "إسكتش" الخاصة بي تلقائياً من جعبتها، وقلمي الرصاص من كيسه، ويبدأن مجدداً في التعارف والتألف، بخطوط صريحة قوية وظلال. يتلوى القلم مداعباً الصفحة ويبدأ باللف والدوران في حركات رقبة، وانحناءات كتف، ووسط، وأرداف، ثم يضيف سُلسلة الذائب قبلات ناعمة على أنحاء الفستان

المرسوم تُوا؛ كسرات، وثنيات، وأزاراً، وفيونكات. وحين تعلن المضيفة عن قرب الوصول، يكونا قد أتوا لقاءهما الحميم الذي أسفروا عن وليد جديد، رداء للصباح، أو تايير كلاسيكي، أو فستان للسَّهرة، فأصل معها إلى ذروة السعادة بما صنعته قُوَّةُ عُليا تتجلى في أصابعِي. وكأن "چيمي جدو" كان واقفاً على يدي، وراغباً بشدة في أن يُسلِّمني مقصده اللامع الضخم وهو يقول لي:

- هيَا، أكملِي ما بدأته، وكوني مثلِي صاحبة لقب في المهنة، ولتكن "تمارا الشوافيلى" هي الامتداد الحالِم الأمِلس لصاحب المقصِّي الذهبي "جمال الشوافيلى".

أنظر في زهو إلى التصميم المرسوم، وأنعم في تلك الليالي تحديداً بنوم لا يصطحب بالأفكار والابتكارات وتدخل الألوان. فقط يذوب في مسامعي نغم من مقام صوفي يتلاشى شيئاً فشيئاً، قبل الظهور المُتَكَرّر للحرف: "T".

الحرف الأول من اسمِي فقط هو ما يبرز بنجوم ذهبية... ويتصدر خلفيةِ الحلم الذي يشبه السحابة البيضاء.

هل كان الفرس الذي رسمته السُّخْبُ، ولاج لي في سماء "تبليسي" منذ عامين هو البراق الذي حكت لنا عنه "أم إدريس"؟ أم كان "راشي" بحسب الأسطورة الجورجية؟ لا"راشي" حصان سحري مُجَنَّح يخضع للبشر، ويصنع الأبطال، ويقرأ المستقبل.

ما يهم الآن هو أن أحاول ترتيب الخطوات التالية في هدوء، فـ"تقى" الآن في أيدي أمينة، ولن يشغلني الانزعاج بحالها عن الهدف الذي رحلت بمفردي من أجله.

حكايتِي أنا وـ"تقى" تُشبه امرأة ريفية تتلقى خبراً مُفجعاً، فتطلق صرخة عالية، وتشقُّ ثوبها نصفين. الثوب الذي تمزقَ كان رحم أمي. أما الصرخة العالية فقد أصدرتها أمّنا وهي تلدنا، قبل أن يلفظنا جسدها ثم يهدم تماماً، في الوقت الذي يُعلن فيه الطبيب لأجدادنا أننا "توأم".

² مخطوٌّ من يقعُمْ أَنْهَا الـ"تُويِنْز" نُسختان طبق الأصل. فالـ"تُويِنْز"

الذي يُحمل ويستر البدن ليس إلا قطعتين: بلوزة، وچاكيت، لا يتشارهان سوي في نوعية القماش. فقد كُنت أنا و"ثقى" كالثوب الذي يُشطر نصفين إثر فجيعة، فيؤول نصفه إلى شرق القرية المزدهر، ونصفه الآخر إلى غربها المتواضع. تماماً مثلما أصبحت من نصيب جدّي لأبي في حي "جاردن سيتي"، ووقيت قرعة "ثقى" على جَدَّنا لأمّنا في حي "الدرب الأحمر". هذا لأن أبي "شامل الشوافيلي" كان قد سبق أمي إلى السماء بأربعين يوماً، حين داهنته عربة كبيرة وهو يعبر الطريق ذاهلاً، فلفظ أنفاسه في الحال، فُولدنا أنا و"ثقى" بلا أم، ولا أب، وتفرقنا مثلما توزع الملابس القديمة على الجمعيات الخيرية.

فكرة واحدة ظلّت تسيطر على رأسينا على الرغم من اختلافنا؛ وهي أن وجودنا معًا في الرَّجم الضعيف هو ما تسبّب في التزييف الذي أودى بحياة أمّنا، وأن إحدانا فائضة عن الحد، وأن تلك الأخرى - حتى وإن كانت مجرد وليدة - فهي قادرة على القتل.

التشابه الوحيد الذي جمعنا كـ"توينز" هي تلك الملبوسات التي أتى بها "چيمي جدو" من بلد أجنبى كان به، حين علم بأن زوجة ابنه قد وضعت توأميين، فأحضر سترات متطابقة في الأحجام والألوان تكفيانا لعامٍ كامل، واحتفظنا بها كذكرى في إحدى حقائب جَدَّتي الضخمة. ما ميّز تلك الملابس وجعلها تشبهنا هو أن كلاً منها كان مكتوباً عليه جملة بالإنجليزية تدلّ على الاختلاف، وأن التطابق في الشكل خدعة كبرى. فسُترتني كان مكتوباً عليها:

I am daddy's team

وسترة "ثقى"، كما ظهرت في الصور التي التقطرت لنا، كان مطبوعاً عليها جملة:

I am mom's team

أو "أنا من فريق أبي"، والأخرى "أنا من فريق أمي".

أمام الأقرب إلينا فقد كانا قميصين مرسوماً على كل منهما إصبع 3%

تُشير نحو التوأم الآخر، ومكتوبًا بجانبه:

She did it

أي "هي من فعلتها"، وكأن كلاً مِنَ ترى الأخرى مُدانةً بشكل ما.

"ثُقى"



VectorStock®

VectorStock.com/21293526

الوحيدة التي وَنَّقَتْ مولدنا بحكاياتها الشفاهية هي "أم إدريس". ملادي المعرفي وصدق الحكايات. قالت إن تليفونًا قد أتاهما بإشارة مولد التوأمرين، وسمعت همساً بجوار أذنها بجملة غريبة: "واحدة متنغنة، وواحدة مستشيبة"، فخفق قلبها طرباً، وقالت في حسم:

- ح نسمّي البت الثانية "ثُقى"، وح ناخدها. والأولانية تروح لأهل أبوها اللي بيسموا بنتهم البارية "تمارا".

قام بتحقيق "مِيقَالٍ" بتوثيق ميلاد "تمارا" في مكتب الصحة التابع^{3%}

فقد توجّه خالي "عادل" بعد موعد مولدنا بأسبوع إلى مكتب صحة الدرج الأحمر. وبمنتها الاستهثار، لم يراجع ما سجّله موظف الصحة كما سمعه. "ثقى شامل جمال أبو لاسة". "تمار الشوافيلى" و"ثقى أبو لاسة"، اسمان لا يجمعهما أي شيء سوى حرف التاء. فأي شخص يتمتع بقليل من الحكمة سيدرك من دلالة الحروف أن "تمار الشوافيلى" تنتهي إلى أسرة عريقة، وأن "ثقى أبو لاسة" ليست سوى البنت اليتيمة التي تعيش في كنف جدتها لأمها في حي "الدرج الأحمر". فقد التصق بي اللقب الذي ما إن يسمعه أحد حتى يعلق بالأغنية التي صارت سخفاً محضاً من كثرة ما ترددت أمامي: "اتطلع يا عريس يا أبو لاسة نايلون". حتى تاريخ مولدنا الذي قد يدل على أننا ولدنا في اللحظة ذاتها ليس مقيداً في الأوراق الرسمية كالحقيقة، مثله مثل اسمينا.

ولما سالت "أم إدريس" حين كبرت قليلاً لماذا قالت لي إن اسم "تمارا" حرام؟ قالت لأنه اسم عباني، يعني تمرة، أو نخلة، وإن لكل إنسان نصيباً من اسمه، ومعنى ذلك أنني سأفوز بالثقة والصلاح كاسمي، لكنني اشتهرت باسم "تمارا"، فصرت فعلاً شبه النخلة. ليس لأنني فارعة الطول، بل لأنني كنت نحيلة بما لا يتناسب وطولي المتوسط، وكان شعري المقسم من النصف يشبه حزمني التمر على جانبي النخلة. حتى ملابس "تمارا" شقيقتي التي كانت تضيق عليها، كنت آخذها وأخذت صغرى أقل حجماً، فتصير مهللة وتفقد معظم جمالها.

في الصف الأول الإعدادي، كانت تجلس بجواري "ميراي"، فتاة سمراء حنونة، شعرها أكترت مفروق من المنتصف مثل شعري. هي الوحيدة التي نسيت أو تناست واقعة التبول اللاإرادي التي حدثت معي وأنا في الصف الخامس الابتدائي، وأنا جالسة في الفصل، في منتصف حصة التاريخ الذي كرهته لاقترانه بتلك الفضيحة. أحبب حروف اسم "ميراي" التي تشبه اسم "تمارا"، وأبهرنني فرح اختها الذي ذهب إليه في الكنيسة؛ الموسيقى، والترانيم، والأجراس، والصور الذهبية المرسومة على الحوائط، **خاصة صورة الأم التي تحضر الصغير وتنظر إليه بمحبة**

وشفقة. إلا أنني كنت أرهب عقّها القس، وأتنحى جانبًا حين كان يزورهم، ويجتمع حوله جمع كبير من أفراد العائلة. كنت أخاف من لحيته الكثيفة، وردائه شديد السوداد، لكنني كنت أستمتع بالحكايات التي يروونها والكلمات المختلفة التي يقولونها. كلمات أعرفها كل على حدة، لكنها مركبة بشكل يحدث تأثيرًا في النفس غير تأثير الكلمات التي اعتدت عليها.

كانت تنتابني أحاسيس عند أهل "ميراي" كالتي كنت أشعر بها حين أزور تيّة "نازلي" وجدي "جمال" في "جاردن سيتي". فحين كانت تيّة "نازلي" تعد السّفرة، كنت أشعر برغبة في التهام كل ما يضعونه على مائدهم من أطباق شهية ووفيرة، رغم أنهم لا يتحدثون أبدًا عن الطعام نفسه أو يتجادلون بشأنه مثلما تفعل تيّة "زكية" التي أعيش معها في "الدرب الأحمر". كانوا يتناولون طعامهم في سلاسة وهم يتناقشون في أمور أخرى، كالأشياء التي ترتديها "تمارا"، ويعلقون في شغف على الملابس التي يرتدّيها الآخرون في التليفزيون أو حتى من يمرون في الطريق تحت بلكرناتهم. الأمر الذي كان يشعرني بالضجر، بعد أن يكون بطني الصغير قد انتفخ من حشر اللحوم والفواكه والمكسرات. لكنني كنت أنظر في صمت إلى جدي "جمال"، وأشعر أنه كل هذه الأكلات؛ رجل بحلوة الفراولة والمانجو، ومقرمش كالكسرات المرشوّحة فوق أطباق الأرز باللبن، ومشبع مثل شرائح الإسکالوب، واللحم البارد، والديك الرومي بالأرز بالخلطة. إلا أنني حين سمعته يهمس لتيّة "نازلي" بأن تهتم بملابسي وتسريره شعري، شعرت أنه سيكون مصدرًا لمهام مزعجة، فتباعدت عنه نفسيًا وفقدت اهتمامي به هو الآخر. وظلت زيارة الغداء كل بضعة أسابيع عند "ميراي" هي المفضلة لدىَّ، خاصة حين يجتمعون في غرفة الجلوس، ويقولون حكايات تنقلني إلى عالم آخر، مثل حواديت سُتّي "أم إدريس".

انتبهت ذات حوار كان يدور بينهم بصوتٍ عاليٍ إلى كلمة "تمارا"، فظننتهم يقصدون شقيقتي، لكنهم كانوا ينطقونها "ثامار". وكان هناك جدل غريب حول ما إذا كانت "ثامار" زانية أم لا، وهل كان

4% دقيقة متبقيّة من «تمار..»

أبوها الملك "داوود" مَدَانًا حين أرسلها إلى أخيها الذي اغتصبها؟
سألت "ميراي":

- هل تفهمين شيئاً؟

فقالت:

- لا، فالكبار دائمًا ما يدخلون في نقاشات عميقة لا أستوعبها ولا
أهتم بها حول قصص من الكتاب المقدس.

الحقيقة أنني فهمت كل ما قاله الكبار في بيت "ميراي"، و كنت
فقط أسألها حتى أجده شخصاً يصدقني حين أقص عليه حكايتها،
وأتخلص من ثقلها الجاثم فوق صدري. فتشتت عن تلك القصة
كثيراً حتى وجدتها أخيراً.

تمارض "عنون" على سريره، وإذا جاء أبوه ليراه، فقال له دع
"ثamar" أختي تأتي وتطعمني خبزاً، وتعمل أمامي الطعام لأرى
فأأكل من يدها. جاءت "ثamar" إلى بيت أخيها "عنون" وهو
مضطجع، فأخذت العجين وعملت كعكاً أمامه وخبزته. وأخذت
المقلة وسكتت أمامه فأبى أن يأكل. طلب أن يخرج كل الناس،
ثم أمسكها وحاول اغتصابها.

إذ حقق "عنون" شهوة جسده، أبغض "ثamar" بغضًا شديداً جداً،
حتى إن البغض الذي أبغضها إياها كان أشد من المحبة التي كانت
تستولي على قلبه تجاهها. قام بطردها، فتذللت أمامه ألا يلقيها
للعار، أما هو فطلب من الخادم أن يطردها عنوة.

تملّكت قلبي تلك الحكاية التي حدثت ذات مرّة في "العهد
القديم"، وتكررت معي في طفولتي في الليلة السابقة لليوم الذي
انفلت الماء مئيًّا تحت مقعدي في المدرسة، وأخذت أتجزّع
مرارتها بمفردي.

كان "عنون" هذا أخاً لـ"ثamar" من الأب فقط، يعني نصف أخ، مثل
حالـي "عادل"، الذي لم تفهم "ميراي" أيضـاً معنى أن يكون لي
نصف حالـ، فقد كان حالـي ليس شقيق أمي لأنـه ابن الست
4% دقيقة متبقـة من «ثamar..»

"صابرية" الشهيرة بـ"أم إدريس". كان خالي "عادل" مضطجعاً على ظهره مثل "عمنون"، لكن لم يكن متهاجماً. كان شبه غائب عن الوعي فعلاً، وتبعثر من فمه رائحة تشبه الديتول، أو السبرتو. كُنث خائفة من عينيه الحمراوين ونظاراته الغريبة، لكن تيطة "زكية" لم تلحظ رعيبي، وأخذت حقيبتها وتركتنى معه وخرجت إلى السوق لتشتري له الدواء. قالت لي أن أعدّ له طبقاً من الحساء الساخن بالليمون، وأن أدخل الطعام إلى غرفته لأنه داخ ويهلوس من الحُمى. حملت الصينية إلى غرفته مثلما أمرتني، وعصرَتْ الليمونة وأخذت أقلبها في الحساء مثلما فعلت "ثamar" اخت "عمنون". وفي ثوانٍ وقبل أن يأخذ خالي "عادل" ولو رشقة واحدة من الحساء، كان يجثم فوقي مثلما فعل "عمنون" بأخته. العجيب أنني كُنث الوحيدة التي نالت حظاً سيئاً من اسم "تمار"، أو "ثamar" حين اشتهرت ما ليس لي، أما "عمنون" أو "عادل"، فقد خالفا نظرية "أم إدريس" تماماً، في أن للناس نصيباً من أسمائهم. فـ"عمنون" بالعبرانية تعني "أمين"، كما لم يكن خالي "عادل" عادلاً معي حين فعل فعلته النجسة وهو محمور، أو حين ذهب إلى "وديدة" صاحبة البيت وغير عقد الشقة باسمه، حتى يقوم بطردي بعد أن تتوفى تيطة "زكية".

لم يفهم أحد سر الابتسامة الثابتة على وجهي، التي لا تنبع من القلب، ولا تؤكدها العينان، فأبدو كبلاء لا تعرف هي نفسها لماذا تنفرج شفاتها كعروض خشبية. فالليوم الذي حدثت فيه تلك الواقعة كان يوم الوفاة الأولى لي، فقد شاهدت نار جهنم بأم عيني، وأنا منحشرة بين يدي وساقي خالي "عادل"، مثل فأر ضعيف يُعاشر بين القوائم الأربع لوحش أكثر منه قوة. وتلك الابتسامة نفسها هي التي قابلت بها تيطة "زكية" حين عادت من السوق، حتى أداري على فعلة خالي "عادل"، الذي تناول الحساء بنصف عقل بعد أن استيقظ من نومه، ثم وقف تحت الدش الساخن، فساحت تحت المياه أحداث الساعة الفائتة ونسى كل شيء. كما صرت أحرص على بث تلك الابتسامة في وجهه هو تحديداً، لكي لا يتذكر فزعني وصوتي المكتوم وأنا أدفعه بكل ما أوتيت من عزم حتى القلب على وجهه وراح في نوم عميق.⁵

صرت أنا التي تضحك له، لكي أطمئنه أن لا شيء قد حدث، وكأنني أنا المتهمة التي تنذل سرًا لضحيتها. من لم أسامحها فقط هي تيتيه "زكية" التي تلقيت "عادل" ابن زوجها وضررها كابن من صلبها، ودللته وتغاضت عن كل هفواته على مدار سنوات عمره العشرين، حتى فشل في دراسته، وهاجر إلى ألمانيا، وتركها تتعدّب بحسرة أمومتها المحرومة.

وحين نجحت أنا بمجموع متوسط في الثانوية العامة، اخترت المكان الذي أعرف فيه "كيف تُغزل الخيوط التي منها تحاك أكفان الحق والعدل" كما يقولون. كلية الحقوق، حيث سمعت كلاماً يهدّئ النفس عن أن المحاماة هي "أمل السجين في سجنه، ومرجع الخائف على حقه والمُرْوَع في حياته". كما كنت قد بدأت مشوار جهاد السالكين والصالحين في التّخلّي عن الأوصاف الذميمة كالتأزّين للخلق، والتفاخر، والضحك، وكثرة الكلام والمزاح، وبدأت أتحلّى بالأوصاف الحميدة كالزهد، وقلة الكلام، وحب العزلة. إلا أن قلبي ظل متوجهاً إلى تدليل معدتي بما لذّ من صنوف الطعام، حتى تحولت من طفلة نحيلة تتخطّط عظامها في الملابس، إلى فتاة ممتلئة تأكل كل ما يقع تحت يديها. وقد أوقعني هذا الإثم في ظلمات المعاصي.

جاءت "تمارا" ذات صباح لزيارتني، ومعها قالب كبير من تورته الشوكولاتة، وكانت تيتيه "زكية" قد وهنت عظامها، وأصابتها الهشاشة، حتى إنها كانت لا تستطيع أن تبرح الفراش إلا لو استندت إلى كرسي نصعه لها بجوار السرير. وضعت "تمارا" التورته على منضدة في الفراندنة، وقالت لي:

- هاتي الكرسي ده وتعالي.

كالمُفَيَّبة سحبت الكرسي المجاور للفراش، وأخذت ألتهم الشوكولاتة السائحة في المكسرات. استيقظت تيتيه "زكية"، ونادتني فتجاهلتها حتى أنتهي من قطعة التورته، وقد سمعتها "تمارا" أيضًا، لكنها كانت مأخوذة بزققة العصافير وهديل الحمام في الباحة. وبعد دقائق، سمعنا خبطة قوية، أسفرت عن كسر 5% ^{329 دقيقة متبقيه من «تمارا»}

بالحوض والساقي اليسرى لتيتة "زكية". أثبتت التحاليل أن تيتة قد وقعت بالقرب من الحمام نتيجة خلل دماغي، وليس لأنني سحبت الكرسي، المجاور لفراشها. لم أسر على راحة تيتة "زكية" من منطلق الندم، بل لأنني طمعت في دخول الجنة من باب بر الوالدين، وقد سلكت هذا الطريق من سلم الخدم. كُنْت أطعّمها في فمهما، وأغسل ملابسها، وأنظف فضلاتها، ثم أحْمِيَّها. وحين يمتلكني الضجر وأنذكر قرصاتها وتوبيخها لي ومقارنتي بـ"تمارا" النظيفة الأنique اللطيفة في كل مناسبة، أتخيل أيضًا جسدي النحيل حين كُنْت أقف عارية في الطست، وهي تسكب فوق رأسي الماء الدافئ الذي وتحل ظهري بالليفة والصابون. ثم صرت أستمتع بالخدمة من منطلق أن خادم القوم سيدهم، فبدأتأشعر أن لي يدًا غلبا على تيتة "زكية"، وكأنها مجرد أداة لفعل الخير مثل صندوق النذور الذي نسقط فيه بعض القروش حين نمر من أمام المسجد.

لم أَر "تمارا" طوال شهرين، فقد كانت تلهو في إحدى سفرياتها، وحين أتت لزيارتـنا، تركتها قليلاً مع تيتة "زكية" و"وديدة" لأذهب إلى الكلية لمعرفة نتائجـتي. وحين عدت، وجدت تيتة "زكية" مُغطّاة حتى أعلى رأسها، والبيت ممتلئ عن آخره بالمعزّين.

تلاقـت أعينـنا أنا وـ"تمارا"، كانت تنظرـ لي في حيـاد بـارد، لكنـني كُنْت أشعرـ أنـنا دبـرـنا لـقتـلـها مـعـاـ. كانـ لـ"تمارا" نـظرـية سـخـيفـة حين يـموـتـ أحدـ، تـحمـيـ بهاـ نـفـسـهاـ منـ الـوـقـوعـ فيـ دـوـامـ الـحـزـنـ. كانت تـقولـ: "سـأـذـكـرـ كـلـ الأـشـيـاءـ السـيـئـةـ الـتـيـ فـعـلـهـاـ وـقـالـهـاـ". فـعـدـتـ ثـانـيـةـ إـلـىـ قـصـةـ "عـمـنـونـ" الـذـيـ اـغـتـصـبـ "ثـامـارـ"، وـأـخـذـتـ أـقـرـأـ تـفـاصـيلـهاـ وـأـجـتـرـ عـذـابـاتـيـ. الـخـطـيـةـ تـجلـبـ الـخـزـيـ وـالـعـارـ، وـتـحـطمـ مـرـتكـبـهاـ. تـجـسـدـ الـخـطـيـةـ فـيـ جـسـدـ تـيـتـةـ "زـكـيـةـ" الـمـسـجـّـيـ بلاـ حـراكـ، فـهيـ مـنـ كـانـ وـرـاءـ إـفـسـادـ وـتـدـلـيلـ خـالـيـ "عـادـلـ". شـعـرـتـ بـرـاحـةـ لأنـنيـ حتـىـ لوـ كـنـتـ قدـ شـارـكـتـ فـيـ قـتـلـهـاـ، فـقـدـ كـفـرـتـ عنـ ذـلـكـ الذـنـبـ بـالـتـفـانـيـ فـيـ خـدـمـتـهـاـ، وـقـرـرـتـ أـنـ أـتـخلـصـ مـنـ مـرـتبـةـ الـنـفـسـ الـأـمـارـةـ بـالـسـوـءـ بـالـانتـقـالـ لـمـقـامـ أـنـقـىـ وـأـطـهـرـ، بـتـرـدـيـدـ الـأـذـكـارـ وـالـأـوـرـادـ، وـمـحـاسـبـةـ الـنـفـسـ، وـتـحـوـيـفـهـاـ بـالـمـوـتـ، وـعـذـابـ الـقـبـرـ، وـأـهـوـالـ

القيامة. وكان على "تمارا" أن تكُفُّ هي الأخرى عن معصيتها الكبرى في إغواي بالحلوى ومشاركتي في قتل تيتيه "زكية"، بدلاً من أن تظهر في حياتي كومضة، كل بضعة أشهر، ثم تحمل حقائبها وتغيب في ترحال طويل.



"جمال الشوافيلي"



VectorStock®

VectorStock.com/7968156

عجيبة جدًا اللحظات التي أقول فيها قولي هذا، فهي بحسب عقارب الساعة لا تتجاوز خمس دقائق، وبمقاييس سماوية ٦٤، قصادي طويلاً في حياتي بأكملها التي زادت على الثمانين عاماً⁶

الفم قليلاً، في فراشي الحبيب، بشقة "جاردن سيتي"، 15أ شارع
"جمال الدين أبو المحاسن".

تضع "تمارا" رأسها على صدري، فوق موضع القلب الذي توقف
منذ قليل، وتحتضرني صامتة بذراعها اليمنى. يأتي شخص
غريب ويسحب "نازلي" زوجتي من الغرفة، فتنزلق "تمارا" تحت
البطانية الدافئة التي ثُغطّيني، وتغمض عينيها لثوانٍ، ثم تفتحهما
وتتمعن في تفاصيل وجهي. أعرف أنها لن تذرف دمعة أمامي
الآن، فهي توفر بكاها حتى أغادر تماماً، وتعفيني من مشاهدتها
وهي تتآلم. ثمّرر كفّها على خدي، وتقول دون أن تنطق:

"إنت جمیل قوی پا چیمی جدو".

أستطيع أن أسمعها وأراها، على الرغم من أنها لا تفتح فمها، وعلى الرغم من أن عيني مغلقتان.

"ماتخشن یا چیمی جدو، رینا بیحبک".

تقولها وهي تربت على كتفي، وقبلني قبلة خفيفة، وتریح رأسها
على ذراعي.

ينبعث ضوء من نقطة بعيدة، ويتسع أمامي، وكأن وجهي شاشة عرض تدور عليها أحداث أعرفها جيداً، بل كُنْتُ أنا بطلها. أراني طفلاً، وشاباً، ورجلاً مهيباً. أشم روائح الصوف، والكشمير، والتوييد، والقطيفة، وزيت الماكينة، والطباشيرة الناعمة، وإسفنجية الدبابيس والإبر، كما أسمع صوت الماكينة "السينجر" المنتظم يدور سريعاً، ثم تخف سرعته، فيطغى صوت بكاء طفلة رضيعة، آتٍ منذ زمن بعيد، أضمهما إلى صدري آنذاك، فتهداً، مثلما ترقد في اطمئنان على كتفي الآن.

تتكرر أسماء كثيرة على مسامعي؛ "شامل"، "نازلي"، "ثقى"، "چاكيت"، "بالينسياجا"، "كريستان دبور"، "شانيل"، ثم يسود اسم "تمار" عمتي و"تمار" حفيدتي.

{لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}

تتردد تلك الآية القرآنية أيضًا في مسامعي. أعرف الان فقط أنني في الآونة الأخيرة كنت قد بدأت أفتقر إلى البصيرة، أنسى المواعيد التي أتفق عليها مع أصدقاء النادي، ويصيبني ضيق شديد حين أفاجأ بزيارة أحد معارف "نازلي" وبصحبته أطفاله، أو حين يرتفع صوت التليفزيون أو الباقة الجائبين، أو رئات المحمول. كما كنت أخفي أشياء مهمة حتى لا تطالها أيدي العابثين، وبعد ساعات أنسى مكانها، وأفقدها أنا شخصياً إلى الأبد. ليتنني أستطيع الان أن أخبر "تمارا" أنني ما كنت لأسحب كل أموالي وأغامر بها، إلا لأزيد رأس المال الذي يدر دخلاً يضمن لها ولـ"نازلي" الحياة الكريمة نفسها بعد رحيلي. ليتنني أستطيع أن أعذر لهما عن تبديدي لكل الأموال ووضعها في ذلك المحل الصغير بالحي الأثري البعيد، أو أن أنهض الان، وأفتح درفة الدوّلاب لآخر الصندوق الخشبي الذي يحتوي على فردة القرط القديمة، المربوطة بشرط قطيفة في كتاب مقدس صغير. ذلك الإرث العجيب الذي سلمتني عمتي "تمار" إياه حين تزوجت، وضغطت على كفي وهي تقول:

- أبويا قال لي ده مفتاح السعد، وأبوه وأبوه قالوا كده.

لا أدري أي سعد كان يحمله مع أسرة ظلت تتضاءل حتى لم يتبق منها سواي، أنا وحفيدتان يتيمتان. كان مع القرط الذهبي تحذير شفاهي تتناقله الأجيال:

"إياكم أن تغسلوه بالماء، حتى تظل فيه روح ورائحة صاحبته".

فكان من يقع في حوزتهم يقلبونه في سخرية، ويسميه بعضهم "القرش البراني"، فلا هو من الذهب حتى بياع، ولا له فردة أخرى

حتى يلبس في الأذن. حتى تلك الوصية بعدم المساس به كانت تحمل ترهيباً وتهديداً، فلم يقع أي من الورثة في غرامه على مر العصور، كما لم نجرؤ على التخلص منه.

ليتنني نصحت "تمارا" أن تأخذه في راحة يدها وتقبض عليه، أو ترتديه في أذن واحدة، فتننتقل تلك الروح الثرية التي يخشون فناءها إليها. أو ليتنني حتى نصحتها بأن تخالف الوصية وتمرر عليه الماء الجاري أو تتخلص منه إلى الأبد، فربما كانت به لعنة جعلتني أفعل ما فعلته في لحظة طمع نبيل، فخسرت كل ما كُنْتُ سأتركه ليسترها.

تتسرب الدقائق بمقاييسهم، ويدخل إلى الغرفة أشخاص بوجوه مُكفهرة وخطوات ثقيلة. تسحبني نقطة الضوء بعيداً عنهم، فتغموري السكينة. تستنشق "تمارا" ملابسي ورائحة جلدي وكأنها تسحب بداخلها الشعاع الأخير، قبل أن تشدها ذراع ما وتفصلها عني.

تمتلئ الغرفة بالسود والدموع وكلمات الرحمة، فأدور في دوامة من نور حتى أغوص تماماً في بياض كالسحاب.





"تمارا"

ارتديت فستاناً أحمرَ فاققاً بعد وفاة "چيمي جدو" بـ يومين فقط. ظنت النسوة اللاتي كن يتلفحن بالأسود وقت زيارتنا أن في أزيائهن الداكنة مواساة لروحي، وأن رحيل جدّي قد أفقدني صوابي، وجعلني أخالف الغرف السائد. لم يعرفن أني كنتُ أنفذ وصايا لم يكتبها، لكنه ظل يلقنها لي على مدار حياته. فالوحيد الذي كانت كلماته تضاهي حكايات "أم إدريس" في سحرها، هو "چيمي جدو". الفارق أن حواديت "أم إدريس" كانت لها نكهة البيجامات الكستور وقت دخول الشتاء، و"رحرحة" الجلوس فوق الكليم البئي الخشن، أو النوم في ليلة صيفية على زهور قماش "الكريتون"، الذي يكسو الكنب البلدي المنتاثر على سطح بيت "البيقة فزكية" بجهة تل أمي، في حي "الدرن الأحمر". أما الأقوال⁷

الممشوقة التي كان يحفظها "چيمي جدو" وصارت جزءاً لا يتجزأ من أسلوب حياته، فقد كان لها ثراء المحمل، ونعومة الحرير، ورقة الدانتيل، ودفء الكشمير.

كان "چيمي جدو" عاشقاً للون الأحمر، ليس كلون فقط، بل كضمادة للروح حين يكسوها الأسى. وكان يقول إن خبراء الموضة ينصحون المرأة أن ترتدي الأحمر حين تكون في شك من أمرها. فلما كان ينزوئ صامتاً في ركنه المحبب إلى جانب الراديو الكبير، عقب فقد صديق أو حدوث أزمة نستشعرها ولا يفصح عنها حتى لا نشغل بالنا، ويوجه جدّتي "نازلي" إنه مستغرق في سمع أغنية لـ"نجاة" أو لـ"عبد الوهاب"، كان يتلفح بكوفيته الحمراء، أو يداري برد روحه بروب البيت بلون النبيذ الأحمر. وكانت الوحيدة التي تشكك يدها في يده في صمت، وأنا ألمح دمعة ساخنة تتدحرج في استحياء من طرف عينه. ولما كان يتهلل وجهه في آخر الليل، كانت تظن تيتيه "نازلي" أن المشكلة قد انحلت، بينما كُنث أنا التي تعرف أنه قد شم فقط رائحة المكرونة الإسباجيتي التي تُعدّها له على العشاء، وأنه لا يأكلها بهذا التلذذ، إلا لأنها غارقة في الصلصة السميكة الحمراء.

جدي "جمال الشوافيلي"، أنيق الروح، المصرح لي أنا فقط بأن أناديه بـ"چيمي" سراً، وـ"چيمي جدو" أمام الآخرين، ليس مثولاً لأوامر ونواهي تيتيه "نازلي"، بل لأن "چيمي جدو" لا يمكن أن ينادي باسمه مجرداً من دون حلية أو تاج، وهو من ينادي زبائنه من العظام بـ"جمال بيه"، ويلقبه الأقل منه مقاماً بـ"الباشا". ليس مثل الباشا التي تقال لسائقي التاكسي، بل لأنه كان صاحب رونق وجاه، جلوساً وقياماً وحديداً مختصراً وتبسمًا هادئاً وأبهة غامضة نابعة من الأعماق، لا تستطيع وصفها بكلمة محددة قالها، أو زي غالٍ ارتداء.

هذا الوجيه الشامخ صار في أيامه الأخيرة مثل طفل بائس تنهمر دموعه لأسباب لا نعرفها، ولم يعد يتمكن من التعبير عن سببها بعدما شخص الأطباء حالته بالـ"ألزهايمر" أو "حرف الشيخوخة".

⁸ سمعت تلك الكلمة التقيلة ذات مkalمة بين تيتيه "نازلي" وإحدى

صديقاتها، ووددت لو كان بإمكانني أن أصرخ في وجهها وأنهراها. كيف هان عليها أن تتنفس بكلمة قاسية كهذه على صانع الجمال والأناقة "جمال الشوافيلي"، الذي ظللت أتساءل طوال سنوات عمري كيف تزوجها أصلاً، بل كيف تقبل بتلك الوداعة ورحابة الصدر زيادة وزنها، ومداومتها على التخفي في البيت تحت هذا الرداء الواسع الذي تسميه إسداً، وهي من يقول الجميع عنها إنها كانت تُشبه "جريتا جاربو" شكلاً وأناقة، وكان "چيمي جدو" يهمس لي في حسرة:

- دي كانت "كوكو شانيل"، زِيَاً وعطرًا.

أما أنا فلم أتحسّر إلا على "چيمي جدو"، حين كُثُثْتُ أقرأ وأتفرج على نجمات "هوليود" الحاليات وهن يتفاخرن بأن فساتينهن المبهرة صنعتها مصممون عرب مثل "إيلي صعب"، أو "زهير مراد"، فلم تكن تختلف كثيراً عن رسومات "چيمي جدو" على أوراق الكلك، والتي كان قد تحول جزء كبير منها إلى ملابس من روح وحياة تكاد تنطق بالحكايات، وتكتظ بها حقائب تيتة "نازلي" الضخمة، المدسوسية تحت الأسرّة وفوق الدواليب.

لم يكن جَدِّي مريضاً كلاسيكيّاً بأفة النسيان، فلم يغادر البيت ذاهلاً، أو ضلّ يوماً في الطرق مثلاً نسمع عن المُقتلتين بالـ"ألهائيمر"، بل ظل قابعاً بجوار أوراقه وكتبه، ينظر إليها مليئاً وكأنه يعيش أحذاث حلم سعيد، ثم يفيق من غفوته ويطلب أشياء جديدة لا أجادله بخصوصها، وأحضرها له فوراً، حتى تكَدَّست غرفته بالمساطر الخشبية، والمازورات، وورق الكربون، والمقصات، والأشرطة اللاصقة، ومئات الباترونات لفساتين طويلة، مجسدة من تحت الصدر، ثم تتسع فجأة. عكف على رسماها في صمت وشغف، وكأنها لنساء بدینات أو لأمهات ينتظرن حدثاً سعيداً. أما حين بدأ يخلط بياني وبين اخته وعمّته اللتان سَمَّاني على اسميهما، نصحني الطبيب بأن أطلب منه أن يحكى لي عنهما، حتى تحل الفرحة مكان الحيرة. فيبدأ في سرد حكايات قديمة كأفلام الأربعينيات، تبهريني وتهذّئه، ولم يكن يعكر صفو تلاقه من "صوت تيتة "نازلي" ، وهي تأمره كأم متشددة⁸

أن يكُفَّ عن الكلام ليأكل، ويتناول الدواء.

ما لم أجد له تبريرًا حَقًّا هو كيف لم نجد بين أطنان تلك الأوراق والمستندات التي عكف على تستيفها في دقة طوال حياته، ولو صفحة أو وثيقة واحدة تدل على إرث أو رصيد بنكي، أو حتى عقد بيع المحل أو الأتيليه، أو كنزاً أو دنانير مخبوعة تحت بلاطة، أو في حشوة لحاف أو بطانة فستان، كالحواديت الخرافية التي كنا نسمعها من "أم إدريس"، أو نتابعها في مسلسلات إذاعية في الراديو الخشبي الكبير؟!

تزعجني المقولات الجاهزة التي تحمل شحنة سلبية، مثل جملة "المصائب لا تأتي فُرادى"، وحين تقال تتشكل أمامي لوحة مرسوم عليها جنود مهزومون يتقدمون نحوه في زي موحد أسود مائل إلى الرمادي، محاولين طمسي وسط تعاستهم، لكنني فوجئت بلسان حالي ظل يردد الكليشيه الحزين بعد أن فقدت "چيمي جدو" مباشرة. فارتديت البيجامة القطيفة الحمراء، لأتجاوز فكرة أن "شادي عبد الهادي" قد تلاشى في نذالة سلسة في هذا الوقت العصيب، وحتى أضع رأسي على وسادتي دون أن أقلب في الرسائل الواردة على المحمول تلهفًا على كلمة مواساة منه. وتلفحت بالباطو الصوف الأحمر وأنا أتردد على مكتب المقاول الذي اشتري كل الشقق من سكان العمارة، ووعدهم بمنحهم شققًا تماثلها أو أوسع قليلاً في حي "جاردن سيتي" نفسه، إلا أن الرجل سافر وترك لنا سكريته يرد بمراوغة وتبجح، بأنه لا يعرف متى سيتم تشطيب الشقة الموعودة، وفي الوقت نفسه يطالبنا بإخلاء مسكننا خلال شهر، كما ينص العقد. أما الطامة الكبرى التي لم يكن ليخفف من وطأتها فساتين بكل ألوان الطيف، فهي كيف سيغلق علينا باب وأعيش بمفردي مع تيتك "نازلي"؟

"تمارا"



"نازلي سنجر"، جدّي والدة أبي، وزوجة "چيمي جدو"، يبعث ذكر اسمها فحسب على الرهبة، وانقباضة خفيفة في الروح. فلطالما ظنتها الكائن الخرافي المُجّنح المرسوم باللون الذهبي على ماكينة الخياطة الحديدية السوداء، والمكتوب عليها بحروف إنجليزية "سينجر". وحين تعلّمت في المدرسة أن كلمة "سنجر" تعني "مغّي"، استبعدت أن تكون تيّة "نازلي" هي صاحبة صورة "أبو الهول" ذي الجنابين، والذي لم أعرف إن كان رجلاً أم امرأة أم شبحاً، ويستقر في ثقة بعرض ماكينة الخياطة. كما استبعد عقلي الباطن فكرة أن تكون تيّة "نازلي" هي المسيطرة على آلة تجلب لي السعادة، حين تصدر صوتاً هائلاً فوق أقمشة ملونة، تقض، وتلتقط، وتنتمش،^{9%} وتفرد تحت إبرتها المكوكية، لتصبح

فساتين وشورتات وجونلات، يستوقفنا الناس في الطريق، ويسألوننا من أين أتينا بها، فتعذر تيبة للسائل لأن ما أرتديه "تفصيل". تلك الومضات أو الخروجات الصغيرة إلى شارع "قصر النيل" لشراء أقمشة "الديولين"، و"الجرسيه"، و"التوييد" شتاءً، و"الكتان"، و"اللينو"، و"الترجال" صيفاً، هي أبهى ذكرياتي مع تيبة، تليها تلك اللحظات التي تشرح فيها لـ"عمو عزيز" الترزي أو لـ"وديدة" الخياطة كيف سيسكلان هذه الأقمشة لتصير فساتين "كلوش"، أو "إيفازيه"، أو "تاي باس". كانت تنطق تلك المصطلحات الفرنسية في سلاسة، وتتقاها "وديدة" الخياطة في بساطة، وأفهمها أنا الطفلة التي لم تتقن اللغات بعد، وكأننا ولدنا مزودين بكارت ذاكرة لمصطلحات الموضة. كان ذلك منذ زمن بعيد، سنوات الطفولة الأولى، ربما قبل الصف السادس الابتدائي. حتى تلك الومضات كانت تتخللها قرصات في غلٌّ بأصابع تيبة، تترك علامات زرقاء على الفخذ، حين أحصل على علامة تقل عن الدرجة النهائية، أو حين لا أضم ساقيه على جنب واحد، كما يقول этиكيت، أو حين تقول تيبة معلومة خاطئة على الملا وأصححها لها. ثم ظهرت الهُوَّة العُمرية الكبيرة بيننا. ليست فجوة عادلة بين جيلين، بل حفرة عميقه وعربيضة تفصل بين جدة صارمة حُرمت من ابنها الوحيد، وحفيدة منعمة في حنان أبيها. نعم، كُنْتُ أعتبر "چيمي" هو أبي المباشر، وأحياناً صديقي وأخي، وحين كبر وأصبح عاجزاً عن القيام بأمور عدة، صار ابني. وعلى حد كلامه، في أحد حواراتنا الليلية، حين كان يعود منهّا من الأتيليه، ونعتبرها اعترافات سرية خاصة بنا نحن فقط، قال لي إنه لم يعتبر ابنه "شامل" رجلاً من صلبه، بل نطفة تكونت في رحم تيبة "نازلي"، وصارت النسخة الذكورية منها. وعلى الرغم من حزنه الشديد عليه، حين فارق الحياة قبل مولدي بأربعين يوماً، شعر أنني أنا كُنْتُ المعنية بأن أكون ابنته. "تمار" التي تنص الوصية الشفاهية المقدسة في أسرته بأن الابنة الكبرى لا بد أن تحمل اسم "تمار"، وكأنها أمر رباني مقدس. وكنت أنا الأمل الأخير في كشف حجاب هذا السر، أو دفنه ونسيانه إلى الأبد، فقد أخذت عائلة "ال Shawafily" في التناقض والاندثار، حتى لم

9% دقيقة متبقيه من «تمار..»

يتبقى منها سوى "جمال الشوافيلي"، وابنه "شامل"، الذي داهنته السيارة، وتلاشى على حياة عين أبويه.

كانت تيّة "نازلي" تشعر بشكل ما أن "چيمي جدو" قد تقبّل العوض والهدية السماوية بفرح. الأمر الذي لم تتجاوزه هي، وأن التوأمّتين "تمارا" و"ثُقى" لا تساويان "شامل" ابنها، على الرغم من الإرث في القرآن، والمصحف الذي لم يعد يغادر يديها أو لسانها بشكل مبالغ فيه، ينص على أن "للذكر مثل حظ الأنثيين". في الواقع لم تكن سيرة أو اسم تيّة "نازلي" هو ما يحث على الرهبة، بل اسمي أنا حين تنطقه. كانت عادة تستدعيّني من غرفة بعيدة، وبالنبرة المتوعدة التي تناذيني بها "تماراً تاماً"، فيقع قلبي في قدمي كما يقولون، وأشعر أنني ارتكبت جرمًا لا يُغتفر، حتى لو كانت تريدينّي لكي أعلق فستاناً أو لأحضر لها فكّة عشرة جنيهات، أو لتسألي عن أمر نسيته هي. كُنّت دائمًا من وجهة نظرها أنا المفلاّمة، فطللت محمّلة بذنوب صغيرة عشّشت في روحي كلما سمعت اسمي بصوتها. أما حين كانت تريدينّ أن تُثني علىّ أو تتمدّحني، تقول بنبرة محايضة مثل مذيع نشرة الأخبار: "ميرسي يا ست تمارا". وقلّما قالتها، حتى وهي في أضعف حالات مرضها، وأنا أحضر لها الدواء، والطعام، وأسندّها حتى تصل إلى الحمام لتقضّي حاجتها، وتصر على الوضوء خمس مرات في اليوم، بما فيها صلاة الفجر، حتى بعد أن أتيينا لها بفتوى لجمع الصلوات، نظرًا لحالتها الصحية رفضت. لم أسمع جملة "ميرسي يا ست تمارا" سوى مرّة واحدة أو مررتين، بناءً على رجاء من "چيمي جدو" يرسله لها بعينيه، بعدما لم يعد قادرًا على القيام بمهام الاعتناء بها العصيبة، وخوفهما هما الاثنين من أن يحضرها ممرضة قد تنتهز فرصة عجزهما وتسرقهما أو تقتلهما. ما ذنبي في أن تيّة "نازلي" قد وافقت على زواج ابنها "شامل"، أبي، من قريبتها من الفرع الفقير البعيد من العائلة لأنها على ليلة وكسيرة الجناح، فتستطيع تيّة أن تفرض هيمنتها على حياتهما بسهولة ولا يخرج "شامل" من حضن أمّه إلى حضن امرأة قوية تعاملها رأساً برأس، لكن "شامل" ضعيف الشخصية أمام أمّه، كان قوي الجسد على روجنته، فاعتزلت أكثر ولم تتحمل أن تُثني على حياة توأمّتين 10%

وحياتها أيضًا. يقال إنني و"ثقى" كنا متطابقتين لحظة مولدنا، فتوزعنا على البيتين من دون انتقاء، لكن ملامح "ثقى" أخذت تتبدل حتى صارت نسخة من أبي، وأنا أصبحت توليفة من كل أفراد الأسرة، لكن الأوّان كان قد فات في أن تستبدل تيّة "نازلي" البضاعة وتعيد تقسيم الترکة، فقد صارت "ثقى" نسخة نفسية من أمها وجدتها تيّة "زكية" في "الدرّب الأحمر"، وأصبحت أنا الروح المكملة لرفيق القلب "چيمي جدو".

أُخجل من الاعتراف حتى أمام نفسي بأنني كرهت تيّة "نازلي"، وطالما تشكيكت أنها والدة أبي، وأنني عانيت من فوبيا رسم السيناريوهات للحظة وفاتها هي و"چيمي جدو"، وتمنيت أن تسبقه هي، حتى لا أضطر للعيش معها من دونه، فلولا التوازن النفسي الذي كان يحدّث لي باحتواه ولطفه وحكاياته وعالمه الشري، لصرت عقدة كبيرة تسير على قدمين، أو لكون الآن امرأة في منتصف الثلاثينيات، يشوبها الذهول ونظرات البلاهة الطفولية كالتي تعلو وجه "ثقى". الغريب أنها كانت دائمًا تُوجِّد لـ"ثقى" المبررات لحمّاقاتها، وتتعاطف مع صعبانياتها، وكأن "ثقى" هي التي ولدت يتيمة وحدها، وكأنني لم أشاركها الرّحم الذي تهتك لوجودنا معًا به. حتى فساد ذوق "ثقى" في تنسيق الألوان وإهمالها لمظاهرها كانت تجد له مبرراً بأن "ثقى" أقل متنّي حظاً، لوقوعها في قرعة تيّة "زكية"، ابنة الحي الشعبي. ثم نالت "ثقى" صگاً شرفيّاً للغفران الأبدي عن كل زلاتها بعد أن فقدت عيناً في حادث انقلاب الحافلة في رحلة المدرسة.

ربما كان من الخطأ أنني أظهرت تصالحي مع فكرة الإيتم هذه، وكانت أتدمر من أي تعليق يشير إليها كمأساة؛ لأنني لم أكنأشعر بها من الأساس. يقولون إن من ذاق اشتاق، وأنا لم أذق حضن أم، أو لمسة أبي، فلم أشتَهِيْهما لأنني لم أعرف لي أبياً أو أمّاً، أو لأن "چيمي جدو" كان أبياً بما يكفي ويفيض. ربما تسائلت أحياً عن كيف تكون الأم، خاصة حين كنت أتفرج على مجلة "البوردا"، وأشاهد الأمهات الشقراوات اللاتي يشبهن بناتهن، ويرتدبن الموديل نفسه، ويتحذن وضع التصوير نفسه، وكأن البنت

الصغيرة صورة مُستنسخة من الأم، فتمنيت حين أكبر أن تكون لي ابنة تشبهني، ونرتدي فساتين باللون نفسه والموديل، ونسير يدًا بيد ونحن نجوب الشوارع الفسيحة، ونقف لالتقط الصور، وفي الخلفية بنايات عريقة وآثار. ربما أيضًا كانت هذه هي الحالة الوحيدة التي عشقت فيها التكرار، وأن أجد صورة مُصغرَة مثِي. ثم فقدت الأمل بعد طلاقي من "محمد"، فقمت بتبنّي "سهر" روحانِيًّا. كما اكتفيت بغرس أصابعي في فراء كلبي "چاكِيت"، وهدهدة باطن كفٍّي بالتربيت والطبعبة على شعره الغزير الملمس، والفرحة بتهليله كطفل يحتفي بأمه حين أدخل البيت.

نجحْت في التحايل على تنفيص تيتيه "نازلي" بالهروب، بحجَّة المذاكرة، والتزود من كورسات اللغات، والعمل في الإجازات الصيفية، ودبلومة التاريخ، ثم دبلومة تصميم الأزياء في لندن، وفترَّة زواجي القصيرة. العجيب أنني طلبت الطلاق من "محمد الخليامي" لأننا كنا نشبه "چيمي جدو" وتيتيه "نازلي" كزوجين غير متجلانسيين. وما كُنْت لأظل على تلك الحال معه لأكثر من خمسين عامًا مثلهما، تاركين البعض يتتساعلون في حيرة عن السر الذي يبقينا على قيد الزواج، لأعود وأعيش مع أنيق الروح "چيمي"، ومشوشة المشاعر تيتيه. ولو لا الجملة التي قالها لي جدو قبل أن يتمكن منه داء النسيان، والدفتر الصغير الذي اكتشفته بعد وفاته، وكتب فيه بعضًا من حكاياتهما، ما كُنْت لأتحمل أن يجمعني بها بيت بمفردنا، وكأن حضن "چيمي جدو" الذي مكث فيه لساعتين كاملتين بعد رحيله، كان كالورقة الزرقاء، التي كان يضعها في طيات الباترون، فصرت نسخة "بالكاربون" منه، وعاشرت تيتيه "نازلي" بالمعرفة.

"البيت المؤقت عبارة عن دار أثرية اكتشفت تُّوا، قصراً كان لأمير أو أحد الأكابر."

رئيس الدولة وزوجته الجميلة، سليطة اللسان، تباشر الخدم، وهم يرقصون أطباقياً خزفية ناصعة البياض، وملاعق وسلاكين من الذهب الخالص، وكؤوسًا من الكريستال. تشاهد تيتيه "نازلي"

الحركة الدوّاقب مبهورة بمظاهر الأبهة، وأسير أنا كالمنومة

مغناطيسياً خلف عالم الآثار، الذي يفتح صوانيًّا ممتلئًا بالعاديات النادرة، وألتقط صورًا لها. أما "چيمي جدو"، فينظر إلى المشهد في عدم اكتراث، ويتجه نحو بحيرة صغيرة في بهو القصر، مرتدية بذلة الرمادية التي لا أحبها، واتسعت عليه بعد أن فقد كثيرًا من وزنه. في جرأة لا يتحلى بها، قفز في البحيرة فغمراه الماء وتنعم بأمان جنين يسبح في رحم أمه، ثم خرج رائقاً، تنقط بذلة الرمادية ما تبقى من أدران روحه.

على مشهد "چيمي جدو" الصاعد من البحيرة، أفقت من الحلم، فجر اليوم السابق لمغادرتنا أنا وتيتة "نازلي" لشقة شارع "جمال الدين أبو المحاسن"، لنقيم لأجل غير مسمى مع "ثقي" في شقة "ال滴滴 الأحمر"، بعد أن تم القبض على مُشتري عمارة "جاردن سيتي"، بتهمة النصب والتزوير، وفقدنا البيت الذي كان يُؤويانا.

"الميَّة في الحلم مرأة روح اللي شاف الحلم".

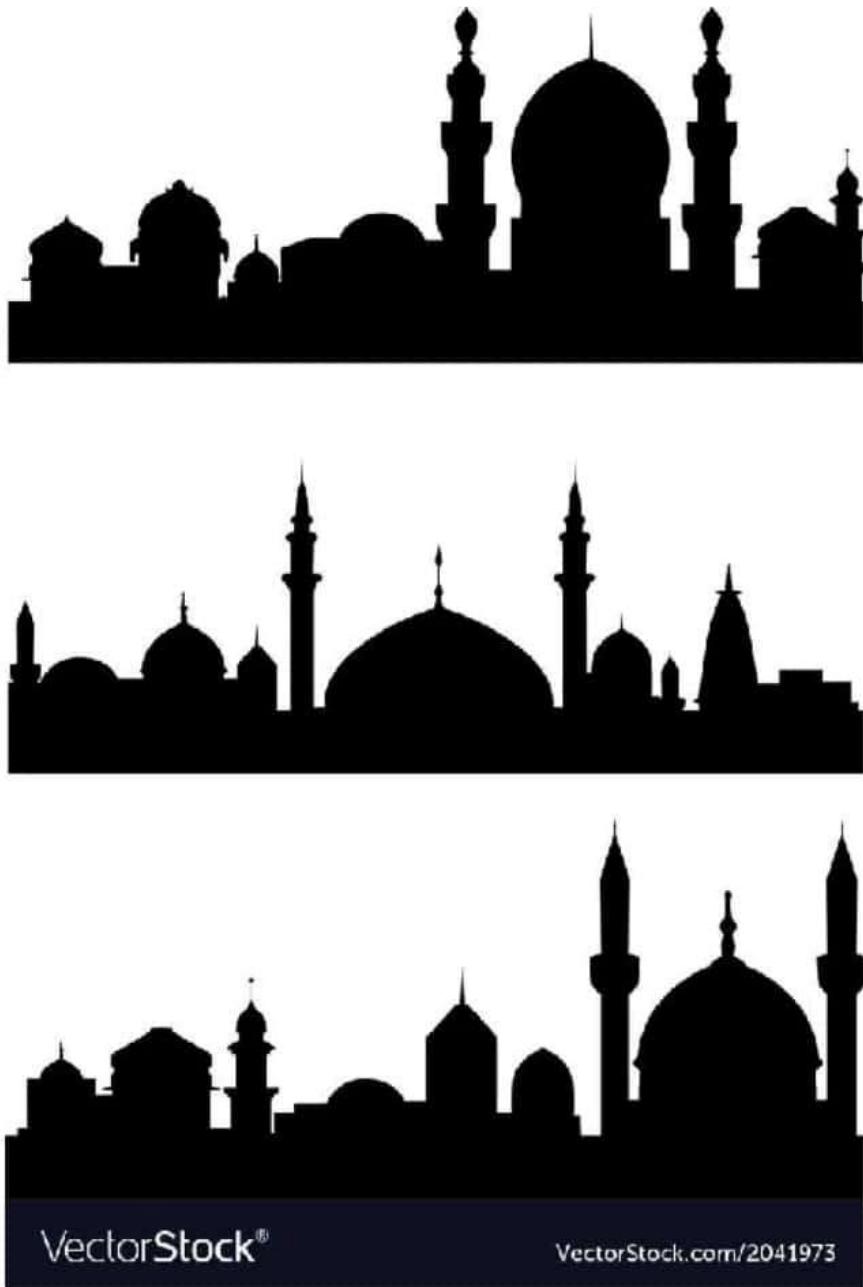
جملة ردتها "أم إدريس" ذات تفسير لمنام، تذكرتها وأنا ما زلت مُتسمرة في فراشي أحاول استرجاع أحداث الحلم العجيب. فأدركت أن "چيمي جدو" حين قفز في البحيرة، قد حل روحه في روحي. ما أزعجني هي تلك البذلة الرمادية التي لم تلق به، وصارت زيه الرسمي في كل المنامات والرؤى التي سيزورني فيها. الغريب أنني اكتشفت فيما بعد أن تلك كانت البذلة الوحيدة التي احتفظت بها تيتكة "نازلي" في حقائبها، كتذكار من ملابس "چيمي جدو".



"تمارا"

11%

دقيقة متباعدة من «تمارا»



أي عالم جديد، قديم قدم التاريخ، سأنقل إليه تيتيه "نازلي"، بأمراضها وأوجاعها التي تراكمت على مدار سنوات عمرها، وشدة طباعها ورأسها الصلب، وحقائب ملابسها الضخمة التي تعلقها على ماضيها، ولا تفتحها سوى مرّة في العام لتدس فيها كرات النفتالين التي تحميها من العثة، وقطع أثاث بيتها العتيقة الثقيلة، هذا فضلاً عن "چاكايت"، كلبنا المدلل، الذي يتعب حتى من نزوله شارعنا الهدائى لقضاء حاجته.

سمعت أن المرأة الوحيدة التي اضطرت فيها تيتيه "نازلي" إلى الذهاب إلى حيin "الدراب الأحمر" كانت منذ حوالي أربعين عاماً، 308 دقيقه حقيقه حقيقه

من أن الحي كان مجرد منطقة أثرية، يلتف فيها السائحون في انبعاث حول مئذنتي "باب زويلة"، وواجهة جامع "الصالح طلائع"، ويتمتعون بأبصارهم بالتشكيلات اللونية للأكلمة وزخارف لوحات الخيامية، التي يعكف على إبداعها الصناع المهرة في شغف على أبواب محالهم.

أدرك تماماً ماذا تعني مقوله إنك لا تنسى الإنسان الذي يأخذك إلى الأماكن الجديدة. هذا يجوز في دنيا الخيال والترحال. أما هنا، فكنت أضع يدي على قلبي خشية صدمة حضارية ستحل بها، حين ترى المكان نفسه الذي احتقرته منذ أربعين عاماً وقد امتلاه الآن بعربات الخضر والفاكهه، والمحل الصغيرة للوازم المقاهي والمصايف والخيام، ومحال الكشي وأفران الخبز المتواضعة، والمقاعد الخشبية والمناضد الصغيرة المنتشرة بعشوائية على الأرصفة، يجلس عليها رجال يدخنون الشيشة، وعربات "التوكتوك"، التي تحفر طرقاً رفيعة وسريعة، مخترقة الكتل البشرية المارة في المدق المؤدي إلى بيت تيتكه "زكية"، والمسمى مجازاً بشارع "أبو حريبة". ما يجعلني أتخفف من ذنبها قليلاً هو أنها هي من اتخذت هذا القرار في لحظة شفقة على "ثقي"، التي تعيش الآن مرتبعة بمفردتها في شقة "الدرب الأحمر"، بدلاً من أن نقضي فترة العزال المؤقتة في شقة مفروشة أو في فندق. إلا أنني ما زلت أتعجب من تلك المروءة التي تلبستني، لأخفف عنها، وجعلتني أصف لها شقة "الدرب الأحمر" مثل ساحر يأخذ طفلاً تحت عباءته الكبيرة وينقله في الزمان والمكان، فتسربت بصوتي إلى تلافيف مخها مثلما كنت أفعل مع "ثقي"، لكن ليس لأخيهها، بل لأصور لها شقة الدرب كملاد آمن. قلت لها إنها تعشق عمارة "جاردن سيتي" لأن جدرانها الخارجية مكسوة بأوراق الأشجار، ولأن العبور إلى باب العمارة يتطلب سيراً في ممر طويل، لطالما حير الضيوف والأصدقاء، فكان يعطينا إحساساً أننا بعيدو المنال، حتى عن اللصوص، الذين كنا نتصور أنهم سيضلون طريقهم إلى المدخل. كشاعر يتغنى ببلد المحبوب، وصفت لها الممر المؤدي لمدخل عمارة شارع "أبو حريبة" بـ"الدرب الأحمر" ، وأنه يماثل ³⁶⁹ عمارة "جاردن سيتي" ، إلا أن ممر الدرب 12%

يأخذ الزائر إلى عالم متفرد بذاته، ويُسرى كشريان مبطن بالأحجار، وينساب بين الباحة التي تضم بيت تيطة "زكية"، والحي الشعبي بالخارج. إلا أن الباحة تكسوها الحشائش زاهية الحُضرة، وتضم عمارات أثرية حول أضلاعها الأربع، فتبدو كمحمية ترعاها أشجار باسقة، تميل على البناءيات العتيقة، فتطرأ البلاطب والعصافير التي تحط على أغصانها سكان الباحة صباحاً، وتشجّيهم أدعية الكروان ليلاً.

مثل مؤرخ خائن لذاكرة الفرح، صورت لها شقة "جاردن سيتي" والحي كله كساحة حرب خطيرة، بعد أن تراشقـت فيها السفارات المتاخمة لبيتنا كأجسام دخيلة وصارت موقع مستهدفة للانتقام. كان يكفيها قليل من التحامـل على ضعـف قدمـيها والنـظر من النـافذـة الخـلفـية، لـتشـاهـد عـربـات الشرـطة بـلونـها الأـسـود، والـجنـود الشـاهـرـين أـسلـحـتهم لأـي تـهـديـد مـحـتمـل، والـبرـامـيل وـكتـلـ الـخرـسانـة والـحواـجزـ الحـديـديةـ المـخـطـطـةـ بـأـلوـانـ الـعـلـمـ، لـحـمـاـيـةـ السـفـارـاتـ. تعـجـبـتـ تـيـطةـ "ناـزـليـ"ـ حينـ قـلـتـ لـهـاـ إنـ أـهـلـ الـبـلـادـ الـأـجـنبـيـةـ الـذـيـنـ تـحـمـيـهـمـ تـلـكـ الـتـرـسـانـاتـ الـحـرـبـيـةـ يـعـيـشـونـ مـنـعـمـيـنـ بـالـسـكـينـةـ وـمـحـبـةـ أـوـلـادـ الـبـلـدـ بـيـنـ أـهـالـيـ "الـدـرـبـ الـأـحـمـرـ".ـ حـكـيـتـ لـهـاـ عنـ "أـنـسـتاـزـياـ"ـ الـتـيـ يـطـلـ بـلـكـونـ "ثـقـىـ"ـ عـلـىـ بـلـكـونـهـاـ فـيـ الـبـنـاءـ الـمـقـابـلـةـ،ـ وـ"ـبـاتـرـيـكـ"ـ الـذـيـ اـسـتـأـجـرـ شـقـةـ الدـورـ الـأـرـضـيـ وـيـعـيـشـ فـيـهـاـ معـ زـوـجـتـهـ،ـ وـاـشـتـرـىـ لـابـنـتـهـ "ـكـاتـرـىـنـ"ـ الـشـقـةـ الـتـيـ تـعـلـوـ شـقـةـ تـيـطةـ "ـزـكـيـةـ"ـ،ـ وـأـنـ الـكـلـمـاتـ الـمـتـرـدـ صـدـاـهـاـ فـيـ هـدـوـءـ فـضـاءـ الـبـاـحةـ حـرـوفـهاـ إـنـجـلـيزـيـةـ بـلـكـنـاتـ بـرـيـطـانـيـةـ،ـ وـفـرـنـسـيـةـ،ـ وـأـلمـانـيـةـ.

رضخت تيطة "نازلي" تماماً للواقع الجديد، خاصة حين أقسمت لها أنني لن أقتل نفسي حتى لا تفقد الراحة والرخاء اللذين كانت تتمتع بهما في حضرة "چيمي جدو"، بعد أن أخذت تتعنى حظها وتلعن الظروف التي ستهبط بها من أعلى سماء إلى أسفل سافلين. يبدو أن تيطة "نازلي" كانت تخشى هي الأخرى أن تستفرد بها وآخذ بثأر السنوات التي استقوت على فيها، حين كانت تتمتع ببقايا عنفوان. وما كُنْتُ لأُصبح تلك الحفيدة البارزة، لو لانيرات "چيمي جدو" المختنقة بدموعه وهو يوصي بها خيراً

قبل رحيله بأيام، مشفوعة بحكمة سطعـت في رأسه في لحظة صحوة موت، حين عبرت له عن شعوري بأن جفاف تيـة "نازلي" معي يدل على كراهيـة تحملها تجاهـي، فقال إنـ من تظنـ أنـهم يكرهـونـكـ، هـمـ فيـ الواقعـ لاـ يـكـرـهـونـ إـلـاـ أـنـفـسـهـمـ، لأنـكـ بـبسـاطـةـ تـذـكـرـهـمـ بـمـاـ كـانـوـنـ أـنـ يـصـبـحـوهـ وـفـشـلـواـ. أـمـاـ تـيـةـ "ناـزـليـ" نـفـسـهـاـ، فـقـدـ أـصـبـحـتـ مـثـيـرـةـ لـلـشـفـقـةـ بـعـدـ أـنـ صـارـتـ مـثـلـ قـطـعـةـ قـمـاشـ مـسـتـهـلـكـةـ، نـقـعـتـ فـيـ المـاءـ وـالـصـابـونـ ثـمـ نـشـرـتـ تـحـتـ أـشـعـةـ شـمـسـ حـارـقـةـ، فـانـكـمـشـتـ وـبـهـتـ أـلـوـانـهـاـ.

لم أسمعـهاـ أـبـدـاـ فـيـ الـماـضـيـ الـبـعـيدـ، حينـ كـانـتـ تـحـكـيـ لـرـفـيـقـاتـهـاـ عـنـ أـمـرـ يـخـصـ "ثـقـىـ"، إـنـهـاـ تـفـوهـتـ بـكـلـمـةـ "الـدـرـبـ الـأـحـمـرـ"، وـكـأنـ الـحـيـ الـعـتـيقـ عـارـ عـلـىـ جـبـيـنـهـاـ، هـيـ سـاـكـنـةـ حـيـ "جاـرـدنـ سـيـتـيـ"، وـسـلـيـلـةـ الـعـائـلـةـ الـرـاقـيـةـ. كـنـثـ أـسـمـعـهاـ تـقـولـ دـائـئـاـ:

- "ثـقـىـ" عـنـ جـدـتـهـ التـانـيـةـ فـيـ وـسـطـ الـبـلـدـ.

"وـسـطـ الـبـلـدـ" هـذـاـ هـوـ "الـدـرـبـ الـأـحـمـرـ" نـفـسـهـ الـذـيـ كـلـمـاـ وـطـئـثـ فـيـهـ مـوـضـعـاـ، صـارـتـ لـيـ حـكـاـيـةـ جـدـيـدةـ. يـكـفيـ أـنـيـ اـمـتـطـيـتـ أـجـنـحةـ الـمـلـائـكـةـ، وـمـشـيـتـ عـلـىـ الـمـاءـ، وـصـعـدـتـ سـالـمـ السـمـاـوـاتـ السـبـعـ معـ حـوـادـيـتـ "أـمـ إـدـرـيـسـ"، وـضـحـكـتـ مـلـءـ الـقـلـبـ وـأـنـاـ أـخـترـعـ الـقـصـصـ الـمـرـعـبـةـ مـعـ "ضـيـاـ"، لـنـخـيـفـ "ثـقـىـ". وـفـيـ بـيـتـ الدـرـبـ أـيـضـاـ كـانـ لـقـائـيـ الـأـوـلـ مـعـ "أـلـبـرـتـ"، وـبـدـايـةـ قـصـتـيـ الـمـلـغـزـةـ مـعـ "شـادـيـ عـبـدـ



الـهـادـيـ".

"ثقى"



VectorStock®

VectorStock.com/18016763

السلام عليكم ورحمة الله. السلام عليكم ورحمة الله.

"اللهم إن كنث أعبدك خوفاً من نارك، فاحرقني ب النار جهنم، وإن
كنث أعبدك طمعاً في جنتك فاصرفي منها".

كيف هون العشق الإلهي الخوف من السعير على "رابعة العدوية"،
فناجت ربها بهذا الدعاء، الذي أردده بعد صلواتي وأنا أرجف منه
رعبا؟

يكفيوني ما سيحل بي بعد قدوم "تمارا" للعيش معي في الـدرب،
وأظنهـا لن تكـف عن تخويفـي حتى بعد أن تجاوزـ عمرـناـ الثلاثـينـ.
تعرفـانـ جـيدـاـ هيـ وـتـيـتـةـ "ـنـازـلـيـ"ـ أـنـيـ أـرـتـعبـ منـ الكلـابـ وـأـنـفـرـ منـ
لـعـابـهـاـ الـذـيـ يـنـجـسـ طـهـارـتـيـ وـيـفـسـدـ وـضـوـئـيـ.ـ وـمـعـ ذـلـكـ جـلـبـتـاـ
معـهـماـ الـوـحـشـ الـذـيـ يـسـمـونـهـ "ـچـاكـيـتـ"ـ،ـ بـدـلاـ منـ أـنـ يـمـلـأـ عـلـيـ الـبـيـتـ

الحائط ليلاً، والصوت الذي يهمس منادياً باسمي بصوت كالفحيج.

يحكون أنني في طفولتي كُنْت لا أهاب كبيراً ولا صغيراً. قالت جدّتي "زكية" والدة أمي إنه كانت لي طباع وحلوة القبط، من كثرة ما كُنْت أغوص بكل حواسٍ مع قطط السلم. كُنْت أحمس الأطفال في وجوههم، وأجذب البنات من شعورهن، وأجرحهم بأظافري الصغيرة، وحين يستغيثون ويصرخون، تعلو وجهي علامات الارتياح. حتى جدّتي "زكية" لم تسلم مِنْ حين هددتها بأن أسكب زجاجة الزيت على الأرض وفعلت، فطلبت من تيّة "نازلي" حزاماً جلدياً متيناً تربطه على جسدي، وتلف طرفه الآخر حول كفّها. فأرسلت لها الحزام القديم لكلبهم السابق الذي كانوا يسمونه "ديور". كانت جدّتي "زكية" تربطني به، حتى تضمن سيرأً آمناً للأطفال المارين بجوارنا في الشوارع الضيقة، وحتى لا أنتش السجاجيد والخداديات الملونة المتراسقة على أبواب دكاكين الخيامية. كما كانوا يتندرون بأنني قد سرقت فرحة مُحَمَّرة وأنا في الثالثة من عمري، وأتيت على نصفها تحت السرير، وأنني فضحت أمر خالي "عادل" حين كان يخفى علبة شوكولاتة محسوسة بالويسيكي أسفل دولابه، فعثرت عليها والتهمت خمس قطع دفعه واحدة، استراحتوا بعدها ليوم كامل من قفزٍ وجريٍ بأرجاء البيت وركوبٍ سور البلكونة الخشبي. أوحٌ لهم تلك الحكاية بأن السوائل تخمني، وبدلًا من أن يلوموه على جلبه للمنكر إلى البيت، صاروا يلقمونني ملعقة كل صباح من دواء السعال الذي يحملني على النعاس، ويفضّل لهم ولـي يوماً هادئاً.

لم أتحلّ أبداً بهذه الجرأة التي يحكون عنها في حضور "تمارا"، حين كانت تأتي لتبيّن لدينا بعض مَرَّات في العام، إلا حين كانت تسأيرني في لعبة "الجازار". كُنْت أشعر بسطوة وثقة حين أنتزع أيادي وأرجل العرائس البلاستيكية، ونرصصها مثل اللحوم المعروضة على رخامة عريضة في دكان الجزار، الذي تتقدّص "تمارا" شخصيتها تارة، وأشتري منها اللحم، ثم نتبادل الأدوار على

مدار النهار، ثم نعيّد الأيدي والأرجل إلى أجساد العرائس، ونكسوها ثانية بفساتينها حتى لا تنهني جدّتي "زكية". وحين تعرّض على "تمارا" أن نلعب "محل الملابس"، أكون قد تعبت وبدأ يغلبني النعاس، خاصة أنني لم أحرص على أن يمتلئ دولابي بالملابس مثلها، فتغريني بأنها ستتحكّي لي حدوة، فأفيق وأنتبه. لكن لم يكن يغمض لي جفن طوال الليلة والليالي التالية، وأنا أنتفض رعباً تحت اللحاف، بينما أستدعى الصور والأصوات التي كانت تتمعن في إضافتها للحدوّة، حين تمطّ الحروف وتخفض صوتها، أو وهي تمثل لي شكل أبطال الحكاية، فتقف فوق السرير، وتغطي نفسها بملاءة تملؤني رعباً، وتقول ببطءٍ رخيم:

- أنا "زوبييلة".

على الرغم أنني كُنّت أدرك أنها هي "تمارا". وحين أبيت لديهم في شقة "جاردن سิตี้"، ترغموني على مشاركتها لعبّة "محل الملابس"، فتخرج من دولابها سترات من الجلد والصوف وقمصانًا من القطن، تصفها وهي تغيير نبراتها كامرأة كبيرة صاحبة محل تروج بضاعتها، فتقول كلمات بلغات غريبة، تضفي غموضاً ونفوذاً من جانبي تجاه الملبوسات، خاصة التي كانت تقول إن خالي "عادل" قد أرسلها لها من ألمانيا، إلا أنني كُنّت أتحمّل على أمل الحدوّة التي تعدّني بها إن رضخت للعبة الأزياء هذه.

كنت أمضي هذه الساعات في رؤي تدور في رأسي، فأربط كل كلمة تقولها بشيء يشبهه في حدوّة النبي "إدريس" التي سمعناها مراراً من سُيّي "أم إدريس". فقد حكت لنا أنه كان يعمل في الحياكة، وكان أول من خاط الثياب من نبات يسمى الكتان، الذي لا أدري كيف يكون نباتاً وخيطاً في الوقت نفسه. ثم أتخيل الأشكال الخرافية للناس قبل ظهور النبي "إدريس"، وهم يرتدون ثياباً مصنوعة من جلود حيوانات يقتلونها ويسلخونها ثم يتسترّون بها وينعمون بدهنها.

تقول "تمارا" هذه "ستيتتش" أي غرزة، فأكاد أسمع صدى صوتها 13% دقيقة متقطعة من «تمارا...»

كما يحكون عنه، أنه كان يذكر اسم الله ويسبحه وهو يدخل الإبرة ويخرجها مع كل غرزة. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. تصريح "تمارا":

-أنتِ نمتِ ولا إيه؟ أحكيلك حدوتة؟

فأنسى حدوتة "إدريس" النبي، وأنتبه في اشتياق لحكاية جديدة أحلم بها في نومي ويقطنني، لكنها تنهي الليلة بالطريقة نفسها، وهي تضحك من انكماشي رعيًا، بعد أن تقض على حدوتة "أبو حريبة" التي حكاها لها جارنا "ضيا" عن جده، أو تأتي بتنويعات جديدة في حكاية "زويلة" المخيفـة، وتردد كلمات عجيبة عن أناس من التاريخ كانوا يعيشـون ويتـجولـون في الشوارع والأزقة التي أعيشـ فيها مع تيـة "زكـية"، إلا أن مجرد ذكر أسمائهم كان يـلقي الرعب في نفسي. كلمـات كانت تقذـفـها في وجهـي وتـنـفـرـجـ على وـقـعـها عـلـيـ في إثـارـة وتـلـذـذـ. يـكـفيـ أن تـقـولـ أـسـمـاءـ منـ الماضيـ السـحـيقـ مثلـ "خـشـقـدمـ"، أوـ "بـلـبـايـ الـمـجـنـونـ"، أوـ "قـجمـاسـ الإـسـحـاقـيـ"، حتـىـ أـغـلـقـ عـيـنـيـ بشـدـةـ وأـسـحبـ الغـطـاءـ حتـىـ أـعـلـىـ رـأـسـيـ، وـأـتـمـتـ طـوـالـ اللـيـلـ بـدـعـوـاتـ تـتـعـجـلـ طـلـوعـ النـهـارـ. وـمـاـ إـنـ أـعـودـ إـلـىـ بـيـتـ تـيـةـ "زـكـيةـ" بـ"الـدـرـبـ الأـحـمرـ"، حتـىـ أـسـرعـ الخـطـىـ كـعـادـتـيـ حـيـنـ أـمـرـ بـجـوـارـ مـقـامـ منـ مـقـامـاتـ الـأـوـلـيـاءـ الـذـيـنـ يـرـقـدـونـ فـيـ توـابـيـتـ خـضـرـاءـ فـيـ شـارـعـنـاـ الضـيقـ، أوـ عـنـدـ بـابـ زـوـيلـةـ. كـنـثـ أـشـعـرـ أـنـيـ أـعـبـرـ فـوـقـ جـثـثـ المـغـوـلـ التـيـ أـمـرـ السـلـطـانـ "قـطـزـ" بـقـطـعـ رـؤـوسـهـاـ وـتـعـلـيقـهـاـ أـعـلـىـ الـبـابـ الـحـجـرـيـ الـكـبـيرـ، وـأـتـخـيلـ السـاقـينـ وـالـذـرـاعـيـنـ الـمـتـأـرـجـيـنـ وـالـرـأـسـ الـمـدـلـيـ عـلـىـ صـدـرـ السـلـطـانـ "طـوـمـانـ"، بـعـدـ أـنـ شـنـقـهـ السـلـطـانـ الـعـثـمـانـيـ بـالـمـكـانـ نـفـسـهـ. وـحـيـنـ كـانـتـ تـيـةـ "زـكـيةـ" تـرـسـلـنـيـ لـشـرـاءـ مـسـتـلـزمـاتـ مـنـ السـوقـ، وـأـضـطـرـ لـلـمـرـورـ بـجـانـبـ الـبـوـاـبـةـ التـيـ لـهـ بـابـانـ، كـنـثـ أـحـسـبـ خـطـواتـيـ وـأـقـفـ طـوـيـلاـ لـأـتـسـاعـلـ مـنـ أـيـ الـبـابـيـنـ خـرـجـتـ، الـبـوـاـبـةـ الـمـؤـدـيـ إـلـىـ الـجـامـعـ التـيـ مـنـ يـمـرـ مـنـهـ يـصـبـحـ مـبـارـكـاـ، أـمـ الـبـوـاـبـةـ التـيـ تـفـضـيـ إـلـىـ مـحـلـاتـ صـنـعـ وـبـيـعـ الدـفـوـفـ، وـلـاـ يـفـلـحـ مـنـ يـعـبـرـهـاـ وـيـنـشـغـلـ بـالـفـسـقـ وـالـمـجـونـ.

الإعدادي، التي كلفتنا بواجب مدرسي بأن تأتي كل طالبة بتاريخ شارعها أو الحي الذي تعيش فيه، ولماذا أطلق عليه اسمه، فكان مسّاً من سحر قد أصاب "تمارا"، حين فُتحت في رأسها تلك الطاقة المسمّاة بـ"جمال الدين أبو المحسّن"، الشارع الذي تسكنه في "جاردن سيتي"، وهو نفسه "ابن تغري بردي"، المؤرخ المولع بتاريخ المماليك، الذين أسكن أنا في عقر ديارهم، وشغفت "تمارا" بحكاياتهم، لا شيء إلا لتسريدها على وتنسلي، ولتكون سبباً في أن أعود إلى البيت قبل حلول الليل، حتى لا تصادفي أشباح قتلاهم، أو أن ألاقي "المتوّلي" صاحب الكرامات التي ترفرف روحه بين الجدران؛ لأنّه كان ولّياً صوفياً، يحج في مكة ويعود بآخر الليل لحراسة البوابة ولقضاء حاجات الناس الذين يضعون الأسنان التي انخلعت بين الألواح الخشبية التي تكسو الباب، ويلقون بالقطع النقدية والأحجبة خلف هذه الدرفة، ويربطون الخيوط وأشرطة من القماش في المسامير، فيعرفهم من آثارهم ويقضي لهم حاجتهم، أو يستوقفهم ويرغمهم على دفع الإتاوات.

هل مَسْتَني أنا أيضًا روح جن كافر من كثرة ما خطيت فوق آثار القتلى، وجعلتني أزهق روح تيّة "زكية" بمساعدة "تمارا"، أم أن الملائكة هم الذين قبضوا روحها بعد أن تكسّرت عظامها، مثلما تقول الآية:

إِذْ يَئُوفُّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ؟

"تمارا"



يسُمِّي هذا الموديل في دنيا الأزياء "جيوب أونفيلوب"، أو تُثُورَة المظروف. أما المظروف الحقيقى المصنوع من الورق، فقد يحمل مرسالاً ينطوى على أخبار أو أشواق أو أسرار، تماماً مثل موديل "الأونفيلوب"، الذى أحبوته دون غيره من موديلات التنورات. فتلك التُّثُورَة تمنحنى وقاراً وأناقة، حين أفصلها بقمash الكاروه الصوفى الداكن بدرجات الرمادى، أو مربعات الأحمر والأسود الأسكتلندي وأشبك طياتها بدبوس ذهبي كبير. وتزيدنى حيوية وبهاءً حين تكون من قماش قطنى خفيف، منقوش بورود ورسومات نخيل، وألفها حول وسطي وأربط طرفيها بعقدة من المنتصف، لتضييف حلاوة إلى مشهد الشاطئ الصيفي البهيج. لكنها في الوقت نفسه تزيد الجسم إغراء، بحسب رواية خالو "عادل"، الذى سمعته يقول يوماً إن نصف الساق العارية التي تفلت من فتحة جلباب فتاة ريفية تفوق غُرَى المايوهات البكيني إغراءً. حتى "چيمي جدو"، كان يمنح الـ"جيوب أونفيلوب" قدسيَّة ما، حين يلْف بشكيرًا كبيراً حول وسطه إن حل موعد الصلاة وهو يرتدي "شورتًا فوق الرُّكبة".

لا شيء يضاهي التّتّوره المُلتفّة على شكل مطروف، مثل انتقالنا أنا وتيتة "نازلي" إلى حي "الدرب الأحمر". مزيج معقد من المحافظة والفتنة. قطعة مستطيلة من القماش تترك على حالها من الخلف، مثل ماضٍ مقدس، يجب علينا عدم الالتفات إليه، لنهم بطيات الأمام التي تلف على الجسد تاركة إيحاء بوجود فتحة على الجانب، أوأمل وبصيص نور في المستقبل القريب.

كان الفرح الشعبي الذي احتشدت مظاهره من أول شارع "أبو حريبة" حتى آخره لحظة دخولنا أنا وتيتة "نازلي"، كثوب القماش البافتة الأبيض الذي يلف الطفل الوليد، ويحميه من ظروف الطقس المزعجة. استعادت تيتة "نازلي" شغفها القديم بالأفراح، وزغللت عينيها الملاءات المطرزة والبطاطين الملونة بجهاز العروسة، والمنشورة على أحبال بطول وعرض الشارع الضيق ليتفاخر بها أهل العروسين، تفصل بين كل بطانية وأخرى دببة وردية وقلوب كبيرة من القطيفة الحمراء، دليل الحب والغرام. كُنْت أشرح لها كل تفصيلة مثل مرشد سياحي يفسر لغرباء عادات وتقاليد بلد عجيب يزورونه للمرّة الأولى. ثم ارتفع صوت أغانيات الأفراح من سماعات الـ"دي جي"، التي سَدَّت جزءاً كبيراً من الشارع والتّف حولها بنات وشباب المنطقة، وهم يأتون بحركات عنيفة يفترض أنها رقصات شعبية، وقد لطخت البنات وجوههن بألوان صارخة وارتد़ين فساتين لامعة وسراويل ضيقة تبرز مؤخراتهن التي ترتعش مع إيقاع الطلبة وتصفيق أمهاطهن وأهالي المنطقة. ومع وصولنا نحن والحقائب وما استبقيناه من أثاث المنزل، إلى الممر المفضي إلى الباحة الهدائة التي تضم بيت تيتة "زكية" القديم، تأكّدت تيتة "نازلي" أنني ما كُنْت أخدعها حين قلت لها إن تلك الباحة بأشجارها وزقزقات عصافيرها، وهديل حمام غيّاتها، هي ملاذ آمن من صخب وفوضى العالم.

مثل ملكة تعتملي كرسي العرش، جلست "وديدة" الخياطة في قلب الباحة، ترتدي جلابية قطيفة وطربة باللون الأحمر، وتمسك في رفعة بخرطوم طويل تسقي به الحشائش المتناثرة وهي حالسة في مكانها المقدس، فوق كنبة الصالون المتربة، ذات 15% دقيقة معيشية من «تمار..»

الأرجل الثلاث، والمبقورة أحشاؤها، والمزركشة بفضلات العصافير والطيور التي تسقط عليها من فوق شجرة التوت التي تظلل المكان. تضع أمامها منضدة خشبية تقشر طلاؤها، عليها صينية من الألومنيوم تحتوي أكواباً وإبريق شاي وسکراً و"سبرتاية" صغيرة تنبعث منه رائحة نعناع أخضر، وتصنع جوًّا من الحيوية يليق بالزقة وهفيف أوراق الشجر.

تهللت "وديدة" وانتفضت لكي تحضرن تيتيه "نازلي"، وتدعواها إلى كوب شاي معد تُوا على الإبريق الذي يغلي فوق "السبرتاية"، لكننا كنا كالمنومتين مغناطيسياً، يسحبنا النعب وترقب المجهول، بجازبية علوية نحو السُّلُم الحجري العتيق، وسوره الحديدي المفضي إلى باب شقة تيتيه "زكية"، والتي تسكنها حالياً "ثقي" بالدور الثاني، وكانت أنا وتيتيه "نازلي" بمثابة "الأونفيلوب"، أو المظروف الذي سيطوى حول وحدتها ومخاوفها من كل ما حولها، حتى في هذا المحيط الآمن.

غالباً ما تكون هناك أزرار أو مشابك لتأمين الفتحة الجانبية للتنورة "الأونفيلوب". وهذا الأمان هو ما كُنْتُ أفتَّش عنه بدأب وحمامة، في كل ما تقع عليه يدي من أوراق، وبقايا الأقمشة المهرئة بحقائب تيتيه "نازلي"، والبريد الإلكتروني الذي يأتي بمراسيل من مجهولين، مخابيل أو أفاقين يسعون إلى الانقضاض على حياتك أو مدخلاتك. كُنْتُ أتشبَّث بأي كلمة أو جملة تقال، عليها ثُنَّقَذ تلك التنورة المُخادعة من الانفكاك والسقوط، وتركنا حراول مداراة عوراتنا.

أولى تلك الحماقات هو أنني اضطررت أن أخلع عن كلبي "چاكيت" سترته التي جلبتها له من لندن؛ لكي يتساوى ومجموعة الكلاب في المأوى وساحة انتظار السيارات التي يديرها "مأمون" ابن "وديدة" على رأس الشارع. شعرت بإحساس أم حملت من سفاح، وتركت ولیدها بجوار مسجد أو ملجاً، حتى تُجنِّبه تبعات فعلتها، وما سيلحق به من فضيحة. فتاريـخ "ثـقـي" يـشهـدـ بأنـها قـادـرـةـ علىـ جـلـبـ العـارـ لـلـكـلـابـ وـمـنـ يـحـنـوـ عـلـيـهـمـ. وـخـزـاتـ الضـمـيرـ

كـانـتـ مـثـلـ إـبـرـةـ مـكـوـكـيـةـ، تـحدـثـ جـلـبةـ فـيـ مـاـكـيـنـةـ حـيـاـكـةـ بـدـائـيـةـ، إـلـاـ

أني كنت أخفض من صوتها بإيجاد المبررات. فبالإضافة إلى أن فضيلة إبعاد "چاكيت" عن محيط "نقى"، إشاراً لسلامتها وسلامتها، كنت قد تأكّدت من أن "مأمون" ابن "وديدة" سيكون بمثابة عم أو خال لـ"چاكيت"، فالبرج الخشبي الصغير الذي يضم أنواعاً شتى من الحمام واليمام يملكونه المقابل لبلكون تيّة "زكية"، وتطرّب الساحة الهايّة هديلاً ورفقة، يشهد بأن "مأمون" يحمل نصيباً كريماً من اسمه.

كان النوم يهرب من عيني ليلاً، فأقطع الحارات الهايّة والفارغة إلا من الحوانين المغلقة، والأضحة الصغيرة، لأتسّل إلى ساحة انتظار السيارات بحجة أنني نسيت شيئاً في سياري. وما إن يشم "چاكيت" رائحتي على بعد أمتار، حتى يبدأ وحده في النباح، ثم ينضم إليه باقي الفريق حين أدخل إلى الساحة.

جاءنا "چاكيت" كرضيع لقيط فعلاً، حين أودعه صاحب المحل المجاور لأتيليه "چيمي جدو" أمانة لديه حتى يعود من سفره، فدخل علينا به وهو ابن أربعين يوماً، ملفوفاً في شال ومصاباً بنزلة برد حادة. كان آخر عهده بالكلاب منذ عشرات الأعوام، حين أعلنت تيّة "نازلي" أنها لن تقدر على مراعاة الحيوانات المنزليّة بعد وفاة الكلب "ديور" الذي رحل وأنا ما زلت في الثانية من عمري. كنت أقشعر من حجم "چاكيت" الصغير، وهو لا يقوى على الوقوف وتنشّي ساقه الصغيرة ويقع كلما خططا خطوتين. أحسته فأراً مثيراً للاشمئزار، وحين بدأ يكبر وصار في حجم خدادية كبيرة، وجدتني أحضنه وأحمله وأسير به في الشقة وفي الطريق، حتى إنه اعتاد على التدليل والنظر في عيني أثناء سيرنا وهو يكاد ينطق بأن احملني يا حبيبي. صار "چاكيت" مثل شال من الفراء الغني، أتلفح به فيمنعني أماناً ودفعاً. لم أشاً أن أصرّ بأنه طيب وساذج ويهاجم أي شخص جديد ويلحس وجهه ويديه من فرط المحبة والود الزائد، وأن صياحه ليس إلا اللغة



حراس للعقارات، يظنون أنه كلب شرس يهاجم كل من يصادفه،
16% دقيقة متقطعة من «تمار..»

أني كنت أخفض من صوتها بإيجاد المبررات. فبالإضافة إلى أن فضيلة إبعاد "چاكيت" عن محيط "نقى"، إشاراً لسلامتها وسلامتها، كنت قد تأكّدت من أن "مأمون" ابن "وديدة" سيكون بمثابة عم أو خال لـ"چاكيت"، فالبرج الخشبي الصغير الذي يضم أنواعاً شتى من الحمام واليمام يملكونه المقابل لبلكون تيّة "زكية"، وتطرّب الساحة الهاوّة هديلاً ورفقة، يشهد بأن "مأمون" يحمل نصيباً كريماً من اسمه.

كان النوم يهرب من عيني ليلاً، فأقطع الحارات الهاوّة والفارغة إلا من الحوانين المغلقة، والأضحة الصغيرة، لأتسّل إلى ساحة انتظار السيارات بحجة أنني نسيت شيئاً في سيارتي. وما إن يشم "چاكيت" رائحتي على بُعد أمتار، حتى يبدأ وحده في النباح، ثم ينضم إليه باقي الفريق حين أدخل إلى الساحة.

جاءنا "چاكيت" كرضيع لقيط فعلاً، حين أودعه صاحب المحل المجاور لأتيليه "چيمي جدو" أمانة لديه حتى يعود من سفره، فدخل علينا به وهو ابن أربعين يوماً، ملفوفاً في شال ومصاباً بنزلة برد حادة. كان آخر عهدهنا بالكلاب منذ عشرات الأعوام، حين أعلنت تيّة "نازلي" أنها لن تقدر على مراعاة الحيوانات المنزليّة بعد وفاة الكلب "ديور" الذي رحل وأنا ما زلت في الثانية من عمري. كنت أقشعر من حجم "چاكيت" الصغير، وهو لا يقوى على الوقوف وتنشّي ساقه الصغيرة ويقع كلما خططا خطوتين. أحسته فأراً مثيراً للاشمئزار، وحين بدأ يكبر وصار في حجم خدادية كبيرة، وجدتني أحضنه وأحمله وأسير به في الشقة وفي الطريق، حتى إنه اعتاد على التدليل والنظر في عيني أثناء سيرنا وهو يكاد ينطق بأن احملني يا حبيبي. صار "چاكيت" مثل شال من الفراء الغني، أتلفح به فيمنعني أماناً ودفناً. لم أشاً أن أصرّ بأنه طيب وساذج ويهاجم أي شخص جديد ويلحس وجهه ويديه من فرط المحبة والود الزائد، وأن صياغه ليس إلا اللغة التي يعرفها ويقول بها أهلاً بك أنا أحبك احضني. تركت الدخلاء الذين كانوا يفدون على حي "جاردن سيتي"، كباعة أو حراس للعقارات، يظنون أنه كلب شرس يهاجم كل من يصادفه،

ووُضعت لافتة على باب الشقة مكتوبًا عليها "احتدرس من الكلب"، فصار رجلي وملاكي الحارس، حين لم يعد هناك من يمنعني إحساساً بالحماية، بعد أن نال الوهن والشيخوخة من أجساد تيّتة "نازلي" و"چيمي جدو".

تطيئ "چاكيت" بالشغف بالملابس والأقمشة مثلّي ومثل أهل البيت. كنا حين لا نسمع له صوتاً نعرف أنه قد دسَّ فكّه في سلة الغسيل وسرق قطعة ملابس. كان يلتّهم جوارب "چيمي جدو"، ويجرجر قمصان نوم تيّتة "نازلي"، فتلتف حول جسمه ورأسه وهو يتقلب على الأرض، ليتخلص من اشتباكاتها بقدميه، فيصير شبيهًا بتيّتة وهي ترتدي إسدال الصلاة. أما أكثر المواقف إحراجًا عندما يخرج إلى الضيوف وفي فمه قطعة ملابس داخلية تخصني، أو تخص تيّتة "نازلي"، وهو يهز ذيله نشوة وفرحاً.

أبقيت حقائي مغلقة على ما بها من رصيدي الهائل من الملابس، واكتفيت ببنطلون جينز وبضعة قمصان واسعة تساعدنّي على الحركة بين شقة "ثُقى" بالدور الثاني، والغرفة التي استأجرناها من "وديدة" بالدور الأرضي لتخزين أشيائنا، والمرور ثلاث مرات كل يوم على ساحة انتظار السيارات لزيارة "چاكيت"، ولاخذ عربتي في بضعة مشاورير تخُصّ عملي الجديد في مصنع الملابس الجاهزة. لم يكن تمكسي بالـ"جينز" في تلك الفترة لهذه الأسباب الظاهرية فقط، بل لأنني أردت تكفيرًا عن ذنب تحريد "چاكيت" من الملبوسات الأنثوية، التي كانت تميزه، وكما ساويته بكلاب الجرّاج، ساويت نفسي بأي امرأة أو رجل أو عامل يرتدي الجينز ليس لأنه اللباس العملي، بل لأنه قد يكون الذي الوحيد الذي يمتلكه، ويستر قلة حيلة عزيز قوم ذل.

لا يفهم "چاكيت" سوى التّريّت ونبرات الصوت الحانيا وأسماء الملبوسات والأطعمة والكلمات التي كنا نتداولها لنحدّثه، أنا وجدو وتيّتة "نازلي". ليته يستوعب أنني ما كُنْت لأتركه بلا سترة، إلا لأستر سيرته التي لطختها "ثُقى" منذ تسعة أعوام، وتنتابها الهواجس بأنه سيعود لينتقم بغرس أنبيابه في لحمها، فتعملها حالته هياج كلما مرّ من أمامها حتى أي كلب يشبهه. ليتك 16%

يا "چاكيت" تميل رأسك يميناً ويساراً لتأكيد لي إنك تفهم ما أقوله، لو حكى لك عن ماضيك حين كنْت طفلاً، وأحضرتك معك ذات زيارة في "الدرب الأحمر". لم تكن كذكور الكلاب، الذين يمشون في أدبار الإناث يتسمّونها لينقضوا عليهن. حاولنا عرض جميلات كلبات الأصدقاء عليك، اللاتي وقعن في غرام رائحتك، وارتمنى على ظهورهن على الفور لإغواهنك. لكنك كنْت عاشقاً للقطط والأقمشة، تداعبها بأنفك وتتقرب إليها. كانت القطط تخمسك وتموئ في وجهك، أما الأقمشة فكانت لينة حانية، تترك لك نفسها، تحملها في فمك لتسلم بها على الزائرين، حتى صارت صولجاناً يميزك، كمنديل أم كلثوم. صنعنا لك مخدة صغيرة من قماشتك المفضلة، التي أتى بها "چيمي جدو" من بوادي الأقمشة بالأوتيليه. كنا نأخذ هذه المخدة معنا أينما ذهبنا، فحملناها معنا في تلك الزيارة التي أصررت أن آخذك معي فيها إلى "الدرب"، لكي نسلم على "ثقى" حين جاءت في إجازة قصيرة من ألمانيا. انجذبت قطة الشَّلَم لمخدتك وأخذت تتمسّح فيها، فصارت الوسادة مزيجاً شهياً من روائح "چيمي جدو"، وذكرياتك بشقة "جاردن سيتي"، إضافة إلى رائحة القطة التي أحببتها من طرف واحد بعد خبراتك السيئة مع قطط الجيران. كان لعمارة تيطة "زكية" بُواب أسمر، قيل إنه يتحلى هو وأسرته بالأدب الجم وعزّة النفس لأنّه هارب من ثأر. وكان له ابن صغير يسمى "عبد الرحيم"، وينادونه بـ"ديدو". كنْت تميل رأسك كلما قلنا "ديدو"، كدليل على أنك تعرفه لأنك داعبك مرّة واحدة بلطف، فاحتفظت بجميله في ذاكرتك الطيبة، التي تغريل الأسى وتبقي على الحنو. تركتكم أنت ووسادتك تلعب في ساحة البيت مع "ديدو"، حتى غلبه النّعاس واستلقى على وسادتك في بئر السلم. كنْت في الثالثة من عمرك، وهذا معناه أنك كنْت في الواحد والعشرين بمعيار البشر. داهمتك فورة عشق لمزيج روائح المحبة التي التقطها قميص "ديدو" من الوسادة التي شاركك النوم عليها. احتويته بقوائمك الأربع، حتى صرتما كتلة واحدة كعاشقين. في تلك اللحظة، شاهدتكم "ثقى" في بئر السلم، فأخذت تصيح وتکيل لكم اللعنات، حتى اجتمع الجيران حولكم، فاستيقظ "ديدو" مفزوغاً، وجريت أنت نحوه 1789

كطفل يستغيث بأمه. كانت تلك الواقعة حادثة فارقة في تاريخ العمارة. فلم يكن "أبو ديدو" بالباب التقليدي لعمارة بعينها، بل كان مستأجرًا للغرفة التي نضع فيها كل ما نملك الآن، وكان يسدد إيجارها عيًّا ساهرا على أمان العمارات الأربع المطلة على الباحة الصغيرة، وأطباق الويكة والكشك الصعيدي، والبصارة والعدس الذي كانت تطهوه "أم ديدو" للسكان. رحلت الأسرة الصغيرة تجر أذىال خزي لحق بهم عندما لقب بعض الشباب الأشقياء "ديدو" بـ"ديدو الكلب"، وصاروا يتداولون حكايته كفضيحة مضحكة. يقال إن الثأر المشؤوم الذي يطارد عائلة "ديدو" كان بسبب أن جده قد جرَّس جارًا له لأنَّه ضبطه في وضع مخل مع امرأة، فقتله الرجل، ودار الثأر على أفراد العائلة. العجيب أنَّ والد "ديدو" وأمه كانوا يعطيان عذرًا للقاتل الذي أجهز على جدهما الكبير، وكانا يقولان بكلنتمهما الصعيدية: "الفضيحة عار، وربنا اسمه الستار".

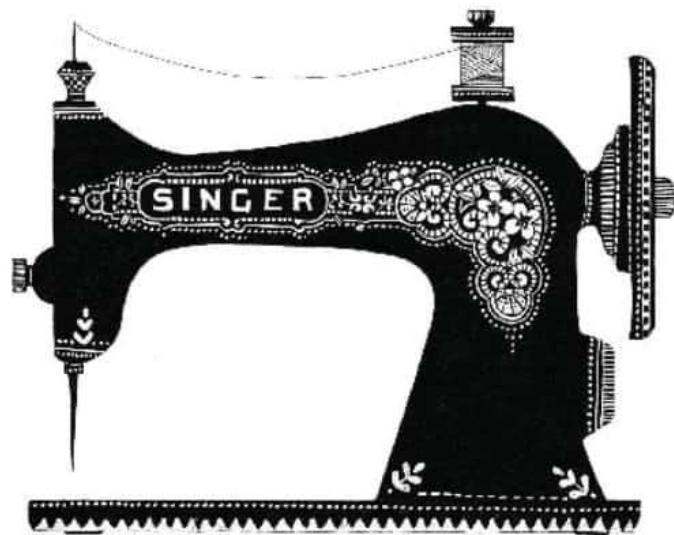
وبقدر ما كرها "ثقى"، بقدر ما اغتاظ منها سكان الأدوار الأرضية الذين اضطروا لتركيب حديد على الشبابيك، وافتقدت النسوة "أم ديدو" وحكاياتها وأطباق الكشك الصعيدي والعيش الشمسي ورائحة الويكة التي كانت تفوح في الباحة. كما صارت "ثقى" تركز في دعاء واحد ترددت بعد صلواتها التي تستغرق فيها وقتاً طويلاً، وكأنها تكفر به عن فعلتها التي بدا واضحاً أنها كانت ضرباً من حماقة ندمت عليها:

"اللهم استرنا بسترِكِ الجميل الذي سترت به نفسك، فلا عين تراك،
ولا تفضحنا بين خلقك، وأتم سترك علينا في الدنيا والآخرة".

هل تعرف قطعة القماش المطوية على شكل مظروف وتسمى
"جيبي أونفيلوب" يا "چاكيت"؟



"ثقى"



بعد التحيات لله، والصلوات والطيبات، أرفع لرب الفلق دعوة أن يكفيني شر ما خلق. أرددها صباح مساءً منذ أن عبّت "مأمون" ابن "وديدة" بعقل "تمارا"، وجلب معه شيخاً يقول إنه من الأردن، ليفحص ماكينات الخياطة الـ"سينجر" المهجورة لدينا في الغرفة الخلفية. سمعت الرجل الغريب يهمس لهما حين زارنا منذ أسبوع بأن ماكينات الخياطة ماركة "سينجر" التي صنعت منذ عام 1879، حتى 1900 مصنوعة يدوياً، وقد بث الصانع بداخل الماكينات التي تحمل أرقام 28 و 22 و 31 مادة الزئبق الأحمر.

سمع "مأمون" في مرويات قديمة أن تحت بيتنا الأثري الذي تمتلكه أمّه "وديدة" كنزاً مدفوناً من أيام المالك، وقد يكون محمياً بواسطة الجن، وأنه يلزمها زئبق أحمر لفك الرصد والجان. كما قال له صديقه الأردني إن كثيراً من الناس في بلده كانوا يقدمون استقالاتهم من أعمالهم المحترمة للتفرغ للبحث عن الماكينة، وكانت النساء تُتفقن أعداً لزيارة المنازل للبحث عنها. سلام قوله من رب رحيم. الماكينة ذات القدم الحديدية الثقيلة التي كنا نجلس فوقها أنا و"تمارا" في طفولتنا لتأرجح عليها تحمل الرقم 22. سينهدم البيت الذي يُؤويانا فوق رؤوسنا جميعاً إن عبّت هؤلاء المخابيل بأساس العمارة. لا أريد أن "تنام علينا حيطة"، مثلما رقد الجدار فوق سُتي "أم إدريس"، فتعلقت بين عالمي الأرواح والأجساد لعمر بأكمله. ستكون تلك هي الميّة الثالثة بالنسبة لي، والسبب "تمارا" أيضاً، والثالثة ثابتة.

حدّثتني "أم إدريس" أن الرقم 22 قد لاح لها في رؤية، فتتبعّعت آثاره، وعلمت أن ظهور الرقم 22 في المنام يدل على زيادة في القوة، والنصر على الأعداء، كما أنه يبشر الحامل على أن المولودة أنثى، أو أنها ستلد التوائم. شهدت تلك الرؤية يوم أن ولدنا أنا و"تمارا"، في ليلة الإسراء والمعراج. وتقول "أم إدريس" إنه في تلك الليلة عرجت روحها وعلت في السماوات العلا، ففاض الله على قلبها بسبعين ألف علم من العلوم المقدسة الربانية.

كانت تيّة "زكية" والدة أمي قد ذهبت للمبيت عند سُتي "أم إدريس"؛ ابنته حالتها، في بيتها القديم في حي "شبرا". وبينما كانت

18% دقائق، ابنته حالتها، في بيتها القديم في حي "شبرا". وبينما كانت

تُغطّان في نوم عميق، مال الحائط واستقر فوقهما تماماً. قالت لي "أم إدريس":

- عرفت يعني إيه كلمة "نامت عليكي حيطة". يعني ت Shawaf الدنيا سواد، و Shawaf تاريخ حياتك كله قدامك. وبعدين Shawaf روحك سايياك وطايرة في مكان بعيد مالوش ملامح، زي ما يكون ضباب. وبعدين ترجع Shawaf نفسك تاني تحت الأنفاس، وأصوات كتير وصراخ ودم مغطيك. وجدىك "زكية" اللي كانت نايمه جنبي بتقوم تقف تنفس التراب اللي عليها، وفيه خدوش بسيطة على دراعها، وواعية لنفسها. وأنا لسّة مرمية على الأرض. لكن كان فيه صوت واضح. لا واضح قوي، بيقوللي قومي.. ياللا قومي، وكأني طفلة صغيرة بيأمرها أبوها تقوم. كان صوت أبويا الشيخ مصطفى - الله يرحمه - في اللحظة دي، الناس كانت بتقول لا حول ولا قُوَّة إلا بالله، وستك "زكية" بتلطم وتقول مكانش يومك يا صابرة. بس أنا فُمت، وكنت شايفه نفسي ساعتها كأني باضّة في المراية. وأنا باقوم كان شكري عامل زي المجانين اللي بيحوفوا بيهم العيال. هدوبي متقطّعة، وخدوش في كتفي، والدم مغرقني، وشعري هايش في كل ناحية، والأسمنت والغضار خلى لونه أبيض، فكأني ست عجوزة مجنونة. بس أنا كُنث لسّة في عز شبابي، يعني كان عندي بيجي تسعة وتلاتين سنة. ومن ساعتها بقيت بشوف الخطر. لا باسمعه. الصوت بييجيلي يقوللي ساعة وقوع البلا. يقول لي ده خير ولا شر. هعيش ولا هموت. الصوت قاللي مكانك مباقاش هنا. مكانك هناك مع الناس اللي فاكرينهم ماتوا، وهما مش مييّتين. هما بيسمعوا كل دبة رجل بتتمشي جنبهم أو فوقهم، وببيستنوا كل كلمة سلام تتقال لهم، وكل فطيرة رحمة تدخل في بوأي جعان، فيقول الله يرحمهم أو يقرأ لهم سورة يس من القرآن. وهبت نفسي لهم. الناس قالت "أم إدريس" جالها لطف من ساعة حيطة بيتها ما وقعت وموتت ابنها "إدريس". أيوه أنا جالي لطف. بقيت ألطف بعباد الله اللي عايشين تحت التراب، والناس فاكرينهم مييّتين. أبويا اللي كلمني، وأمي، وإدريس، وراجلي اللي حبيته.

الكل قالوا إن الحيطة ماكنتش تقيلة، وكانت دائية أصلًا، بدليل 18%

إنها وقعت على "زكية" اللي كانت نايمة جنبي، وما جر لهاش حاجة. إنما أنا مث مع "إدريس" ابني وصحيت تاني لغاية وسبب. ستك "زكية" كانت جايالي يومها عشان تعرف أنا فضلت عاشقة جوزها في السر ولا لأ. الصوت قاللي كده. بس ولا أنا قلتلها ولا جدك كان قايلها قبل ما يموت. اللي ينام على سريصحى مسرور، واللي ينام على شريصحى مشروع. وأنا نمت على السر، عشان كده أما الحيطة نامت عليا، عليت فوق في السما، وشفت وسمعت العجب".

من العجائب التي كانت تدهشني في طفولتي، هي أن أذهب مع تيطة "زكية" لزيارة "أم إدريس" في حوش القرافة، ليس كجثمان مدفون تحت الأرض، مع باقي موتى العائلة، بل كساكنة للغرفة المقابلة للحوش. عاشت "أم إدريس" أربعين يوماً في بيتها بعد سقوط الحائط، لكنها كانت دائمة التردد على القرافة، لتزور "إدريس" الذي مات وهو في العاشرة من عمره، ولتبكي كثيراً عند قبر جدي، الذي لم أره أبداً. جدي والد أمي وزوج تيطة "زكية". قالت لي ستي "أم إدريس" إنها عكفت على الصلاة والعبادة لأربعين يوماً. كان والدها الشيخ يقول إن العبد إن أخلص الإيمان بالله وداوم على الذكر أربعين يوماً، أزهد الله في الدنيا، وبصره داءها ودواءها، وأثبتت الحكمة في قلبها، وأنطق بها لسانه، فأثارت الإخلاص لله تتفجر لدى المؤمن إذا استمر عليها أربعين يوماً.

ذهبت "أم إدريس" إلى المدافن يوم أربعين ابنها "إدريس"، فوجدت الشجرة الصغيرة التي تتواست الحوش تنموا وتكبر يوماً بعد يوم. كانت لا تقنع بالزيارة إلا عندما تملأ على التربة الرطبة التي تضم ابنها "إدريس" ووالدها الشيخ "مصطفى"، وجدي زوج تيطة "زكية"، وتحني كفيها بالتراب الذي تحته يرقدون. وفي كل مرّة تزورهم يتصادف أن تكون الشمس ملتهبة والجو خانق ولزج خارج القرافة. وبمجرد دخولها إلى الحوش، يداعب وجهها نسيم خفيف، ويتجمع اليمام والعصافير فوق السور وغصن الشجرة، وتمتزج زقزقاتها بآيات الذكر والدعوات وأصوات الآذان الصاعدة من المآذن الكثيرة البعيدة. كان يوم الأربعين هذا قاسيًا على ١٩٪

قلبها، وكان الجو شديد الحرارة. فحدثت نفسها قائلة: "والله الواحد يجيب مخدّة وينام هنا". وضعت كفّها تحت رأسها وراحت في نوم عميق فوق التراب الذي يحنو على أحبابها. لم يجرؤ أحد من قبل على البقاء في الحوش بعد حلول الظلام، فقد قيلت حكايات عن سماع أصوات رجال ونساء يتنازعون ليلاً؛ لأن شخصاً ما قد قرأ "قل هو الله أحد" إحدى عشرة مرّة، فقلّب الموتى بعضهم على بعض، وكان منهم من مات متتحرّاً، ومنهم الضرائر، ومنهم من مات غريقاً أو رميأ بالرصاص، لكن الشمس غربت، وارتفع أذان العشاء، وعم ظلام دامس، ولم تسمع "أم إدريس" شيئاً، ونامت نومة مشبعة، كما لم تنم من قبل. وقد شقشقت أنوار الفجر في ذلك اليوم أبكر من أي فجر مر عليها.

كانت هذه هي بداية إقامتها في الحوش. جلبت من بيتها مرتبة لتنام عليها، ثم منضدة، ثم كرسياً، حتى صارت الغرفة المجاورة للمدفن بيئاً لها. ذهب معارفها لبيتها القديم مرات عده ولم يجدوها. كسر الجيران باب الشقة، بناءً على طلب تيتيه "زكية". ولما لم يجدوا لها أثراً في أي محضر شرطة أو مشرحة مستشفى، سلموا أمرهم بأن مکروهًا قد وقع لها، وأودى بحياتها. ذهبا إلى مسجد "محمود" المجاور للقرافة ليصلوا عليها صلاة الغائب، ودخلوا الحوش ليقرؤوا الفاتحة على أمواتهم، فوجدوها غمددة وكبيرة المكان، وجهها صبور كالرغيف الطازج، ويتجمع الأطفال من أبناء سكان المقابر حولها، بعد أن تقص عليهم الحواديت، ولا تغادر الضحكة شفتيها، وهم يمتطون بخيالهم ظهر بطل خرافي، تكسوه الحلي والحلل، وله جناحان خضراوان قد سد بهما المشرق والمغرب، وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجوهر، مكتوب على جبهته "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

كنت أرى ستي "أم إدريس" أيضاً في مآتم مختلفة، منها ما يخص أقارب تيتيه "زكية"، ونمسي فيها وقتاً طويلاً، ومنها ما كنا نذهب إليها في زيارات قصيرة، وننصرف حينما ينتهي المقرئ من قراءة ما تيسر. كُنْت أسمع النسوة في مآتم الجيران يفسحون الطريق في مهابة لستي "أم إدريس"، وهن يرددن "أم إدريس بتاعة 281 دققيقة متبقية من تمار.."

الجمعية الشرعية وصلت". كانت بمُجرَّد أن تجلس يسكن من تلقاء أنفسهن عن النواح؛ لأنهن يعرفن أنها ستقول كلاماً ليس كالكلام، سيهددهن أرواحهن المعدبة ويحمد حرائق قلوبهن التي اشتعلت حزناً على فقيدهن. لم تكن تردد أقوال التعزية المكررة، ولا حتى الآيات والأحاديث التي تعدد فضائل الصبر. كانت تأخذ المكلومين إلى أحبابهم في رحلة إلى السماء. كانوا ينصتون في نشوة وهي تقول إن السماء من السمو والرفعة، إن رفعة المرء وترقّيه في مقامات القرب عند الله تنطبق على السماوات السبع، وما فيها من أوصاف الملائكة والأنبياء والصديقين، فيتبدل حزنهم فرحاً. وبعد أن تسحرهم بجميل القول، تختفي لشهر، أو أكثر كل عام، وهي تقوم بمهام عملها الجديد، تأدية مناسك الحج أو العمرة عن المتوفى، من خلال الجمعية الشرعية التي تتولى جامع "محمود" الملافق للقرافة.

بلغت سُيُّي "أم إدريس" الخامسة والسبعين، وكانت قد طافت خلالها حول الكعبة وهرولت بين الصفا والمروة، ولامست شباك النبي ما يزيد على مقدار عشرين حجة وخمسين عمرة، كانوا بمثابة تكfir عن ذنب أغفلت قلبها عليه ما يقارب أربعين عاماً، أي ما يقارب عدد سنوات عمري.

كنا في شهر رمضان، أفتر لديها كسرات خبز وجبن بالطماطم. كانت معي بالجسد فقط والروح شاردة منها، وكأنها مخموره بسكرات الموت. عادت لتحدث بلسان أرضي، وكأن ما تقوله لا ينطق إلا باللهجة التي تليق به. كانت تحدّثني على أنني تيتة "زكية" تارة، وتراني كحقيقة تارة أخرى:

- إوعي يا "زكية" تفكري إني كُنْتِ نايمه في القرافة عشان عشقت جوزك، أنا رحت أجاور "إدريس" ابني وأبويا الشيخ "مصطفى". جوزك أما كان بيجتمع بيَّا، كان بيغمض عينيه عشان ما يشوفنيش، ويقوللي آه لو ترضي يا "زوزو"، وهو شايف وشك أنتِ وحاضنك أنتِ. هو كان راجل طيب وكريم، وأنتِ كُنْتِ طرية وببيضا، بس عاصية عليه. ما هو مش بإيدك، كله من المرض اللي

طبك وقفلك من الرجالـة، وهو كان نفسه في واد يشيل اسمه، 20%

بعد ما خلفتوا بنتكوا "نادية" أم البنات.

يا ضنايا يا "ثقى". أنا باحسك بنت بطني أكتر من "عادل" اللي بتقولي عليه خالك ده. أصل "عادل" ده ابني أنا مش ابن "زكية". أنا كُنُث قريبthem الغلبانة العانس، اللي جابتها "زكية" لجوزها عشان يخلف منها، وهي ضامنة إن أنا شكلني على قدي ومش نغشة زيها. كان يخلص مُنِّي ويجري عليها يملس على شعرها ويدلعها، وهي سايقة العوج. قال إيه بتحبه زي أخوها. بس أقولك الحق، أنا عشقته، وفضلت عاشقاًه حتى بعد ما خدوا الواد "عادل"، كإنه ابن زنى وكتبوه على اسم "زكية". وحتى بعد ما اطلقت منه، واتجوزت أبو "إدريس" وخَلَفَتْ "إدريس" فضل عاشقاًه.

لا يا "زكية" ما تخافيش أنا عمري ما اشتھيت جوزك، بس أنا عارفة إنك بتجيبييني عندك كل خميس وجمعة عشان أنا بقیت من ريحته، حي ومیت، وباحس بيکي وأنت بتطبّطي علیاً لأنك بتصالحیه من الحرمان، ما أنت عارفة إن جسمی متترمع في التراب اللي نایم تحته."

وظلت على هذه الحال، تحدثنا أنا وطيف تیتة "زكية" التي كانت قد ماتت منذ سنوات، والفضول سيفتك بها إن كان زوجها قد عشق "أم إدريس" هو الآخر أم لا. وأشارت لي "أم إدريس" بأن أتركها لترتاح، ثم أغمضت عينيها في سلام، وسكتت نهائیاً عن الكلام، مع تغريد الكروان بالدعاء الممتزج بحناجر ذهبية تبتهل من آلاف المساجد قبل آذان العشاء.

قبل وفاة سُنِّي "أم إدريس" بأسبوع واحد، كانت قد سألتني عن عمري، وقلت لها:

- ده أنا قرَّبتُ أكمل الأربعين.

فقالت إنه على من يبلغ الأربعين سنة أن يجدد التوبة والإذابة إلى الله - عز وجل - ويعزم عليه، مثلما فعلت هي حين بلغتها. في الأربعين سرّاً دفيناً. فالعاقل من فهم مقادير الزمان. فهو زمان

مجاهدة الهوى والتزود للرحلة الأخيرة.

حملتني سُتُّي "أم إدريس" بسرها الذي أوصدت عليه عمرها،
ولقنتني دعاءً أردده لدفع الشر وقضاء الحوائج، شريطة أن
أسجد بعد أن أذكر حاجتي، ثم أقول في سجودي:

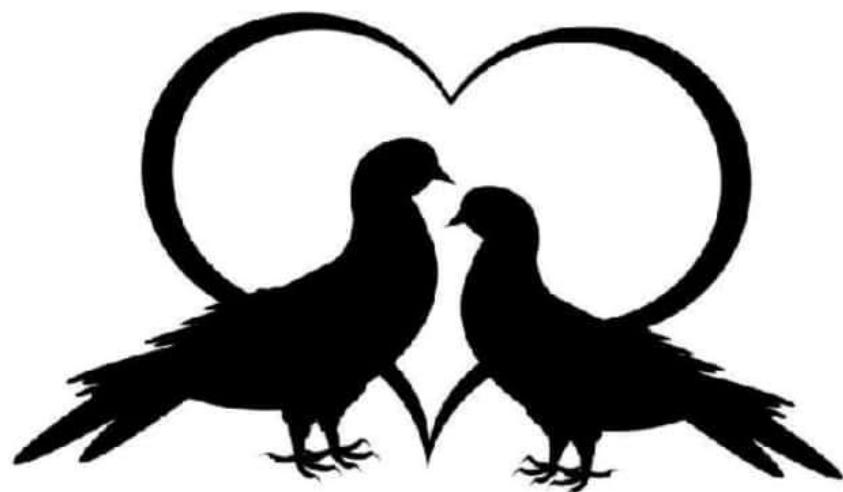
"فضلك آنسني، وإحسانك دلني، فأسألك بك، أن لا تردني خائباً."

رددته حرفياً بعدها كُنْت قد رأيت الرقم 22 الذي على ماكينة
الخياطة ماركة "سينجر"، وقد أوصتني "أم إدريس" أنني كلما
رأيت الرقم اثنين وعشرين، أتمنى أمنية، فيستجيب الله.

وكانت أمنيتي هي ألا يكون هذا الرقم ذاته حافزاً لكي تعبث
"تمارا" بأساس العمارة المتهالك، فينام فوقي وفوقها الجدار.



"تمارا"



التنقيب عن الكنز المدفون تحت البيت، بمساعدة الزئبق الأحمر
المخزون في ماكينة الخياطة القديمة، التي عشقت شكلها
وملمسها في طفولتي، وحلمت أن أقتنيها، لتكون قطعة فنية لها
تاريخ، وتزين الأتيليه الذي سأفتتحه يوماً ما.

يبدو أنه من كثرة ترتيل "أم إدريس" لسورة الكهف صباح كل
جمعة في شقة "ال滴滴 الأحمر"، وشرحها لنا أنا و"ثقى" للآيات
التي تحكي قصة الجدار الذي كان يخص اليتيمين، وكان تحته
كنز، وكان أبوهما صالحًا، فأراد الله أن يبلغ أشدهما ويستخرجا
كنزهما، صارت تلك الحكاية هي التعويذة التي حفظت البيت،
وجعلت "مأمون" يكف عن الهزي، ويترعرع لمسابقات الحمام
الزاجل. فقد أدخلت تلك الفكرة في رأسه "أنستازيا" السويسرية،
التي تقطن شقة الدور الثاني في العمارة المقابلة لعمارتنا،
وتشترك معنا في الباحة التي تضم البنايات الأثرية الأربع.

ما كُنْت لأدع مشعوًداً معتوهًا يقعني بأنّ أساهم في هدم جدار
قد يطوي بين جنباته حكايات من أزمان بعيدة، فالجدار العتيق
ذاته هو الكنز. كان "باتريك"، المهندس الأثري الذي يقطن شقة
الدور الأرضي، قد حكى لي منذ أعوام أنهم أثناء ترميم سبيل
"الست نفيسة البيضا"، الذي يبعد عن الباحة ببضعة أمتار، عثروا
على مجموعة من أواٍنٍ فخارية مملوكة محلية، وأخرى من
الصين ووسط آسيا وفناجين قهوة من أوروبا، وغلايين تبغ
عثمانية، ومجموعة أحجية على صيغ دينية وسحرية وُجدت
ملتصقة بشقوق الحوائط، لحماية المبني من الانهيار ودفع الأذى
عن سكان المكان. فربما تحمل جدراننا أحجية تكشف المستور
من أخبار تعيد لنا حياة كنا نعيشها بتملل، طمئناً في أيام أكثر
بهجة.

تفتَّت أخشاب غرفة نوم تيتيه "نازلي"، حزنًا على غياب صاحبها،
وقد كانت تحتل مساحة كبيرة من غرفة الدور الأرضي، التي
استأجرناها من "وديدة" لنخزن فيها ما نعترف به من ذكرياتنا.
فانتقل "چاككيت" مرّة أخرى إلى جوار القلب، وسكن الغرفة بدلاً

عاد "چاكيت" لوحده التي تتمتعه وتمنحه تميّزاً وتدلّياً، مثلما استأثرت وحدي بدفعه ومحبّة "چيمي جدو". تشم "چاكيت" سترته الحبيبة في لھفة، ورفع يديه لكي ألبسه إياها. وفي آخر كل ليلة، بعد عودتي من عملي كمصممة للأزياء الجاهزة، وما يتطلبه من مشاور لمصانع النسيج بحي "العاشر" البعيد، ومحال بيع الأقمشة بشارع "الأزهر"، وورش الطباعة بـ"باب اللوق"، كُنّت أستند إلى الوسائل الطيرية التي فرشتها لـ"چاكيت" في ركن من الغرفة، وألف ذراعي حول فرائه الغني، وأداعب بأصابعه رأسه ووجهه قطيفي الملمس، فأشعر بهبوب ريح آتٍ من عند الله، ليس مصحوباً بهواء، بل برهبة تجعلنيأشعر أن "چيمي جدو" يطوف حولي في خفة تنوّرة صوفية تعلو وتهبط كجناحي حمامنة بيضاء. وهو الشعور نفسه الذي يتملّكني حين أرفع رأسي إلى السماء قبيل الغروب، وأشاهد رفيق أجنهحة الحمامات التي يرسلها "مأمون" لتهيم في سرب انسيابي راقص، يعلو جدًا ويختفي، ثم تلهمه بوصلته الربانية بالعودة إلى أعشاشه الخشبية وحنان راعيه "مأمون".

للباحة وعماراتها الأربع ونسبة ساحرة، لا تغذيها روائح طهي زاعقة أو صياح أطفال أو أصوات منبعثة من أجهزة تليفزيون. فالمكان يكاد يخلو من الأطفال، وكأن باهها الحديدي الصدئ في أول الممر المؤدي إليه لا يسمح إلا بمرور من لم ينجبوأبناء، أو تركوا صغارهم يتفرقون في ربوع الأرض، وأتوا إليها لاجئين إلى الصفاء، فاستبدلوا حنان الصغار وأفتقهم، بالتربيت على فراء كلابهم وقططهم، أو التحليق مع أجنهحة طيورهم، أو مجرد الاكتفاء بذواتهم الغنية بالمشاعر والفنون والأفكار، التي يلدونها كأبناء من صلبهم، وتحمل أسماءهم وتخلدهم في لوحة أو كتاب أو استكشاف.

ومثلما أشبه حالنا الجديد بـ"الجيب أونفيلوب" المتشكّلة على هيئة مظروف، تستر وتكتشف في آنٍ واحد، تدثرت في غرفة الدور الأرضي التي يسكنها "چاكيت" بالصناديق التي تحمل مظاريف بجمعي الأحجام، تضم أوراقاً لا حصر لها. لم أجروه على 274 دقيقة فنيقية من «تماز..»

التخلص منها مثلما واتبني الشجاعة على ترك وتوزيع وبيع كثير من قطع الأثاث. وصارت اللمة الصغيرة التي تتوسط سقف الغرفة ديكوراً يرد على الأضواء الخافتة والأباجورات المضاءة من شقق "باتريك" المهندس الأثري الإنجليزي، و"أنستازيا" الفنانة السويسرية، و"ثقي" العاكفة على الهمميات في صلواتها، و"وديدة" التي تُلصق مذيعها "الترانزستور" على أذنها ويبيث أغاني قديمة، تجعلها تتنهد طرباً وشجنًا، وتشير ذكريات لا تعرف هل تحن إليها، أم تتذكرها فقط لكي تمن حالي الجديد.

الإحساس نفسه الذي يتملكني كل مساء حين أدخل غرفة "چاكيت"، وأبدأ في فرز الأوراق؛ باترونات لفستانين أبدعها قلم احتضنته أصابع "چيمي جدو"، إسكتشات لتنورات كانت مشروع تخرجني في معهد الموضة بلندن، ورسائل كثيرة تركتها في جيب روب "چيمي جدو" أو تحت وسادته؛ لأنني لم أقو على الاعتراف وجهاً لوجه بما احتوته، كالورقة التي كتبت فيها بخط طفولي أنني حصلت على الدرجة النهائية في التاريخ، لكنني رسبت في مادة الحساب، أو الخطاب الذي كتبته له وأنا في الجامعة، وعدته فيه أنني لن أكلم "فادي أباطة" مرّة أخرى، مهما تألمت أو انفطر قلبي. ربما اكتسبت تلك العادة لا شعورياً، حين كنت أشاهد "چيمي جدو"، وهو يجلس إلى مكتبه بآخر الليل، بعد أن تنام تيتيه "نازلي"، ويكتب حروفاً بخط منمق في مفكرة سميكه، ثم يوصد عليها أدراجه. مرّة وحيدة هي التي لمحت فيها المكتوب على غلاف المفكرة، قبل أن يدسها سريعاً في الدرج. كان على غلافها الأسود جملة مكتوبة بالذهب بخطه تقول: "الأمور الشخصية تُكتب ولا تُحكى". وهي نفسها المفكرة التي بين يدي الآن، وكانت ترقد مثله في سلام في صندوق الأوراق الصفراء. لا أدرى إن كان يجب عليَّ حرقها احتراماً لخصوصية أصحابها، أم الاطلاع على محتوياتها، فربما وجدنا أي أثر يدلنا على مكان الأموال التي تقاضاها عن بيع الأتيليه أو المحل.

لم يكن غريباً أن يتخلص "چيمي جدو" من المحل، فهو كفنان يعتز بمهنته كخيّاط كان يكره ألا يرى زبائنه ويشهد تأثير ما أبدعه على وجوههم،^{22%} ويعرفهم بشخصوهم ويقدرونهم لذاته،^{23%}

ويأخذ قياساتهم في كل مَرَّة يزورونه، وينادونه بـ"جمال باشا" مثل الرجال الذين كانوا يتربدون على الأتيليه. أما أن تخنفي مكونات الأتيليه التي كان يعتز بها، فهذا ما يحيرني. أين ترابيزات القص، وإستاندات تعليق البدل، والمقصات الضخمة المستوردة، وماكينات الخياطة وماكينة "الأوفلوك"، ورفوف تخزين الأقمشة الصوف وـ"التويد" والكشمير وـ"الترجال"؟ ومع ذلك أتفهم لماذا احتفظ بما يزيد على عشر حقائب ضخمة، تقشر جلدتها من القِدْمَ لطول فترة التخزين، وتضم فساتين وتأثيرات وبلوزات وتنورات كانت ترتديها تيتيه "نازلي" قبل أن أولد، ولم تعد بينها وبين تلك الملبوسات أي صلة، سوى كُرات النفتاليين التي تدسها فيها كل عام، وقطعة صغيرة تسحبها، لكي تعدلها "وديدة" لي، وأتباهى بها كقطعة "هوت كوتور"، أو أزياء راقية نادرة.

لا قيمة للأزياء إذا لم يرتدها شخص ما، لكن أزياء تيتيه "نازلي" المهجورة كانت كالأثر التاريخي الذي شهد عصوًراً زاهية، وكانت الأوعية التي صب فيها "چيمي جدو" من رحيم روحه، وقلبه وجسده. وكما أوصاني أن أحمل تيتيه "نازلي"، استخلفني بحبي له ألا أفرط في حقائبها يوماً ما. كانت تلك الحقائب كصناديق الرسائل الذي بين يديه الآن. رسائل تقاد تتطق بأنه عاشت في تلك الملابس امرأة كانت لها قياسات مثالية وجسد باهر، وقد فرحت وتنزهت وسافرت وعطرت تلك الملابس برحيق الزهور ويود البحر وزركشتها بأشعة الشمس ونسمات الهواء. صورة المرأة التي أراد "چيمي جدو" أن يبقى عليها، حتى لو كانت مجرد "هلاهيل"، تترافق كجثث في توابيت.

تلاشى طيف "كوكو شانيل" الذي كان يعشقه "چيمي جدو" في صورة تيتيه "نازلي" بعد وفاة ابنهما "شامل"، ولم يتبق منها سوى زجاجات عطر "شانيل نمرة 5"، التي كان يضع هو قطرة منها على معصميه بآخر الليل، ويسحب نفساً عميقاً وهو مغمض العينين، لكي ينام على أريج يُبهج القلب. فقد التزمت تيتيه "نازلي" في تلك المرحلة بنظريتين جديدين في الموضة؛ الأولى هي التي

تقول إن الأنقة عبارة عن ماء وصابون، والثانية هي التي تقول إن أعظم درجات التأنق هي أن تكون حقيقياً، فصارت تمضي وقتاً طويلاً في الاغتسال والوضوء، وواجهت العالم بمشاعرها الحقيقة كامرأة مكلومة على وحیدها. ودخلت في علاقة عشق مع الحداد، فصارت ترتدي له كل ما يليق به، فساتين سوداء، شعر معقوص غير مصبوع، ملفوف بإيشارب من الفوال الأبيض، وصار تورم العينين مكياجها، والقهوة السادة نخبها، وقراءة صفحة الوفيات والقيام بواجبات العزاء نزهتها، بعدها كانت مولعة بكيد النساء برشاقتها وأزيائها الفريدة في الحفلات والأفراح.

شعرت تيتيه "نازلي" أن الكون مدین لها بتعويضها عن فقيدها، وكأنها قد ضحت به عن طيب خاطر، وتنتظر مقابل تضحياتها. صارت تفرض وصاية كأم قسرية على كل المحيطين بها، أخواتها الذين يكبرونها وبنات حالاتها وأبنائهم، وبالطبع أنا و"چيمي جدو". كانت تعامله كأم وليس كزوجة، تعتني بماكله وتعد له ما يشتهي من الوجبات، مهما كانت صعبة وأياً كان الوقت، تتصل به لطمئن عليه في اليوم الواحد عشرات المرات كشرطٍ يلاحقه مجرماً، وهو ما كانت تفعله مع كل من يغيب عن ناظريها. وبينما حولت شهوتها للحياة إلى أواني الطعام المسبكة والمشبعة بالدهون، فانتفخت وترهلت، كانت حريصة بشكل مرضي على مظهرنا وأناقتنا أنا و"چيمي جدو"، "جمال باشا" كما يسميه زبائنه، فقد كان اللقب موزعاً على شخصه وهيئته. أما الثمن الذي كان عليه أن يسدده مقابل أنه تقبل واقعه بنفس راضية هو أن يتخلّى عن حلمه في أن يصير "كريستوبال بالينسياجا"، المُصمم الشهير بالتصاميم المبتكرة والألوان الصاحبة، والذي ألهم معظم ملوك الموضة، وبدلًا من أن يحمل لقب "سيد الخياطة" مثل "بالينسياجا"، تحول إلى مجرد خياط رجالي، يمتلك شقة في الدور الأول بميدان "لاظوغلي"، ويُفصل بذلات مكررة الألوان والأشكال، فيما عدا فتحة هنا، وجيب أو زر مختلف هناك.

كانت تيتيه "نازلي" تدرك العطب الذي أصاب روحها، وانتقل إلى 269 دقيقة متبقيه من «تمار..»

مظهرها، ولم تقو على علاجه مثل مرض عضال، فرأى أن الوقاية خير من العلاج، والوقاية هي أن تمنعه من ملامسة أجساد النساء، وإبهارهن بثقافته وتصالحه مع نفسه ومع الحياة، وبوسامة روحه ومظهره. كان الجميع يرضاخون لمطالب تيتيه "نازلي" كتعويض عن فقد الذي دمر حياتها، فصارت كطفلة يتيمة تستغل ظروفها حتى أفسدها التدليل، لكنه أفسد حلم "چيمي جدو" معها. الأمر الذي جعلني أكثُر لها حقداً، لم أستطع تصويبه ناحيتها، بل جعلني أفتش عن أي وسيلة لتحقيق أمنية "چيمي جدو"، وتفادي الجدال اليومي الذي لا آخر له بيني وبينها، وقد كان معهد الموضة في لندن هو الحل. العجيب أنها هي من باعت الذهب الذي كان يملأ شكمagiتها، لتحقق لي الحلم، وأن "چيمي جدو" هو من كان يرفض فكرة السفر والغياب لستة أشهر كاملة، لكنه كطفل مطيع لتيتيه "نازلي" رضخ.

ستة أيام بلياليها قضيتها في غرفة الدور الأرضي، في قراءة المفكرة التي علاها التراب وفض الرسائل التي اصفرت أوراقها، من أجل أن أجد حلّاً لمعضلة الأموال التي فقدت. لكنني كحالى على مدار حياتي، لم أحصل على الإجابات الصحيحة في المسائل الحسابية، أما التاريخ فكنت أحصل فيه على الدرجة النهاية. فقد وجدت حلولاً لكل ما كان يحييني بخصوص العلاقة المتباينة بين تيتيه "نازلي" و"چيمي جدو". تشكلت أمامي خمسة وثلاثون عاماً في ملخص لما "وقع من الحوادث"، على غرار كتب التاريخ التي لخصها أصحابها، وكانت كـ"المنهل الصافي في شرح الوافي".

"جمال الشوافيلي أبو لاسة"، طفل يتيم الأبوين، نشأ في دار عمه تمار، التي حُرمت من نعمة الإنجاب، فتلقفت الصغير مثل جوهرة ثمينة، راعتھا وصقلتها، حتى صار شاباً وسيماً، يهوى الألوان والموسيقى والجمال، بعد أن وفرت له حياة أرستقراطية ناعمة، على حساب دمها وأعصابها. فقد كان لها زوج سليل حسب ونسب، تربى في القصور، حيث الخدم والجسم، لذلك لم يستهني من النساء سوى من تعرّف على ملذات الحياة معهن من الفلاحات والفقيرات اللاتي خدمن في بيوتات العائلة. وحين صار له بيت

يضمها وزوجته "تمار"، جلب معه مَن يخدمها ويُسعدَّها. تقطعت أواصر المحبة والاحترام بين "تمار" وبين زوجها، إلا إنها أعمت عينيها عما يدور كل ليلة في مطبخ بيتها بين زوجها وخدماتها، حتى تضمن للصغير، ابن أخيها، من يوفر له ما يلزم من الأموال، ليدرس حين يكبر فنون الموضة والجمال. وحيث إن دوام الحال من المحال، ضارب زوج العَمَّة في البورصة بنصف أمواله، وخسر النصف الآخر على موائد القمار، فأمسك بقلبه الذي توقف قبل وصول المُسعفين، الذين حملوه من فوق المائدة الخضراء التي سقط فوقها مُفلسًا بلا جاه ولا بساطين.

لكن لحسن الحظ، كان "جمال" قد أنهى دراسته في كلية الفنون. ويرى في أحلامه أنه قد سافر إلى مدينة ساحلية تدعى "جيatarا"، حيث رائحة البحر وحميمية البيوت الصغيرة ذات القرميد الحمراء، ورَهْبة الجبال الخضراء المنحدرة، نحو أرض تقترب جدًا من باريس عاصمة الموضة، والأهم أنها كانت مسقط رأس "كريستوبال بالينسياجا".

كان "جمال الشوافيلي" رفيع الذوق في الملابس والمأكولات والنساء، لكنه وقع أسيئلاً لهوى ابنة الجيران الفقيرة، التي جاءت من الإسكندرية لتعمل وتكمِّل دراستها. كان والد الفتاة يتکسب من عزف البيانو لآمام مقاهي الكورنيش، وكانت الفتاة ترافقه أحيانًا في طفولتها وتغنى بصوت عذب على الألحان. وهذا الصوت هو ما أطرب "جمال" وأوقعه في حبائلها. ليس هذا فحسب، بل نزهاتهما معاً كل يوم جمعة على رمال "المتنزه"، و"المندرة"، و"الشاطبي"، و"راس التين"، ورائحة يُود البحر الممتزجة بالبرتقال الذي كانت تقشره له بيديها، وتشكل القشرة على هيئة وردة، تضعها في شعرها وهي ترفع أناملها برشاقة راقصة فلامنكو، فيشعر أنه يرقص رقصة جبلية شعبية مرحة في مدينة "جيatara" التي تمنى أن يقضى بها أو قاتًا لا ثُنُسى في إسبانيا، ثم ينزع منها إلى باريس. استشاطت العَمَّة "تمار" غضبًا من تلك العلاقة التي ستحطم كل ما تکبدته من أجل أن يصير لـ"جمال" شأن يعوضها هوان الذل مع الزوج الذي كان، فذهبت لأهل 266

الحبيبة في عقر دارهم، ومن أول الحارة نادت على أمها، وعيرتهم بأصولهم المتواضعة، وهددتهم بأنهم إن لم يختفوا من حياة ابن أخيها، سيشهدون ما لا ثحمد عقباه.

"جمال" الذي تمزق بين عرفانه بجميل عمّته، وحبه الأول البريء، لم يجد مخرجاً من مأزقه سوى أن ينهي حياته، فتجرع عشرة أقراص دفعه واحدة من علبة الدواء، إلا أن عمّته التي كانت تضع عيّناً راصدة عليه اكتشفت أمره في الحال، فنجا من الموت.

نهاية لقصة قديمة تشبه فيلم "غادة الكاميليا"، إلا أنها كانت بداية لزواج "چيمي جدو" من تبنته "نازلي"، ابنة "عبد العزيز بك سنجر".
رجل ميسور، من معارف العمة "تمار"، لكنه يصارع المرض في أيامه الأخيرة ويريد أن يطمئن على "نازلي" وأخواتها البنات، في حماية رجل يرعاهن كالأخ والأب. تم الزواج في أسبوع واحد، وجد "جمال" نفسه خلاله يتآبّط ذراع الفتاة وفُر له والدها مسكنًا كريماً، والشقة التي تحولت إلى أتيليه للأزياء الراقية، وأسرة توجّته أميراً على عرشهما، بعد أن رحل كبيرها، فامتلاً امتناناً عبر عنه على طريقته؛ أن جعل من "نازلي" نفسها قطعة فنية تنبض بالحيوية، وبالتفاصيل الغنية التي تزركش التاييرات والمعاطف والسترات، أزاراً ذهبية وجالونات على هيئة ورود، وشرائط صغيرة تزين الأكمام الواسعة والحردات الضيقة. حتى في فترة حملها، جعلها عروساً لتسعه أشهر تتزيين بفساتين واسعة من الدانتيل، والمحمل، والكشمير، فقد كان يرى أن الناس يبالغون في التأنق لساعات قليلة في ليلة العرس، ويهملون ثيابهم في الشهور التسعة المترتبة على تلك الليلة.

"جمال الشوافيلي" الذي شبّ على الامتنان وحفظ الجميل، بداية من عمّته "تمار" التي ربّته، ثم عائلة زوجته التي في لحظة ضعفه راعتاه واحتواه، لم يكف عن العرفان للفتاة التي عرف معها حلاوة رعشة القلب الأولى عند اللقاء، وشجن الأغاني لحظات الافتراق، وشذا قشر البرتقال الذي صار أريح النفس، ومتعة النظر كزهرة هاربة من ثمرة فاكهة، لتصير إكليلًا يزين حصلات ملائكة

264 شكل على هيئة أشعار هي روح الروح والقلب والعين.

هذا هو ما كتبه "چيمي جدو" في كراسته، تحت عنوان صادم:
"لم أحب نازلي يوماً".

وكعادته كان يختتم كل صفحة بجملة مأثورة أو سطر من أغنية،
فذيّل هذه الصفحة بـ"ما الحب إلا للحبيب الأول".

انتهيت من مفكرة "چيمي جدو"، وسحبت خطاباً بتاريخ عشرين
عاماً مضت، مغلقاً وعاد كما ذهب، ڻلَّ عليه بقسوة ختم أزرق
"لم يستدل على العنوان". اسم الراسل: "نازلي عبد العزيز سنجر".
اسم المرسل إليه: السيدة الفاضلة "هدى أباطة". تساقطت قطرات
العرق بين رموسي مع تزايد ضربات قلبي، فأصابني عمي لثوانٍ.
ما الذي يجمع بين تيّة "نازلي" وطنّت "هدى" والدة "فادى
أباطة"؟ فضضُّ الظرف بعصبية حتى مَرَّقت طرف الخطاب.
تيّة "نازلي" التي لا تنطق كلمة حب، ولا يهزها لحن ولا تطربها
زقزقة عصفور، ترسل توسلاً إلى والدة "فادى" ألا تحرم قلبين
متحابين من أن ينعموا بروعة الحب الأول؟ ثم تستطرد في الفقرة
التالية في امتداح أصل وفصل عائلة "ال Shawafily" ، والتحدث
بتواضع العارف بقيمة عن عائلة "سنجر" ، لترفع من قدرى في
نظر طنت "هدى" ، ومع ذلك ظلّت صامتة ولم تناقش معي أمر
"فادى" لعشرين عاماً؟

تيّة "نازلي" هي فعلًا المخلوق الخرافي المرسوم بالذهبي فوق
ماكينة الخياطة "سينجر". هي "اللاماسو" الكائن المجنح
والجيئات الحارسة في آشور، هي العنقاء و"السفنكس"
والكباس المجنحة في سوريا. هي الجباره العظيمة المعنية
بحراسته الكنوز العرفانية والأسرار والأساطير التي حدثت خلف
بوابات الشرق القديم.

لم أُبرح مكانى في تلك الليلة، وغلبني الثّعاس فوق شلتة
"چاكىت" بغرفة الدور الأرضي، فرأيت فيما ترى النائمة، صفحة
من الورق المصقول بمجلة "بوردا" ، بها صورة لأم شقراء ترتدي
جيب "أونفيلوب" كاروهات باللونين الأحمر والأخضر، وتمسك يد

ابنتها الصغيرة التي ترتدي الجيب نفسها بمقاسٍ صغير. العجيب أنني بداخل الحلم كُنْت أعرف أنها مجرد صورة، لكنني كُنْت أرى أيضاً شكل تيّة "نازلي" فوق وجه الأم، وأرى ملامحي تذوب في ملامح الطفلة الصغيرة. ثم ساد المشهد أحجار كريمة، من الياقوت الأحمر والزُّمرد الأخضر، تتشكل على هيئة مربعات تتناثر في الفضاء، ثم تسقط رويداً رويداً، وتتجمع في ثوب ملفوف وينغلق من الأمام على هيئة مظروف.



"أنستازيا"



سأرتدي اليوم التثورة الفوشيا السّاتان الواسعة، ومشد الصدر ذا الترتر الذهبي، لأمارس بهما رياضة الصباح. "كعب الغزال يا متاحني بدم الغزال"؛ أغنية رائقة تلقي برقصة تلين مفاصل

بطوله أمام شاشة الكمبيوتر للعمل على مشروعه الجديد. سأخفض صوت الموسيقى للحد الذي لا يجرح سكون السابعة صباحاً، ولا يطغى على أصوات زقزقة العصافير والبلابل واليمامات التي تزين شجرة التوت، التي يحلو لي التمائيل بفتح أمامها في balkon المطل على الباحة.

وكان للألوان البراقة وملمس الحرير صوتاً سحرياً يوقظ النیام، فبمجرد أن أظهر خلف أصص الزرع في Balkoni، ألمح وجوهاً ملتصقة بزجاج نوافذ الجيران المغبش، وخیالات تتحرّك لتتلخص من بين فتحات الشیش، خاصة حين يكون لديهم ضيوف يحكون لهم عن تلك الجارة الأجنبية المهووسة، ويستيقظون مبكراً خصيصاً حتى لا يفوتهم المشهد وهي تمارس الرياضة في بدلة رقص شرقية، وتهز وسطها وأرداها وصدرها على دقات طبلة وشخاليل صاجات. ما يهم هو أنهم بعد أن انتهي مما أفعل، يفتحون نوافذهم، ويلقون على تحية الصباح بابتسamas قوية، وبفرحة نابعة من القلب بالسويسرية المحبولة، التي هجرت بلاد اقتطعت من الجنة، وجاءت ل تستقر بينهم في حارة متواضعة بحي "الدرب الأحمر". أما من تأخذهم العزة بالنفس وروح المكان، فيقولون إنني اخترت تلك الشقة لأنها تلمح طرف هضبة "المقطم" الصغيرة التي يظنونها جبالاً، ويختمنون أنني سكنت بجوارها لأنها تشبه جبال "الألب" الخضراء. جبال "الألب" هذه تعتبر لا شيء، مقارنة بالارتفاعات الخرافية والالتواءات الحليزونية والمنحنيات الخطيرة لجبال "القوقاز" التي تقول الأسطورة إنها أحد الأعمدة التي تسند الكون، وشهدت شبابي وطفولتي، في مسقط رأسي، چورچيا.

تركتهم يعتقدون أنني من سويسرا لأنني سافرت إليها صيفين متتالين، بعد أن استأجرت هذه الشقة، فظنوا أنني أذهب للتتمتع بالنسيم الأوروبي العليل مع العائلة صيفاً، والعودة للتدثر بأشعة الشمس التي تكسو المكان هنا شتاءً. لم يُعلق أحد من الجيران على لون بشرتي الخمري، أو عينيه السوداويتين أو شعري الأحمر الداكن، الذي قد يشبه ملامحهم، لأنهم يرونني بأعين قلوبهم

كشقراء ذات شعر ذهبي وأعين زرقاء وبشرة بيضاء باهتة، منبهرة بتاريخهم وحضارتهم التي طمستها الفوضى والضجيج. وقد حرص كل أهل المنطقة على أن يكونوا أهلاً للانبهار والدهشة بتقبلهم لي كفريبة صارت جزءاً من مكونات حياتهم اليومية، أنا وضيوفي الفنانين، الذين ما إن يلمحونهم حتى يتعرفوا عليهم بمجرد أن تطا أقدامهم منطقة تحت الربع، أو يركنون سياراتهم في الساحة التي يشرف عليها "مأمون" ابن "وديدة" عند جامع أبو حريبة.

لم يدفع الفضول أحداً من الجيران أن يدخل شقتي؛ لأنهم يظنون أنهم يمتلكون المشهد كاملاً، من خلال التوافذ العالية المفتوحة على الصالة، وتكشف الأكلمة الملونة والطلبية التي أضع عليها جهاز الكمبيوتر، والكراسي الخشبية المنخفضة، والخداديات المنتاثرة على الأرض، وأعمل وأقرأ وأتناول طعامي، وأستلقي حتى يغلبني النعاس عليها، فيظنون أن هذا هو كل عالمي، بالإضافة إلى الشقة التي أستأجرها في الدور الذي يعلوني، وأستخدمها كمرسم وساحة فنية تستقبل الفنانين من كل حدب وصوب.

أما الغرفة المسحورة المطلة على المنور، وسطح العمارة المجاورة المكدس بكراءكيب الجيران، فهي مستودع أفكارني التي أعكف طوال الليل على القبض على الإلهام الذي يأتي بها، وأمضي النهار في تحويلها إلى كيانات فنية على هيئة أفلام فيديو آرت أو أشعار شجي وتأثير وتبديل رؤى، أو تكوينات هائلة الحجم تتلوّط حدائق وساحات مهمة من مشارق الأرض إلى مغاربها. أما الحوائط، فتتزين بملصقات لمقالات تشيد بما حققته، وشهادات مكتوبة بماء الذهب، ودروع وتماثيل على هيئة جوائز تقديرية، أرقصها على الأرفف لا لتفاخر، بل لكي أشد من أزري وأمعن النظر فيها، كلما خانتني همتني.

بالغرفة نموذج لتصميم سميته التلاؤ. كرة بيضاء كبيرة تشبه الأرض، محفور عليها جبال ووديان والقمر في منازله السبعة، وگانها تسبح في سحابة، وقد رأيت أنها تليق بأن توضع في فناء

مكان يَعِدُ بحياة أكثر بهجة، كصرح للتنوير الروحاني أو مكان للاستشفاء. الكرة مرصعة بأحجار تمتص أشعة الشمس طوال النهار. وحين يحل الظلام، تتوجه الكرة القمرية، وتنشر نوراً متلائماً.

لم يدخل أحد هذه الحجرة سوى "مأمون" ابن "وديدة"، الذي يعمل "موديل" لمصوري الشوارع في أيام راحته. جعلته يستلقي على ظهره في نموذج القارب المصنوع من الفايبر الفوسفوري، الذي يحتل نصف الغرفة، وشغلت مؤثرات موسيقية توحى بهدير أمواج على جزيرة، ويتغير لون الأزرق إلى الأعمق، كلما تفاعلت نبضات قلبه مع سطح القارب. صرّورته بكاميرا الفيديو، وجعلته بطلاً لفيلم مدته دققتان تشيران إلى أن الحياة تبدأ في قارب، القارب الذي يحملنا في رحم الأم، ويأخذنا في رحلة الحياة الطويلة.

أما قدس الأقداس في هذه الشقة، فهي الغرفة الوردية، أو ما يفترض أن تكون غرفة النوم. غرفة نهاية الدهليز الخاوية إلا من خمس عشرة لوحة، بعدد سنوات فقد لابنتي "نينو". لوحة لـ"نينو" في عامها السابع، الغمر نفسه الذي غادرت الدنيا فيه. رسمتها ترتدي فستانها الوردي، لكن بمقاس واحد أكبر. "نينو" التي في خيالي في عامها العاشر، وقد قصّت ضفيرتيها. ثم "نينو" التي في حاطري في عامها الرابع عشر، وقد طال شعرها، وفار جسدها. "نينو" في عامها العشرين تقرأ خطاباً غرامياً. "نينو" في الثانية والعشرين في حفل زفافها، ترتدي الفستان الدانتيل الوردي نفسه الذي غادرت الحياة فيه وهي في السابعة من عمرها، وكان يصلح لطفلة وصبية وعروس. ذلك الموديل الرقيق البهيج الذي رغم بساطته يصلح للخلود..

وعلى الرغم من أن "مأمون" قد نام واستراح في الزورق المصنوع من الفايبر الموصول بنبضات القلب، وربما لمح إحدى اللوحات بقدس الأقداس الوردية، تركته يظن أنني من سويسرا مثلما يظن الآخرون، ولم أطلعه على ما يعرفه "باتريك"، جارنا في العمارة

التقيت مررّم الآثار الإنجليزي "باتريك" منذ زمن بعيد في "بيهالي" للفنون، وقد جمع بيننا حبنا للمباني القديمة والقطع الأصلية والترحال في قلوب وعقول البشر. أما العام الذي حل فيه ضيًقاً على چورچيا، واستأجر الشقة التي نمتلكها أنا وشقيقتي في شارع "ديفيد آجماشينيبيلي" بوسط "تبليسي"، كان هو العام نفسه الذي فقدت فيه "نينو". لم أشارك "باتريك" جولاته على الكنائس والأديرة الأثرية ولا صعدت معه الجبال الشاهقة كما تعودنا، ولا حتى جالسته لتناول القهوة في الفراندۀ المطلة على الباحة المشتركة بين عمارتَيْ عديدة، وكان يعشّقها لأنها تتنفس أصالة الشعب الكارتافيلي بأصوات النساء ولكنّتهن التي تختلف عن كل لغات الأرض، والممتزجة بزقزقات العصافير ساعة العصاري ونداءات الجدات والأمهات والأطفال - الذين يلهون ويلعبون بالساحة - على بعضهم بعضاً. وهذا يعنيه ما جعلني أغلق على نفسي باباً وأنجس انفرادياً في غرفة خلفية، لا تصلها أي أصوات، لأكثر من أسبوعين، المدة نفسها التي قضتها "باتريك" في "تبليسي". استفسر "باتريك" من شقيقتي عن سبب عزلتي المرضية، فعرف أنني كنت أصحو وأنام على نداءات لا تهدأ على فتيات كثيرات في الجيرة يحملن اسم "نينو"، الأمر الذي لم يتحمله قلبي، حتى بعد مرور تسعه أشهر على الحادث الأليم. ومثل ساحر ماهر، أغوانى "باتريك" أولاً بما لن أقوى على مقاومته، التاريخ المتدقق منذ آلاف السنين، وما زال يجري مثل نهر "متكماري" في قلب "تبليسي"، ونهر النيل القريب جدًا من مكاننا هذا. لم يردد أقوال الأطباء النفسيين عن البدء من جديد بعد الشدائـد ومواصلة الحياة كأن شيئاً لم يكن. فقط حجز لي تذكرة سفر على نفقتـه، على ألا أسدد ثمنها إلا لو راق لي المكان الجديد. قال لي ستتعلمين الصبر وسط الألوان وقصاصيق الأقمشة والفنون الأصلية التي تعشقينها. ستعيشين بين أناس يؤمنون أن مهنتـهم هي صنعة الأنبياء، نسبة إلى نبي الله "إدريس" الذي كان يعمل في حياكة الخيام. ستتجولين بيـصرك بين العصور من أول زهرة اللوتس الفرعونية وحتى الزخارف الإسلامية ذات الدلال والانحناءات كالحروف الأبجدية

الجورجية. والأهم من هذا وذاك، إنك ستعيشين في باحة طبق الأصل من باحة "ديفيد آجماشينيبيلي"، مع الفارق أن لانسونه ولا أطفال سيجعلونك تسددين أذنيك وتنامين في وضع جنبي، حتى لا تستيقظين فزعة على نداءات عالية تصيح باسم "نينو".

جئت إلى البلد الذي ربما عاش فيه أجدادي كمماليك الجلبان، بيعوا على كبر أو اختطفوا صغاراً، ليصيروا فرساناً وسلاميين، أو ربما كانت لي جدة بيعت في سوق للرقيق، وعشت بموضع العفة لديها تاجر نخاسة حquier، ثم صارت خوند أو خانوم من ساكنات السرايا والقصور. جئت وبقيت وصارت "نينو" تكبر كما يرسمها خيالي، في اللوحات الوردية القابعة في غرفة قدس الأقداس. أتركها شهوراً قليلاً في مأمن بين من يظنوني سويسريّة، أفحّم الأعرق من وجهة نظرهم؛ لأن هدفي في الحياة هو أن أبدع أعمالاً فنية تحبّي الأمكنة والأزمنة وتلفت نظر الشعوب إلى شاعرية وقدسيّة إرثهم الثقافي. صرت أنا نفسي القطعة الفنية التي أيقظت أهل الدرب على أن لديهم تراثاً وشوارع وأزقة وأضرة جديرة بأن يرفعوا رؤوسهم وهم يرون أن بينهم أناًساً تركوا أجمل بقاع الدنيا ليعيشوا معهم.

إلا أنني في كل صباح أحتار قليلاً في اختيار لون وقماش التئورة المناسب لللون مشد الصدر ذي الشراشيب الذهبية أو الفضية، والذي لا بد أن يتناغم والموسيقى التي ساختارها. "يا بنت السلطان، حنّى على الغلبان". ليست موسيقى جبلية وقورة تحث الرجال على النضال، أو هادئة عفيفة تنظر فيها المرأة إلى الأرض خجلًا، كما في الرقصات الجورجية. بل دقات طبلة كنبضات قلب أو حركات عشق، تزرّكشها شخاليل رق ورنين صاجات، ودلال أكورديون ونعومة كمان. أتلوي على نغماتها كأفعى مغوية، تتمايل في غنج، ولا تبالي بالأعين المتلصصة من خلف درف الشبابيك، لتنستمتع فقط بكونها أنتي تتهاوى كزورق يُشكّل رحماً، يشع أماناً ودفناً، ويكتفي أن تقع في كل بنات الدنيا، وتُبزغ منه مع بداية كل نهار ألف ألف "نينو".

"تمارا"



"حرّاط البنات خرطك". سمعت تلك المقوله للمرأة الأولى حين كنّث في الرابعة عشرة من عمري. قالتها لي "وديدة" الخياطة لما قامت بتضييق التّثُوره الـ"بيبي دو بول" التي اخترتها من بين مقتنيات تيّتها "نازلي" من حقيبة قديمة تحت السرير. عدّلتها وحبتتها حول جسدي فأظهرت أردافني التي بدأت في البروز منذ شهور. وقفّت مزهوة أمام المرأة المستطيلة، أتأمل التّثُوره الصوفية السميكة بنقشة المربعات الصغيرة المتداخلة بالأبيض والأسود، والتي يطلقون عليها الـ"بيبي دو بول"، وكنت أردد اسمها كالفتیات دون أن أفهم معناها، إلى أن عرفت في درس اللغة الفرنسية أنها تعنٰ ^{27%} «قدم الفرحة». نقشة كالمنمنمات، وعلى

الرغم من تصميمها البسيط، تملك جاذبية كبيرة وقدرة على لفت النظر من دون جهد بفضل طابعها الكلاسيكي. أدين لـ "وديدة" بأنها أول من لفت نظري إلى تفجّر أنوثتي، وأنا في حيرة إذا كان ما جعلني مذهوّة أمام المرأة هو "خرّاط البنات" الذي نحت جسمي، أم النقشة التي تحمل اسمًا مغويًّا حين يُنطق بالفرنسية. عرفت السر فيما بعد في درس النسيج والنقشات بمدرسة الموضة، فالـ "بيبي دو بورو" يناسب النساء اللاتي يحببن التغيير، لكن لا يمكن الجرأة الكافية للفت النظر، مثل تيتيه "نازلي" صاحبة التثورة الأصلية التي آلت لي. والنقشات الكبيرة منها تناسب المرأة الجريئة التي ترغب بلفت النظر إلى أناقتها ورقتها. وقد أدركت أنني أصبحت من هذا النوع من النساء، حين اكتشفت أن خزانة ملابسي تحوي صفًّا كاملاً من التنورات والفساتين والمعاطف بنقشة "البيبي دو بورو"، التي كبرت مساحات الأسود والأبيض فيها، مثلما اتسعت تلك الغرفة التي استأجرناها في الدرج لتخزين منقولاتنا، لأنني طلبت من "مأمون" أن يحول جزءاً كبيراً مما تحويه إلى السطوح مع رقام وكراكيب الجيران.

رصصت حقائب الملابس، وصناديق الأوراق في الأركان بطريقة فنية، وكأنها ديكور عصري لصومة فنان. صارت الغرفة هي وكلبي "چاكيل" بمثابة شال أتدثر به كل مساء. ويرسل مصباحها نوراً ودفناً، مثل القنديل والأحبار الضوئية المشعة التي تلتف حول مسماط ضخم على حائط صالة "أنسستازيا" في العمارة المواجهة لنا.

لا شيء يضاهي هذا السلام سوى نغمات كمانجات تتدخل في موسيقى الفالس التي كنا نسمعها أنا وـ "شادي عبد الهادي". أكتب "آند ذا فالس جوز أون" في قائمة الأغانيات المفضلة على تليفوني، لتكون الخلفية الموسيقية لأمس بيتي التي نويت أن أكمل فيها ما بدأته هنا مع أسرار وخبايا المطاريف والخطابات. توسيع مساحة البحث والتنقيب مثل نقشة الـ "بيبي دو بورو"، من مجرد أوراق مبعثرة وخطابات لم ثُقراً ولم يستدل على عنوانها، إلى قائمة من مئات الرسائل الإلكترونية الوافدة من

الشخص الغريب نفسه على مدار شهور. قس يدعى "أندراوس" ويتكلم عن أموال وممتلكات وإرث. تلك الرسائل التي قد تحمل فيروساً يدمر بريديك الإلكتروني، أو تستغل الطماعين والسذج و تستولي على بطاقاتهم وأرصدتهم البنكية. كُنْت قد أعطيت أمراً بتحويل هذا النوع من البريد إلى خانة الرسائل غير المرغوب فيها، خاصة أن "أندراوس" هذا لم يكن الوحيد الذي يزعجي، فقد سبقهأشخاص كثيرون، ومنهم من كُنْت أعرفهم شخصياً من النادي أو الجيران. العجيب أن رسائل "أندراوس" عادت للظهور على رأس قائمة الرسائل المهمة، والأغرب أنها بدأت باسم "چيمي جدو" كاملاً، وكأنه هو الراسل. "جمال إحسان الشوافيلي أبو لاسة"، كما لفت نظري أن اسمي مكتوب بالطريقة الصحيحة "تمارا"، وليس كما يكتبه وينطقه الجميع "تمارا". وفي أسفل الرسالة حروف تشبه الأهلة، وأنصاف القلوب، وأوراق الورد، وتعلوها صورة لنسر فارد جناحيه، وفي صدره رسم لـ"مارجرجس" فوق حصانه، ويغرس سيفه في قلب التنين.

ثلاث خبطات قوية على باب الغرفة تخرجني من استغرافي، وأسمع اسمي في الوقت نفسه الذي كُنْت أمراً بعيوني عليه في الرسالة. "وديدة" تناذيني وهي تدق الباب، حتى أنتبه من نبرة صوتها أنها تريدينني في أمر جلل.

- شوفي يا "تمارا"، أنت ليك دلال ع الواد "مأمون". كلميه خليه يعقل ويحط راسه في شغل الجراج اللي فاتح البيت. ليس محزن ولائق وحلق شعره زي الهدهد، قال عشان بيصور نفسه للموضة، قلنا ماشي. قاعد ليل ونهار يكلم الحمام واليمام وينضف له العشة ويحط له ميّة وأكل، ويربي كلام في الجراج، قلنا كله بثوابه. عامل نسبة شيشة ويلم أصحابه آخر الليل ع السطوح، قلنا بيتسلى. إنما ساياب أكل عيشه وخطيبته زعلانة عشان مش بيكلمها وماشي ورا الخواجاية.. قال إيه هيرگب للحمام أجهزة في رجليه، ويدخل بيه مسابقة ودایر وراها بقالهم أكثر من شهر، مرّة في "طوخ" ومرّة في إسكندرية ومرّة معرفش فين!!! والنبي تكلميها. ولا أقولك.. كلاميها هي. اطلعيلها وفهميها بالهداوة إن إحنا

غيرهم. أنا مش عايزة أطؤش معها. برضك مشفناش منها حاجة وحشة بقالنا سنين، والرزرق اللي بييجي من الإيجار اللي بتدفعه في الشقة بتاعت الرسامين مش وحش.

الخبطات الثلاث نفسها من يد "وديدة" سمعتها حين كُنْت طفلة صغيرة. لا أتذكر في أي عمر تحديداً، لكنني أتذكر شكل "وديدة" حين دخلت علينا شقة "جاردن سيتي" وفي يدها قطعة صغيرة من القماش "اللينو" السادة، وتيتة "نازلي" تقول لها سأجربك في قميص نوم لـ"تمارا". كان هذا اليوم هو عيد ميلادي، وكان يوم إثنين. أخذت "وديدة" مقاساتي بعينيها وهي تسلم عليّ، ومن دون باترون أو مازورة، تحولت قطعة القماش إلى قميص نوم. وبعد أن أضافت شريطًا عريضاً من الركامة البيضاء على الأكمام والصدر والحمالات والذيل، صار قميص نومي المفضل. كُنْت أستنشق فيه رائحة القماش والخيوط وزيت الماكينة، وأكاد كلما ارتديته أسمع صوت المقص الحامي وهو يفوت في سلاسة في النسيج الناعم، والقصاقيق الكثيرة التي كانت تملأ الغرفة وتجمعها "وديدة" على هيئة كرة، لتصنع منها سجادة. قالت لها تيتة "نازلي" أن تأتي الأسبوع التالي والذي بعده، وإلى ما لا نهاية، حتى صار كل يوم إثنين ميلاداً لثوبٍ جديد. ومثلما كانت تيتة "نازلي" تجسیداً لـ"جريتا جاريتو"، وـ"كوكو شانيل"، تحولت أنا بفضل "وديدة" إلى "سعاد حسني" بفساتينها المرحة ذات الفيونکات، والأزارار، والنقط الكبيرة، والجالونات، والكرانيش. إلا أنني حين كبرت، ورغبت في موديلات أكثر وقاراً، كالفساتين المجسمة والچاکتات التي تكمن أناقتها في نظافة التشطيب، عرفت كم تفصل "وديدة" الملابس بعشوانية لكي "تأكل عيش". وهذا ما كُنْت أشعر به حين أرفع ذراعي فأشعر بضيق الگُم من عند الأكتاف، أو حين أجلس فأضطر أن أشد الفستان لأسفل من عند الوسط. وعرفت أن الفارق بين خيّاطة كـ"وديدة"، وخياط مثل "چيمي جدو"، هو كالفارق بين المحارب المُرتزقة، والمحارب الذي يدافع عن وطنه.

ما زالت ودية "مرتزقة"، على الرغم من أنها ما كانت تحلم يوماً 248 دقيقة متبقية من «نهار..»

أن تكون صاحبة أملاك، فقد عرفتها تيتيه "نازلي" فتاة فقيرة، تسعى للعمل ولو حتى في تنظيف البيوت، لكن تيتيه أكرمتها بأن منحتها فرصة التفصيل لي، حفيديثها الصغيرة، التي تدرست فيها وتطورت، بينما الطفلة تكبر، حتى حصلت "وديدة" على لقب خيّاطة، تحيك قمصان النوم والبيجامات، وتقوم بتصليح الأزياء الغالية التي يأتي بها الزبائن العرب من الخارج. عمل أبناؤها الأربع في مهن يدوية، وجمعوا مبلغاً وضعوه في يد محامي ماهر، رفع لها قضية وكسبتها ضد أبناء عمومتها الذين استولوا على نصيتها من العمارة المتهالكة. ومن حسن حظها، دخلت العمارة في خطة الترميم كأثر مرّ عليه أكثر من مائة عام، واشترى منها "باتريك" مرمم الآثار شقتين، واحتضرت "أنستازيا" شقة بمبالغ لم تمر حتى بخيالها.

لا تعرف "أنستازيا" سوى أنني مجرد واحدة من المجموعة التي كانت تتربّد على أتيليه الدور العلوي الذي يعج بالفنانين، ثم شاهدتني فيما بعد كجارة مقيمة تؤمن لها برأسها من البلكون المقابل إن تلقيت عينانا. ولم أعرف عنها سوى أنها مستشرقة، تهوى الآثار والرسم، وتتغيّب كثيراً لتعطّي دروساً في الرقص الشرقي للأجانب المقيمين بمصر. ومع ذلك لن يكون صعباً أن أفتح حواراً معها عن تصميم الأزياء، أو أسأّلها عن صديقي "ضيّا" أو أي من الفنانين الذين كُنّ أراهم في الأتيليه المتوقف نشاطه نظراً لحرارة الجو، واستحالة الاستعانة بمكيف للهواء حفاظاً على سلامـة المبني وقيمةـته الأثـرـية.

كانت "وديدة" تتوسّط الباحة في مكانها الأثير تحت شجرة التوت، وتعد كوبـاً من الشـاي الثـقيل، صباحـ اليـوم التـالي لـحـوارـنا. وكانت "أنستازيا" قد انتهـت تـوـاً من رقصـتها الصـباحـية بـرـعشـتين على جـانـبـها الأـيـمنـ، ومـثـلـهـما عـلـى جـانـبـها الأـيـسرـ. هـمـسـتـ لي "ودـيدةـ" أـنـ أـفـاتـحـهاـ فـي مـوـضـوعـ "مـأـمـونـ"ـ الآـنـ، فـأـشـرـتـ لـ"أنـسـتـازـياـ"ـ بـأـنـيـ أـرـيدـ أـنـ أـصـعـدـ لـدـيـهـاـ، وـبـعـدـ ثـوـانـٍـ كـنـتـ أـقـفـ فيـ قـلـبـ الصـالـةـ بـجـوـارـ الأـرـيـكـةـ الـمـلـوـنـةـ الـتـيـ أـرـاهـاـ عـنـ بـعـدـ مـنـ بـلـكـونـناـ. سـأـلـتـنـيـ عـنـ اـسـمـيـ، وـمـاـ إـنـ قـلـتـ "ـتـمـارـ"ـ حـتـىـ تـبـدـلـ مـلـامـحـهاـ بـيـنـ

الدهشة والانفعال والفرحة. وبأداء مسرحي، رفعت رأسها وكأنها تتبع طائراً يحلق بجناحيه في سقف الغرفة، وأخذت تحكي بنبرة ناعسة:

- كان يا ما كان، قبل الزمان بزمان، كانت هناك إلهة للسماء تدعى "تمار"، وكانت لها سيطرة قوية على الأحوال الجوية. قامت "تمار" بأسر "أوليis فاركسكافلافي"، سيد الشتاء ونجم النهار، وكلما هرب من الأسر، انهمر الجليد. لكنها كانت تمسك به وتحبسه كل عام، حيث يسود الصيف والسلام. وقد كانت "تمار" عذراء أبدية، تمتطي في الهواء صهوة أفعى ذهبية.

اعتدلت "أنستازيا" في وقوتها، وعادت لطريقة كلامها العادمة، وقالت:

- هذه أسطورة من چورچيا، مسقط رأسي.

وكان في الوقت نفسه تشير إلى نتيجة حائط، مكتوب عليها بالإنجليزية چورچيا، ثم بحروف لغة أخرى على شكل دوائر ومنحنيات من ورود وقلوب، تحيط بنسر في قلبه صورة الفارس "مارجرجس"، وفي يده السيف، وتحت سنابك حصانه يتلوي التنين.

قالت "أنستازيا" أشياء عن أن النسيم الهادئ الذي يلف الباحة، يحمل إليها كل ما يدور من الهمسات والحوارات، وأن لكتنها العربية تتکسر حين تخرج من فمها هي، لكنها تدخل رأسها وتستوعبها مثل لغة أم حين يتكلم بها الآخرون، وأنه تrami إلى سمعها بعض من حوار "وديدة" معي في سكون الليلة الماضية، وأنها تفهم أنني جئت لزيارتها بناء على طلب "وديدة".

توهجهت "أنستازيا" كالأسلاك المشعة التي اخترعاتها، ويتغير لونها بتبدل نبضات الإنسان الذي تلفه حولها. وقالت:

- لا أحد سيصلح بطلاً لمشروع الفن الجديد مثل "مأمون". هلرأيته وهو ينظر لطيووره مثلما يغازل الحبيب حبيبته؟ هلرأيته وهو يقتضي قضايا اليام وكأنه يطل على قطعة من الماس²⁴⁵

"مأمون" مدين للبمام بقدرته على الكلام. ظل حتى سن الرابعة لا ينطق إلا ما قل ولا يدل، فنصح الناس أمه أن يجعله يأكل البمام، وحين فعلت نطق كل ما يحبسه من حروف وفيض مشاعر. ولما كبر، شعر بالامتنان الممتزج بتأنيب الضمير وكأن الهديل الحزين الذي يصدره الحمام لوم موجه له شخصياً، فصار يتعاطف مع كل الكائنات الأليفة التي لا حيلة لها ولا كلام. هذا الجانب الداكن الذي يخفيه "مأمون" هو ما يضيء روحه، ولا تفهمه أمه أو خطيبته، وهو تحديداً الأساس الذي يقوم عليه مشروع الفن، تأثير المكان والمعتقدات الشعبية والبؤر الخفية في تاريخ البشر على نبضات قلوبهم. سُنْضُع غية للحمام الزاجل في بلكون "مأمون"، ونفعل مثل الأقدمين حين كانوا يعلقون الأخبار بقدم الحمام في قارورة بالغة الخفة من الذهب الخالص، ونكتب وقت سفر الحمام وموعد وصولها، وسيكون "مأمون" هو المسؤول عن فك الرسائل، ورصد ما يطأ على الحمام عند العودة إلى موطنه في العش و...".

في الرسالة التي وصلت إلى من القس المدعو "أندراوس" دعوة لي كي أقابله في دير ما في چورچيا. وهناك سوف يُسلمني فردة قرط ذهبية، يعرف أنني أمتلك فرقتها الأخرى، ولا تقدر قيمتها بكنوز الدنيا. وفي المقابل سيكون على أن أسلمه نسخة من كتاب مقدس، إنجيل قديم يرقد في سلام منذ مئات السنين في صندوق صغير محاطاً بقرط ذهبية، التي تتوارثها عائلة "ال Shawavili ". لم تتضمن الدعوة موعداً ولا مكاناً للقاء. مجرد أمر بالطيران فوراً والهبوط في مطار "تبليسي"، ومنه على حد قوله، سيرشدني قلبي إلى الطريق.

رسالة كالمحاتبات السلطانية التي كان يحملها الحمام الأزرق، في عصور ألف ليلة وليلة، ولن يؤمن بها سوى طفلة تغمض عينيها وتغوص بعدها في نوم جميل، مثلما كنا نفعل أنا و "ثقى" بعد حواديت "أم إدريس".

ثلاثون دقيقة لم أقل فيها شيئاً لـ "أнстازيا" سوى اسمي، "تمار"، كما يكتبه متحف "جيسي من تجدو" وكما تقول الأسطورة التي حكتها هي 30%

منذ قليل. نزلت إلى الغرفة، ثم صعدت ثانية إلى شقة "أنستازيا" وفي يدي الباب توب الذي تضيء شاشته بالرسالة التي وصلتني من القس "أندراوس"، فربما تكون "أنستازيا" هي الوحيدة في هذا العالم التي تستطيع أن تفك تلك الرموز، وتجد صلة تربط بين صورة النسر الفاراد جناحيه بأعلى الرسالة، وتنطابق مع النتيجة المعلقة على الحائط بالصالحة لديها.

بعد شهر فقط من تلك الزيارة، بدأت "أنستازيا" في شحن أجهزتها إلى "تبليسي"، وإعداد حقائبها استعداداً للرحيل، والعودة إلى شقة شارع "ديفید آجماشينيبيلي"، بعد عشرة أعوام من الغياب. فقد تعافت "أنستازيا" وصارت قادرة على سماع النساء والأطفال وهم ينادون البنات باسم "نينو"، الأكثر شيوعاً في چورچيا، مثله مثل اسم "تمار".

خلال هذا الشهر، صرت أقضى المساءات بين صومعتي الصغيرة، وبين شقة "أنستازيا"، حيث نلت شرف دخول الغرفة الوردية التي تسميتها قدس الأقداس. تلك الغرفة التي تمثل جزءاً داكناً من روحها، لكنه يشع نبضاً شجياً ويفرز فناً ينير أجزاءً أخرى، مثل نقشة الـ"ببي دو بورو"، التي تستمد سحرها من التضاد بين مربعات الأسود والأبيض، المتداخلة في بعضها بعضاً على شكل قدم فرخة."

تبادلـت "أنستازيا" رسائل مع مصممين وفنانين من بلدها، يشبهونها في الرغبة في الحفاظ على الإرث الشعبي الكاريقي، وسيرسـحـون لها عارضـي أزيـاء سيـكونـون أبطـالـ فيـلـمـها القصـيرـ القـادـمـ فيـ الحيـ القـديـمـ فيـ "تبـليـسيـ". وقد أـجـلـتـ تنـفيـذـ مشـروعـهاـ معـ "مـأـمـونـ"، فـعادـ لـمزـواـلـةـ نـشـاطـهـ المـعـتـادـ فيـ العـلـمـ كـمـودـيلـ لمـصـورـيـ الشـوارـعـ، إـدـارـةـ الجـرـاجـ، وـرـعـاـيـةـ الـكـلـابـ، وـالـكـلامـ معـ الـيـمـامـ.

ومـثـلـماـ كـنـتـ أـزـهـوـ بـنـفـسـيـ وـأـنـاـ صـغـيرـةـ، حـينـ كـانـتـ تعـطـيـنـيـ "وـدـيـدـةـ" إـلـيـرـةـ وـبـكـرـةـ الـخـيـطـ لـكـيـ أـلـضـمـهـاـ لـهـاـ، أوـ تـجـعـلـنـيـ أـمـسـكـ بـقطـعـةـ المـغـنـاطـيسـ لـأـلـمـلـمـ الدـبـابـيـسـ المـتـنـاثـرـةـ، نـجـحـتـ فـيـ الـمـهـمـةـ 30% 242 دـقـيقـةـ مـتـبـقـيـةـ مـنـ "تمـارـ..ـ"

التي كلفتني بها، وعدلت "أنستازيا" عن مشروعها مع "مأمون"، وصارت "وديدة" تنظر لي بإجلال كأنني شيخة مباركة من الأولياء الصالحين.

تفحصنا أنا و"أنستازيا" رسائل القس "أندراوس" مراراً، مثل "صاحب الحمام"، الخبير بشئون الحمام الزاجل في العصر الفاطمي. أما النسر المرسوم على الرسالة، ويفرد جناحين ذهبيين، ويحمل في صدره قلباً أحمر يضم قديساً يقهر الشر، وقالت لي "أنستازيا" إنه شعار الكنيسة الأرثوذكسيّة في چورچيا، فقد ضاهيته بالنسر الذي كان يرفع فوق مواكب السلطان، والذي درسناه في العصر المملوكي، لكنني كنت أشعر بأنه البراق الذي لاح لي في سماء "تبليسي" على هيئة سحب تتکاثف وتشكل حصاناً يطير، فتعلق قلبي بالإشارات.

وبعد أسبوعين من سفر "أنستازيا"، كنت أجهز أنا أيضاً الحقائب استعداداً للسفر. ليست حقائي أنا، بل حقائب تيتيه "نازلي"، التي أوصاني بها "چيمي جدو" خيراً. أخرجت قطعة قطعة وقمت بتصويرها، ثم طويتها بعناية، ودسمست النفالين بين طياتها، ورصصتها كما كانت بجانب حوائط الغرفة التي صارت فقط لها ولصغيري "چاكيت"، الذي تركته في رعاية "مأمون". أما حقيبتي أنا، فكان أهم محتوياتها هو ذلك الصندوق الصغير الذي توارثته الأجيال، بفردة القرط التي ثرافق نسخة قديمة من الإنجيل.

أسند رأسي إلى زجاج نافذة الطائرة المتجهة إلى "تبليسي"، وأنا أرتدي ثورة ضيقّة تليق بأمرأة جريئة، منقوشة بمربيّات كبيرة بالأبيض والأسود، تتدخل وتشتكى مع بعضها بعضًا على شكل أقدام الطيور، وتحدث وقعاً أليفاً في نفسي حين تنطق بالفرنسية "بيبي دو بوول".



"تمارا"



للمجهول سحر غامض، وللمغامرة المأمونة نوعاً ما لذة خاصة. لكن أن تهبط الطائرة في الثالثة بعد منتصف الليل في مطار "تبليسي"، دون أن يكون أحد بانتظارك، ليبحث معك في الظلام عن عنوان شقة كتبته لك "أنستازيا" في ورقة صغيرة ثم اختفت، فهذا يجعلك تشعر أنك الضحية في لعبة المتأهة. ما يعمق إحساسي باللايقين هو رؤيتي لأحد خيباتي، مجسداً في شخص "سهر" وهي تسير أمامي إياهاً وذهاباً كمكوك نشط. تمر "سهر" في الممر الضيق بين مقاعد الطائرة، وهي ترتدي يونيفورم "مصر للطيران" الكحلي، وتسأل الركاب بطريقة آلية: "كوفي؟"، دون أن تسألني تصب لي كوفي من القهوة المرأة من الإبريق الذي تحمله

والجغرافيا التي تألقت في شرحها ميس "عايدة"، والدتها. وربما صبت لي دون سؤال، تحاشياً للإحراج إن تجاهلتها، فهي تعلم أنني لم أسامحها بعد على فعلتها السابقة في خيانة الجغرافيا، والتي قد أخبرتني قبل السفر بأيام أنها تنوی تكرارها مرّة ثانية بعد بضعة أشهر.

أكاد أجزم أن لا أحد ينافس "سهر" على سطح الأرض أو فوق السحاب في صنع المفاجآت لي. هي نفسها شريط أحمر ساتان يلف صندوق هدايا، ويعدك بفرحة كبرى أياً كان ما بداخل الصندوق. لمأتوقع أن تقطع "سهر" إجازتها وتجازف بشهور حملها المتبقية، وأن تطير في هذه الرحلة الطويلة، لمجرد أن ترى بريق عينيٍّ وتسمع صرخة السعادة التي يطلقها قلبي كلما أخرجت لي مفاجأة من جرابها. حتى ولو كانت قد أدمنت على التفرج علىَّ في تلك اللحظات الفريدة، فقد نالت هذه المتعة في رحلات عدة سابقة. فلطالما وجدتها تجلس بجانبي كراكبة أجنبية، ثم تخلع باروكتها الشقراء ونخرط في نوبة ضحك، أو أجدها تسألني في تأدب وهي ترتدي اليونيفورم الذي تكرهه إن كنت أريد لحمًا أم دجاجًا مع الوجبة، بينما أكون قد تركتها قبل الرحلة بساعات طريحة فراش المرض في بيتها. لا أستبعد أن تكون "سهر" قد أعدت مفاجأة أخرى، بالإضافة إلى كونها المُضيفة على تلك الرحلة، لأن تجعل أحد أصدقائها يمثل أنه إرهابي و يجعل الطيار يغير مساره إلى چورچيا أمريكا مثلاً لغضض طفلها. فقد جازفت ذات رحلة سابقة لي بأمررين، أن تركت زوجها في حالة يرثى لها، لتفاجئني بـكعكة عيد ميلادي، الذي تصادف تاريخه وأنا معلقة بين قارتين، والأمر الآخر أنها خالفت قوانين الطيران وأشعلت كبريتاً لتضيء لي شمعة في الكعكة، مما كان يمكن أن يتسبب إما في فصلها أو إشعال الطائرة.

الصرخة الأولى التي أطلقتها في وجه "سهر" وجعلتها تضحك ملء قلبها كطفلة نجحت في خداع الكبار، كانت حين وقعت عيني عليها وهي تنتقي ثوبًا من المقاس الفلاحي في محل "ضيا". لم أصدق عينيَّ في البداية حين رأيت وجهها في وضع جنبي،

ولما استدارت وصارت في مواجهتي، صحت في فرحة:

- ميس "عايدة"!!!!

لم يكن منطقياً أن تظل ميس "عايدة" على حالها لثلاثين عاماً، لكن استنساخها في صورة ابنتها "سهر" كانت هي الحقيقة التي لم تستوعبها للوهلة الأولى. هي نفسها بشعرها النبيذى القصير، وبشرتها السمراء وملامحها الدقيقة وطولها الفارع.

أول ما أحبت أقلامي الرصاص الملونة الورقة في رسم إسكتشات الملابس، كانت في حرص التاريخ والجغرافيا، وكانت ميس "عايدة" هي الموديل والأيقونة التي أنقل ما ترتديه باللون والمنحيات والكلفة والإحساس بملمس الأقمشة بعد كل حصة، حتى صارت لي كراسة أشبه بمجلة "البوردا"، تحوي فقط مجموعة الخريف والشتاء والربيع من ملابس ميس "عايدة": الفصول الثلاثة التي تقع في العام الدراسي. إلى أن كان اليوم الذي استطاعت فيه ميس "عايدة" أن تصرفنا عما ترتديه لتنتبه إلى ما تقوله في بداية العام التالي، حين لاحظت تشتبث انتباها للبنات في حصة التاريخ. قالت لنا إننا لا نهتم بالتاريخ لأننا نظن أن أبطاله أناس لا يخصوننا، وإنها لن تكرر الكليشيهات التي تقول إن التاريخ يعيده نفسه، وإن الإنسان حيوان ذو تاريخ، وإننا ندرسه لكي نستقي العبر من أحداث الماضي. فاجأتنا بأنها ستعفيينا من الاختبار الشهري، في مقابل أن نعرف تاريخ بلدنا من خلال أسماء الشوارع التي نسكنها. لم يتعرف أي منا إلى الشخص الذي ظل يعيش طوال حياته في شارع يردد اسمه. سألنا أولياء أمورنا مثلما أردشتنا، ولكنهم لم يعرفوا أيضاً. بدأنا البحث، وجاءت كل واحدة بالسيرة الذاتية أو بالحدث والحكاية التي يحملها اسم شارعها، وقمنا بترتيبها زمنياً، حتى أتينا بملخص لتاريخ مصر، نتعاطاه يومياً سيراً على الأقدام ليشهد أجزاء حببية أو حزينة من تاريخنا الشخصي. أعجبتنا اللعبة في الترم الأول، وفي الترم الثاني كان قد اشتدَّ غُلُّ المدرسين بسبب عدم الإقبال على الدروس الخصوصية، وتأفُّف الأهل وحيرتهم من تغيير بنيتهم خارج المنهج المعلَّب، وعدم وجود اختبارات شهرية

تُسْتَفِد درجات أعمال السنة. تلقت ميس "عايدة" شكوى ما، احتفت على أثرها من المدرسة، لكن لم يفارقني الاختيال بلعبة معرفة حكايات الشوارع التي كُنْتُ أمارسها على الناس، وأخياف بها "ثُقى" من كلمة "الدرب الأحمر" و"باب زويلة"، كما تيقنت من قُوَّة تأثير تلك الأسماء على مصائرنا والتي نرددتها كالبليغواط دون أن نعرف أصلها. فقد كان "جمال الدين أبو المحاسن" اسمًا طويلاً مُعَقَّداً قبل ميس "عايدة" كُنْتُ أتمنى أن يحمل شارعنا بدلاً منه اسم "الزهور"، أو "الحرية"، أو "النزة"، وكفى، لكنني بعد ميس "عايدة" صرت أقول اسمه كاملاً، كطفلة تفتخر بتسميع اسم جدّها، وجدّ جدّها "جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي". كما تيقنت أنه لم يكن اسمًا لشارع فقط، بل تعويذة هيمنت على حياتي. فحين وقفت في الفصل وقلت مثل مرشدة سياحية إن "ابن تغري بردي" أظهر ولغاً بالتاريخ منذ أن سمع كتب المؤرخ "العيني" ثُقراً في حضرة السلطان، وكان تلميذاً للمؤرخ "المقرizi"، لم أكن أعرف أن دفة الأحداث ستوجهني إلى قسم التاريخ بكلية الآداب، وأن كتبًا كـ"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، أو "البحر الظاهر في علم الأوائل والأواخر" ستترافق جنباً إلى جنب في غرفتي مع مجلدات "البوردا"، وـ"فوج"، وـ"إيل ماجازين". والأعجب أن أباه كان مملوغاً رومي الأصل، ومن أم كانت هي الأخرى أمة من إماء السلطان،وها أنا الآن أمتطي سحابة جنباً إلى جنب مع ابنة ميس "عايدة"، لتحملنا إلى چورچيا، أرض المماليك.

فرحة اللقاء بابنة ميس "عايدة" بعد كل تلك السنين، والانبهار بالتشابه بينها وبين والدتها، سرعان ما تحولًا إلى حزن عميق واغتياظ من ميس "عايدة" ذاتها، حين سأله "سهر" بلهفة:

- وإزاي ميس "عايدة"؟

فأجابت بتلقائية:

- اتوقفت من ستة شهور.

تمكنت ميس "عايدة" بأن تظل تاريخاً وانصرفت قبل أن تشهد 32%

هذه اللحظة، واللحظات الكثيرة التي ستجمعوني بـ"سهر"، وأن تسمح لي بأن أقف أمامها في زهو وأنا أحكي لها أنني صرت "باترون" لها، ولا"جمال الدين أبو المحسن" حين عشقت التاريخ والتهمت حواديه في الكلية نفسها التي تخرجت هي فيها. ألم تستطع ميس "عايدة" أن تتثبت بالحاضر لستة أشهر إضافية؟ وددت لو جلبت روح "أم إدريس" من سمائها لأسألها هل ترانا ميس "عايدة"؟ هل تعرف أنني سأصبح أمًا وراعية لابنتها؟

لم يكن ما جذبني لـ"سهر" هو التشابه بينها وبين أمها فقط، فقد كنت أنظر في إعجاب للملبس الأصفر الذي كانت تقلب فيه في محل "ضيا"، وكانت أتمنى سرًا ألا تشتريه حتى يصير لي، فقد أعجبني أولاً. وددت لو كلمت هذه الزبونة وسألتها ما الذي يجذبها في الأزياء الفلاحي والبدوي والصعيدي التي يصنعها "ضيا" بشكل عصري ويبيعها كقطع فريدة في دكانه الصغير بشارع الأزهر. كنت في هذه الفترة أتبني حملة التمسك بالأزياء التقليدية، وأفرد لها مواضيع في مجلة "منمنمات" التي أشرف على قسم الموضة فيها. شعرت أن "سهر" التي كانت ترتدي سترة واسعة ممسوكة بحزام من الفضة، ويتواافق مع كردانها اليمني، وقرطها البدوي، لم تكن تقلب في المعروضات كمشترية عادية، بل كعاشرة للكشكشات والألوان الزاهية والحليات الذهبية والفضية. ففي حواراتي مع الفتيات والنساء اللاتي يدخلن بعض الخطوط الشعبية في أزيائهن، أدهشتني الإجابات الصادمة التي لا تنم عن قناعة أو حب للأزياء الشرقية. فمنهن من قلن إنهن يلهن وراء الاختلاف والتقاليع، ومنهن من يقلدن إحدى الممثلات، ومنهن من يرتدنها في بعض المناسبات فقط لأنها تبدو غالية.

ليس من السهل الوصول أو حتى معرفة محل "ضيا" إلا لاصحابات المزاج الرائق والشغف. من يتجلون في الأزقة التاريخية الضيقة، بحثاً عن ثوب فريد أو قطعة حلي متميزة. وحين يقعن على هذا الكنز المسمى بدكان "ضيا" ويقتنين فستانًا من قماش الملمس الفلاحي أو بلوزة من التلي الصعيدي أو برقعًا مشغولاً بالحليات

النحاسية القديمة، تكون المكافأة الكبرى حين يذهبن إلى بيوتهم ليجربنه، فيتلامس وبشرتهم أو يستنشقن عبقه الذي التقطه من أرجاء الدكان. بخور مُعثّق به سُكّر معقود يلعب بالرأس كأنه خمر مُسكر، ممتزجاً ببقايا دخان سيجارة "ضيا"، تضيف بعدها ذكورياً للرائحة الصوفية، ويجلب ذكرى زيارة هذه المغارة الصغيرة، المكدسة بالأثواب المعلقة فوق بعضها على الحوائط، والعملات القديمة المستثففة في براويز، والأباريق الفخارية، التي تتزاحم وكرادين الفضة البدوية، حتى إن "ضيا" يتترك هذا الخندق الضيق البهيج لزيبوناته ليجربن كما يحلو لهن، ثم يعود ويشرب معهن شاياً بالقرنفل والنعناع الأخضر، على أنغام موسيقى هادئة أو أغنية لـ"فيروز"، احتفالاً بشراء الزيونة لقطعة وضع فيها من روحه ورائحته وفنه، كعهد لبداية صدقة جديدة تربطه دائمًا بزيبوناته. العجيب أن "ضيا" يقبل المبلغ القليل الذي يقبضه ويضعه على جبينه، مثله مثل أي باعث متوجول بسيط، فهو يعرف أن خماماته ليست غالية، ولا يعمل كمحترف، بل كهاوي على باب الله. وهذا هو ما أتى به "سهر"، وبزيونات أخرىات، يشترين بضاعته بقروش قليلة، ويعرضنها في المتاجر الفاخرة، أو على صفحاتهن الإلكترونية، ويبعنها بخمسة أضعاف سعرها، لزيونات يدفعن في سعادة، لأنهن لا يعبرن أبداً من أمام محل "ضيا"، ولو فعلن يكنّ في سياراتهن مشغولات بتليفوناتهن أو أجهزتهن الذكية، التي توقعن في شرك الصفحات التي تشي里 صاحباتها على حساب "ضيا".

لم يكن "ضيا" جاراً تقليدياً في الطفولة، فلقد كان الباب في الباب كما يقال، لكنني أنا وهو كنا في عداد الزوار دائمًا. أنا أزور جدّتي "ذكية" و"ثقة"، و"ضيا" يزور والدته التي تزوجت بعدما مات أبوه، ويعيش عند عمه. كان "ضيا" يُهير الأطفال والكبار ببياضه الشاهق، وعينيه الخضراوين الواسعتين، وشعره الذهبي. أما أنا فكنت أنتظره على آخر من الجمر ليبهمني بحكاياته التي تجعل للمرور في الأزقة ومشاهدة الأضرة الصغيرة وحوانيت الخيامية مذاقاً يفوق روعة التفريج على موديلات "شانيل"، وكريستيان ديور^{33%}، وصور عروض الأزياء على ضفاف "التايمز".

كما كان يستقبله الكبار من الرجال والشيوخ من سكان شارع "أبو حريبة" كولي عهد. فجد جد "ضياء" هو نفسه الشيخ "أبو حريبة"، الذي أطلق اسمه مجازاً على مسجد "قجماس الإسحاقى"، المجاور لبيت تيتكة "زكية". حكى لنا "ضياء" أن الناس يقولون إن الأمير المملوكي "قجماس الإسحاقى" هو الذي أمر بتدفね جده في الجامع، لكن الحقيقة إن جثة جده هي التي أجبرت من يحملونها على أن تدفن بالمسجد. رفض الجثمان أن يتزحزح من أمام المسجد، وكأن أرجل المُشيّعين لا تسعنهم إلا على الدخول ودفن الرجل الصالح في هذا المكان، فصار له ضريح ومقام. كما قال لي "ضياء" إن الكرامات ظلت تتوارثها الأجيال بسبب سيف مكتوب عليه آيات قرآنية، وعلى المتوفى أن يلمسه قبيل وفاته حتى تنتقل الكراهة للجيل الذي يليه، لكن أباه لم يلمسه، فاختفى السيف من على حائط بيته، وصاروا أناساً عاديين تناهم الهراء ويحافظون من الغيب ويخشون الأشباح.

بقدر ما كانت تملؤني تلك الحدوة بالإثارة، وأطلب من "ضياء" أن يعيدها عليَّ كلما رأيتها، بقدر ما كانت ترعب "ثقى"، فكنا نتلذذ بوضع إضافات مخيفة مثل وصف الجثة، وعمل مؤثرات صوتية لصليل السيف، وترتيب الآيات بطريقة تدخل الرهبة إلى نفسها، الأمر الذي جعلها تعود قبل حلول الليل دائماً إلى البيت، حتى شهد بأدبها والتزامها كل من يعرفونها.

وحين كبرنا قليلاً واعتدت الحدوة، أخرج لي "ضياء" خمسين جنيهاً من جيبي، وقال لي:

- غمْضي عينيكِ وافتحيها بعد دققيتين، هتلacci نفسك جوه الجامع اللي مرسوم ع الخمسين جنيه دي.

وبعد دقائق ثلاثة بالتمام، صعدنا سالم كثيرة، لأفتح عينيَّ على صحن مسجد يعج بالرخام الملون والحليات الخشبية والنحاس المزخرف، هو نفسه مسجد "أبو حريبة" الملتصق ببيتنا ولم نلحظ أبداً أنه هو المرسوم على "الخمسين جنيه" الورقية. وحين فتحت ميس "عايدة" أعيننا في الصف الثالث الإعدادي على سحر 34% دقيقة متباعدة من «تمار..»

الشوارع، كُنث من أول المتخمسات؛ لأن "ضيا" كان قد سبقها إلى ذلك بأعوام. وكما اختفت ميس "عايدة"، تلاشى "ضيا". قيل ماتت أمه، وقيل طرده عمه، وقيل ترك التعليم، وقيل سافر لأخيه الأكبر، لكنني كُنث قد دخلت في المرحلة التي تدور فيها الفتيات في أفلاك أنفسهن، ولا تعنين بالسؤال عن معلمة تركت المدرسة أو جار اختفى. أما فلكي الخاص الذي فنيت فيه في تلك الفترة، فقد كان "فادي أباظة".

مرّت "سهر" مرّة أخرى من الممر الذي يفصل بين صفي المقاعد في الطائرة لتأكد من ربط الركاب للأحزمة، فسوف نهبط بعد قليل في مطار "أتاتورك" بإسطنبول، لنمكث ساعات سبعاً "ترانزيت" حتى تحملنا طيارة أخرى إلى "تبليسي".

حين أتنبي "سهر" حائرة لا تدري إن كانت تمضي في طريقها نحو التقديم للعمل مُضيفة طيران، وفضّها الشراكة التي نشأت بيني وبينها وبين "ضيا"، ظنتها مولعة مثلّي بالجغرافيا التي أوقعوني في حبها ميس "عايدة" والدتها. فلنافذة الطائرة التي أركن عليها رأسيا دائمًا سحر أشد من حواديت البراق، ومن خلاله لخشت روح الجغرافيا. فالجغرافيا ليست فقط عدد حقول الفوسفات والمنجنيز في بلاد نجهلها. الجغرافيا هي تلك النافذة المطلة على نتوءات جبلية كنهود النساء، أو كمنحنيات أجساد عارضات الأزياء الممثلات في ثياب محبوبة من اللون الأخضر والرمادي والبني، وبhairات تستلقي بينهن، مثل امرأة لعوب ترتدي زياً فضياً، تتمدد في فراش حبيب، وتنشر على جسدها حبات من الماس، كلما اقتربت منه وجدته كنصل سكين لامع، ثم يتحول إلى سراب في صحراء، ويصير كالإنسان عدماً. الجغرافيا سُخب من أبخرة تراكم في الأعلى، فتصنع تنوارت قطنية محشوة بغاز البناء الأبيض، أو أرواحاً نورانية تهيم سيراً في ملوك السماء. وحين تحزن تبكي نقاط المطر، وحين تغضب تزار رعداً، نتلوا معه الدعوات فتشتتاب. الجغرافيا زمن عميق وعربيض جداً يتلخص في فصول أربعة، هي نفسها مواسم الموضة.

وكلما تعددت أيام "سهر" . الفيونكة الكبيرة التي تزين هداياها لي 34%

تفگّها بالسهولة نفسها. فقد صدمتني ذات حوار بعد أن تسلمت عملها مُضيفة طيران أنها لا تقرب تلك النافذة، ولا يمثل الارتحال بين السحاب لها سوى عبور هذا الممر الرفيع لتسأل فيه الركاب إن كانوا يرغبون في لحم أو دجاج، وتحرص على أن تتبعس في وجوههم عليها تحصل على ثواب صدقة التبسم في وجه أخيك، بالإضافة إلى ما تُستَّهَ آخر كل شهر من أموال تضمن لها ملادًا آمنًا ومهدبًا في أي بلد بعيد.

تمثّل أن تواصل "شهر" معي رحلة بدأناها معًا منذ أعوام طويلة، وأن يكون ما أخبرتني به بأننا سنفترق في مطار "أتاتورك" بتركيا ليس إلا خدعة من لعباتها، تفاجئني بعدها بأنها سترافقني طوال الشهر الذي سأقيمه في "تبليسي"، أو على الأقل تكون قد رتّبت مع حماتها أن تتولى رعاية ابنها الصغير "آدم" ولو لأسبوعين.

في مطار "أتاتورك" لنا معًا ذكريات بهيجة، فلطالما التهمنا العشرات من قطع الملبن الغارق في السكر، والمعروض بنكهات القرفة والحبهان المحسوسة بالفستق واللوز، وكأننا ربّنا منزل ندعوه بعضاً إلى حفل عشاء وننصرف ضاحكتين بعد أن نشعّ، دون أن نبتاع أيّاً منها. وكم اشترينا نسخًا طبق الأصل من أعين زرقاء من زجاج مسقى بماء الذهب، وجواهر من الفضة المطعمة بالرُّمُد والياقوت، ولا نكُّ عن الشراء إلا لنترك ما يكفي لمزيد من التسوق في السوق القديم بإسطنبول. وما كدت أسحبها من يدها لكي نعيّد إنتاج البهجة واستعادة الذكريات حتى وجدته أمامي، يقبلني من الخدين بكل مودة. "راشد" زوجها بطوله وعرضه، والذي أسميه في قراره نفسي بـ"المريّب". قبّلتني "شهر" هي الأخرى، ووَدَّعتني وانصرفت مع المريّب في رحلة سريعة إلى "أناطوليَا" على الشواطئ التركية، قبل أن تنخرط مرأة أخرى في شقاوة "آدم" ذي السنوات الثلاث، والجنيّن المجهول الذي تحمله في أحشائهما، وتنتظر فصل الشتاء، حتى تداري بطنها بطيات الشياط الشقيقة، وتذهب به خلسة إلى أميركا، كما تتسلّل النساء الحوامل لوضع مواليدهن ليحصلن لهم على الجنسية. هكذا خانت "شهر" كل من الجغرافيا والتاريخ دفعة واحدة حين فعلت

ذلك مع طفلها الأول "آدم"، كمهاجر غير شرعي بلا وطن، أو كلاجئ يهرب إلى اللص ليحميه من صاحب الحق. حتى الاسم الذي اختارته له لم يكن تمجيداً للأب الشرعي للبشرية، بل ليناسب لسان وذائقه المعتمدي الأشرس على معظم شعوب البشرية، فـ"سهر" تعيش رحلة بحث لا تنتهي عن الأفضل، حتى وإن كان الأفضل في السوق.

المراة الأولى التي وقعت عينانا فيها معاً على المُرِيب كانت ليلة سماع صوفي في المسرح المكشوف بالأوبرا، حيث أسبق "سهر"، وـ"ضيا"; لنجز مقاعد ثلاثة في الصف الأول، وعادة ما يكون سبب تأخر "سهر" هو البحث عن عنقودين من الفل والياسمين لترتديهما أثناء الانتشاء بالسمع، فنعلو مع المقامات نفماً وعطرًا. وما إن أعلن المنشد أنه سيغني قصيدة "قل للملحمة في الخمار الأسود"، وأطال في المقدمة بالليالي، وضع "ضيا" رأسه في رأسينا، وهمس لنا:

- عارفين إن القصيدة دي اتكتبت من 1300 سنة عshan واحد
بياع جلاليب زيّ حالاتي؟

فهمسنا أنا وـ"سهر" في نفس واحد:

- يا سلام؟!

فأكمل هامساً:

- الشاعر اللي ألفها كان راجل زاهد في "المدينة المنورة". وجءَ تاجر بيبيع خمار من العراق، فباع كل الألوان إلا الأسود كان بضاعة بايرة. قام رايح للشاعر قاله ساعدني، راح خابط له قصيدة قل للملحمة في الخمار الأسود، مازا فعلت بناسك متبعد، قد كان شمر للصلوة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد. قامت الناس افتكرت بجد إن الرجل المتدين أما شاف الست واقفاله على باب الجامع بالخمار الأسود، وقع في غرامها وسابه من التنشك والتّبعّد. بس.. راحت كل الستات هات يا شرّا في الخمار الأسود لحد ما التاجر خلّص البضاعة، ورجع الناسك قعد في

الجامع، بعد ما عمل الـ"جيست" التسويقي ده مع صاحبه، زي ما "تمارا" مظبطاني كده في مجلة "منمنمات"!

وضعنا كفوفنا على أفواهنا لنكتم الضحك، لكن المربي كان يجلس في المقعد الذي خلفنا مباشرة، وبمنتهى الحدة والصوت المرتفع، صاح في "ضيا":

- إحنا مش جايين الحفلة عشان نسمع قصة حياتك.

فرفع له "ضيا" يده معتذراً في أدب، لكنني كرهت "راشد"، ولو أن كان معه بعض الحق، وصرت أفتشر عنه بعد ذلك في كل حفل سماع، وهي إحدى عاداتي السخيفة في التلذذ بغيظ نفسي. وحين كُنْتُ أرَاهُ، أتذَّكِرُ الواقعَةَ الْقَدِيمَةَ وَتَفُورَ دَمَائِيَ كَالْمَرَةِ الْأَوَّلِيَّةِ تَمَامًا. كُنْتُ أَشْعُرُ وَكَانَ مُخْبِرُ سَرِّيِّ، جَاءَ لِيَتَحْرِيَ عَنْ مَجْرِمٍ مَا، فَكَانَ يَأْتِي دَائِئِنًا بِمَفْرَدِهِ، سَوَاءَ فِي مَحْكَىِ الْقَلْعَةِ أَوْ فِي قَبْةِ الْغُورِيِّ أَوْ فِي قَصْرِ "الْأَمِيرِ طَازِ"؛ وَعَادَةً مَا تَحْبُّ هَذِهِ السَّهْرَاتِ اللَّفَّةَ حَتَّى إِذَا اَنْتَشَىَ الْمُسْتَمِعُ وَكَانَ فِي صَحْبَةِ لَدُنْهُ، لَا يَبْدُو كَالْأَبْلَهِ أَوْ الْمَجْذُوبِ. أَوْ هَكَذَا كُنْتُ أَفْضَلُ أَنْ أَذْهَبَ بِرَفْقَةِ "ضِيَا"، وَ"سَهْرٍ"، الَّتِي بَدَأَتْ تَكُونُ مُشَاعِرَ إِعْجَابٍ مُّرَاهِقَةً بِ"ضِيَا"ِ، الَّذِي لَا يَنْسَبُهَا عَمْرِيًّا وَلَا اِجْتِمَاعِيًّا، وَتَتَنَحَّىُ جَانِبًا كَطَفَلٍ غَاضِبٍ كَلَمَا أَطَالَ "ضِيَا" الْحَدِيثُ مَعِيْ أَوْ النَّظَرِ لِي. وَكَمَا أَعْجَبَنِي الْمَلْسُ الأَصْفَرُ الَّذِي كَانَ تَمْسِكَهُ "سَهْرٌ" وَتَرَكَتْهُ لَهَا، تَنَازَّلَتْ لَهَا فِي أَرِيَحَيَّةِ عَنْ مَقْعِدِيِّ الْمَجاوِرِ لِ"ضِيَا"ِ فِي الْأَمْسِيَّاتِ وَلِيَالِيِّ السَّمَاعِ، وَكَنْتُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَجْهَزُ لِلْسَّفَرِ إِلَى لَندَنَ لِعَمَلِ دَبْلُومَةِ تَصْمِيمِ الْأَزِيَاءِ.

ومثلاً وجدت المربي ماثلاً أمامي الآن في مطار "أتاتورك"، كُنْتُ قد فوجئت بذراعه مشبوكاً في ذراع "سهر" حين جاءت لاستقباله في مطار القاهرة بباقة ورد كبيرة وأنا عائدة من لندن. كان عريساً لا بأس به بالمقاييس التقليدية، وقالت إنها ترتاح له ويجمعهما حب الطرب والسماع، كما همست لي إنها عقدت هدنة بينه وبين "ضيا". أظهر المربي ترحاباً يبدو نابعاً من القلب تحاهي، الأمر الذي جعلني أؤمن بأن لا شيء يسمى "القلوب عند 35% ذهبية متباعدة من تمارا.."

بعضها، فكم من أناس يكتنون المودة لآخرين لا يطيقونهم، لكن "سهر" كانت تستحق أن أتحامل على نفسي في الأوقات القليلة التي ينضم إليها فيها "راشد" زوجها، فقد كان يغادر في مهام عمل كثيرة إلى الخارج، وكانت هي لا تستفيض في الحديث عنه معي لأنها تشعر بما أحمله له من ضغينة، لكن تلك الضغينة لم تتمكن من أن تطمس الهدية الملفوفة بفيونكة بهيجة، والتي قدمها لي التاريخ وبداخلها "سهر" بالملبس الأصفر الزاهي، حين وقعت عليها عيناي للمرأة الأولى في دكان "ضيا"، فلownt لي الحاضر في ذاك الوقت الذي كانت تغيّم عليه غاللة رمادية بسبب خروجي ذاهلة من فترة زواج قصيرة من "محمد الخيامي".

ارتفاع النداء في ميكروفون مطار "أتاتورك"، راجياً من الركاب أن يتجهوا إلى الطائرة المتجهة إلى "تбليسي"، وقبل أن أهرع إلى بوابة الركوب، التقطت درويشًا خزفيًا من البazar كتذكار لـ"سهر"، فالعجب أننا نتوقف أمامه دائمًا ولا نشتريه في اللحظة الأخيرة، مع أنه حين يدور بتنورته البيضاء ذات الشنيات المتعددة، واضعاً يدًا على قلبه ورافعًا الأخرى إلى السماء، يشبه تماماً اللقطات الحلم التي كانت تجمعنا أنا، وهي، وـ"ضياء".



"تمارا"

222 دقيقه متبقيه من «تمار..»

36%



"الماضي حصن من لا حاضر له ولا مستقبل"، مقوله كانت ترددتها ميس "عايدة" ولا تنطبق على الآن. مالي أتشبّث بالذكريات ولا أتدبر أمر حاضري ومستقبلني القريب جدًا. أما مي ساعة واحدة من التحليق والهبوط في مطار "تبلسيسي"، فلا وقت للتغنى بمحاسن الجغرافيا، أو للتسلّي بكراسيي لتأثّب أنني فنانة ماهرة في رسم الإسكتشات، لمجرد أن أمحو ذكري كلمات أصحاب دور تصميم الأزياء، وأخرهم ذلك الكريه الذي قال لي بأسلوب فج:

- أنا عايز حّة بيّاعة.

وحين لاحظ علامات اليأس على وجهي، أخذ يشرح لي أن هناك فرقاً بين أن أكون رسامة جيدة ومصممة جيدة. وحين نقول "حّة بيّاعة" لا نعني إسكتش مرسوماً؛ لأن هذه صناعة تنتج ملابس وليس إسكتشات، وأنه كان يتحتم على كمصممة أن أدرس السوق، وأن أعرف ماذا يريد المستهلك، وأن أكون ململة بمراحل تنفيذ هذه القطعة لتوجيه العمال وإدارتهم، و... و...

ما أعرفه أنا أنه على المرأة أن تمتلك ذوقها الخاص، وأن تنتقي ما يروق لمزاجها وتستجيب للألوان التي يحتاج إليها جسدها في 36% 221 دقيقة متبقية من «تمار..»

يوم، ويحق لها أن تغيرها لأنها لا تناسب مزاج وإحساس اليوم التالي. لذا صرفت النظر تماماً عن فكرة العمل كمصممة أزياء تحاول إرضاء الجميع وكأنهم شخص واحد، مثلما كان يعشق "چيمي جدو" الأتيليه، ويكره المحل مع أنه يُدرِّ دخلاً أكبر، لكنني مضطربة الآن إلى دراسة ما سيأتي، وليس الاتكاء على رحلة كانت كالحلم، حين جئت إلى هذا البلد لحضور عرض أزياء وأقمت في فندق خمس نجوم، وأنا أصنف نفسي كمصممة أزياء لا تقل عظمة عن "كوكو شانيل"، أو "كارولينا هيريرا". عليَّ أن أواجه الواقع بأنني الآن كائن هش معلق بين زمرين، امرأة بلا عمل وبلا أسرة وبلا إرث حقيقي، ولا أمتلك سوى قطعة من الورق بها عنوان شقة أخت "أнстازيا" في شارع "ديفيد آجماشينيبيلي" الذي يحتفون به لأنه قضى على السلاجقة المسلمين، وإيميل من قس مجهول يعدني بكنز إن أتيت له بنسخة الإنجيل القديم، وفردة القرط المتكسرة التي كانت في حوذة "چيمي جدو". ماذا لو لم يكن قسًا، وكان أحد رجال المافيا الروس الذين ظلوا يسيطرون على كنوز البلاد وعرفوا بطرقهم الخاصة أنني أمتلك تلك القطع الأثرية، وفاجئوني عند باب المطار بقطار رأس وغمامه عين من القماش الأسود ورصاصة مخدرة، يحصلون بعدها على القرط والإنجيل وجواز سفرى، ثم يلقونني في الطريق كغريبة معتوهه أو كجثة لم يستدل على أصلها، وأنال نصيباً من اسم الملكة "تمارا" العظيمة التي لا يعرف أحد مكان جثمانها، أو "ثامار" أخت "عمون" التي ظلت ثعاني لأنهم رموها ظلماً بتهمة الزنى؟ ماذا لو كان هذا القس تابعاً لطائفة من المتشددين الأورثوذوكس كالذين اتصلوا بأصدقاء "شادي" المسيحيين منذ بضعة أعوام، وأقنعواهم بأنهم سيوفرون لهم حق اللجوء إن تولى الإسلاميون الحكم في مصر. ساعتمد على أن لا شيء في مظهري ولا في تاريخي العائلي يوحى بأنني من يعادون أي ملة مغيرة. حتى الخوذة الفضية ذات الحلبات الحمراء والزرقاء التي اقتنيتها من تاجر أنتيكات من "تركمانستان"، وكان شيخ المساجد هناك يخبئونها في السراديب السرية التي يحفظون الأطفال فيها القرآن، وقت الاحتلال

الروسي، ويهدونها لمن يحفظه كاملاً، و كنت أتفاخر باقتنائها وبمعرفتي بتلك الحدوة، حتى تلك الخوذة أعطيتها لـ "ضياء" لكي يعرضها في دكانه، بعد مأزق رحيل "چيمي جدو"، لكنها لم تُبع وآلت الخوذة والحدوة إلى "ضياء" وزبوناته.

أخذت أتلفت حولي وكأنني لص هارب من عصابة تطارده، فلمحت ما يطمئنني بعض الشيء، ففي المقاعد الأربع على الجانب الآخر، يجلس رجالان عجوزان يتسامران، لهما الهيئة نفسها، الجلباب واللحية المبالغ في طولها، ومعهما زوجاتهما، اللتان تستطيع عن طريق أزيائهما فقط أن تميز أن أحد الرجلين مسيحي، والأخر مسلم. تعالى الصخب وبعض الموسيقى وكأننا في ميكروباص بمنطقة شعبية، وليس في طائرة من تركيا إلى چورچيا. الأطفال يجررون بحرية في ممر الطائرة، والشباب يفرجون بعضهم بعضاً صوراً على تليفوناتهم المحمولة ويضحكون مستعدين ذكريات رحلتهم إلى تركيا. لا ينقصنا هنا سوى أن يقول المضيف "نفر نفر نفر.. عتبة عتبة عتبة".

لا أفهم حرفاً مما يقال، ربما يتحدثون بالتركية أو الجورجية أو الروسية، لكن المهم أنني لا أبدو كفريبة وسط أشكال الوجه، وبعض الوجوه خمرية وبعضاً قمحية، وبعض الأعين سوداء وبعضاً بني وبعضاً عسلي، وبينما أحياو أن أحصي العدد القليل من الشقراوات، ثقل رأسي واستند إلى زجاج النافذة، ورأيت حلماً.

لم تكن بالرؤية التي زارتني في غفوتي أي صور، بل صوت يقول لي:

- وقد تكونين حفيدة الملكة المقدسة والأم الروحية لچورچيا، الملكة "تمار" ابنة الملك "ديفید" العظيم، الذي أعدها منذ نعومة أظفارها لخلافته مثل "چيمي جدو"، وعاشت چورچيا في عهدها أزهى عصورها.. المدن، والكنائس، والأسواق.. هزمت السلاجقة والبيزنطيين.. قضت على المتآمرين من البلاء.. المل衮، والشعر الرومانسي.. القرن الثاني عشر.. العصر الذهبي.. أسطورة

"جيسمون"، والصوف الذهبي.. فردة القرط الذهبية التي تقع في علبة حريرية في حقيبتي.. والإنجيل القديم الذي ينام منذ عشرات السنين بجوارها...

تبَدِّلُ الحلم ليصير صوتاً وصورة عشتها بالفعل منذ سنوات، هنا في "تбليسي"، بساط أحمر طويل، تمزّع عليه عارضات فارعات وتشمع مع خطواتهن فلاشات الكاميرات، وصوت نسائي من افتتاح أسبوع الموضة يتعدد صداه في ميكروفون بقاعة كبرى في فندق "هوليدي إن"، تقول في كلمة افتتاحية إن زيارة چورچيا كتنسم الهواء الطازج. وإن البلد قد كسرت أغلاله وتحرّر من الاحتلال السوفيتي، مثلما فعل كثيراً في الماضي، حين هزم المغول والفرس والأتراس، فنحن في بلد يهوى إعادة إنتاج نفسه. فـ"تبلسي" عاصمة بالفنادق والملاهي والمحال الفاخرة، التي تجاور في سلاسة القلاع الحجرية والكنائس الأثرية وبعض البناءات التي تداعت من جراء الحروب، ويظهر هذا التجدد الدائم في تصاميم الأزياء التي ستجعل من "تبلسي" عاصمة للموضة في أوروبا الشرقية. ثم أرى فيما يرى النائم عرضاً لمصمم شاب يشرح كيف لعب تاريخ بلده دوراً في تصميمات مجموعته، تأثراً بتأثيرات الحرب الأهلية في التسعينيات، أكمام مبالغ في طولها وسراويل واسعة، قمصان سوداء عليها مسدسات ومدافع رشاشة، حتى الديكور كان متأثراً بالصلب السياسي، أضواء حمراء ومؤثرات صوتية كالانفجارات...

ترتطم عجلات الطائرة بالأرض، وأصحوا على جملة في حلم "هناك أناس إما أن يعبدوا أو يموتو" أعقبتها عدة خبطات وتصفيق حاد وصفارات الركاب. كيف غفوت وتمكنت من استعادة ذكريات "تبلسي" وسط هذه الجلبة؟ لو كان الأمر بيدي لاصطفيت الحكاية الأصلية للمدينة مثل طفل يطلب من أمه أن تعيد عليه الحدوة التي يحفظها عن ظهر قلب، ولتسليّث بأن أجعل "تقى" تنصت لي جيداً وأنا أرى مشاعر الدهشة والخوف الساذج على وجهها وأنا أحكي لها حكاية الملك "فاختاج حورجاسالى" الذي كان يرتدي خوذة على شكل رأس ذئب، وذات

يوم في منتصف القرن الخامس، ذهب إلى الصيد في منطقة الغابات وأوقع بطير جميل المنظر، فأرسل صقره لكي يحضر الطير الذي اصطاده، لكن الصقر لم يعد. فذهب الملك ليبحث عن الطائرين، فوجدهما يغليان في مياه اليابس الدافئة. ومنذ ذلك الحين أمر الملك الذي كانوا يسمونه "فاختانج رأس الذئب" بأن تقطع الغابات والأشجار، ليبني محلها تلك المدينة. ما كنّت لأقول لـ"ثقى" إن "تبليسي" تعني المدينة الدافئة وإن أهلها يعتبرون الضيوف هبة من الله، حتى تظل تستعيد شكل الصقر الذي يغلي في مياه اليابس، وخوذة الملك التي تعطي رأسه شكل الذئب، وأضحك، لكنني أنا التي تحتاج الآن إلى طمأنة نفسها بأن لا شيء يدعو إلى القلق، حتى لو اضطررت أن أظل جالسة بمفردي على مقعد في مطار "تبليسي" من الآن وحتى طلوع النهار.

وسط تدافع الركاب وصخبهم لأخذ الحقائب، لمحت لافتة كبيرة يمسك بها رجل أجنبي، ومكتوب عليها اسمي بحروف إنجليزية، لكن على الطريقة الجورجية، وليس كما ظلت طوال حياتي أقرؤه مكتوباً. لم يكن "تمارا أبو لاسة الشوافيلي"، بل "تمار أبوладзе إيلشوفيلي"، فشعرت بقشعريرة وحدر غامض لذذ، سرعان ما أفقت منه، حين وجدت الرجل نفسه يلوح باليد الأخرى وفيها الدرويش الخزفي الذي اشتريته لـ"سهر" من مطار "أتاتورك"، وكانت قد تأكّدت بأنني دسسته في مكان عميق وآمن وسط طيات ستريتي الثقيلة بداخل حقيبة اليد "الهاند باج".

"ثقى"



لم أكره شيئاً كالانتظار في صالات الإقلاع والوصول بالمطارات، سواء كان مطار القاهرة أو "ميونيخ"، أو "فرانكفورت"، أو برلين. فما نفع أن يسير إنسان في طابور حاملاً حقائب ضخمة، لكي ينتقل من مكان لا يمثل له أي شيء، إلى مكان غيره، ولا يمثل له شيئاً أيضاً. الفارق الوحيد بالنسبة لي بين بلد وآخر هو مواقف الصلاة واتجاه القبلة، أما ساعات الانتظار فلم أنجح في أن أقطعها بالاستغفار كما يفعل البعض؛ لأن كل طابور كان يحيلني إلى ذكري طابور آخر والرحلة ترسلني للرحلة التي سبقتها، حتى يأتي من يدفعني دفعاً أو يصبح فيَّ بأن أسرع لأنني أعطل الطابور.

ومثل طابور لا يتزحزح، صارت الشقة التي ثُؤُينا أنا وتيتة "زكية" بعدها صُنفت كبيت وقف، أثر لا يمكن التصرف فيه بهدمه، وبناء عمارة سكنية محله، بها شقق كثيرة تجلب أموالاً طائلة لـ"وديدة" صاحبة العقار. وكان الحل هي أن تبيع الشقق أو تُؤجرها للغرباء الذين يعرفون قيمتها، مثل "باتريك" الإنجليزي، وأبنته "كاترين"، و"أنستازيا" المخبولة التي تسكن في الشقة المقابلة لنا. أما خالي "عادل" فقد أقنع "وديدة" بأن تغير عقد الإيجار باسمه، بدلاً من اسم تيتكة "زكية"، في مقابل مبلغ بالغة المصلحة، حتى يضمن محل إقامة حين يأتي في إجازات طويلة من عمله بألمانيا. ولكي يضمن عدم عرقلتي لتلك الصفقة المشبوهة، أرسل لي دعوة لـ"لزهه" في مكان كالحلم على حد قوله، يطل على جبال زرقاء وخضراء، وتحيط به البحيرات والغابات، سأقيم فيه شهراً وأسبوعاً، سينقصون فيه وزني الذي تجاوز مائة كيلوجرام، وسيعالجونني تماماً من مرض السكري، حتى أعود وأتحرك بسلامة في الطوايير الطويلة التي أخوض فيها لأنهي إجراءات القضايا، التابعة للمكتب الذي عملت فيه كمحامية تحت التدريب.

سمعت ثرثرة كثيرة من خالي "عادل" ومن نزلاء المنتجع عن كيف ستَّفوا أسماءهم وشهادتهم الصحية في قوائم انتظار طويلة، لكي يحصلوا على موافقة التأمين الصحي على التكفل

بمصاريفنا في المنتجع الفاخر، كما التقطت تلميحات غير مفهومة قالتها زوجته الألمانية وصديقاتها عن هذا المنتجع الذي يطلقون عليه اسم الـ"كوور"، بأنني سأمضي هناك ليالي حمراء، أو أوقاتاً وردية مع عشاق ومحبين لهانين، يذهبون إلى المنتجع سعياً وراء تجديد حيوية الجسد والقلب والروح.

لم أتشجع على أن يؤويوني بيت واحد مع خالي "عادل" مرّة أخرى سوى لأنه أخبرني أنني لن أحتج إلى أن أفضح قلبي، فسوف تأتي شركة لنقلها إلى المنتجع الصحي ووضعها في غرفتي، حتى لا يثقلني حملها وأنا أنتقل من "ميونيخ"، حيث يقيم، إلى المنطقة الجبلية التي تبعد عنها مسافة ثلاثة كيلومتر بالقطار.

لم تر عيني اليسرى سوى درجات الأخضر الداكنة، بينما يفوت القطار مثل سهم منفلت بين الأشجار الباسقة كسكاكين مسنونة والسهول المنبسطة يتخللها ورد أحمر مثل بقع الدماء بين الجبال. أما عيني اليمنى فلم تشاهد سوى ما رأته قبل أن تفقد البصر منذ سنوات بعيدة. فقد رأت شلالاً صغيراً في رحلة المدرسة للفيوم و"وادي الريان"، وكفوف بناط تصدق على إيقاع أغانيات صاحبة مكررة، يرددونها في الرحلات التي تفرضها ميس "عايدة" مدرسة التاريخ والجغرافيا، وتمنحنا في مقابلها درجات أعمال السنة. وفي طريق صحراوي موحش تحفة هضاب صفراء، تشاهد عيني الباص يميل على جانبه الأيسر، وتنقلب أجساد البناء فوق بعضها بعضاً، وتُنكّون هضبة أخرى من اللحم على الأسفلت، كان آخر ما شهدته عيني اليمنى، قبل أن تفقد القدرة على رؤية أي شيء سوى لقطات أليمة من الماضي. وفوق كل البناء، كانت "تمارا" تُسوّي شعرها وتشد قميصها إلى أسفل، وكأنها فتاة استيقظت للتو من فراشها الوثير، وتستعد لتناول إفطارها وقهوتها، وتحتها مباشرة يتمدد جسد "ميراي" بلا حراك.

فوجئت بأن الـ"كوور" عبارة عن فندق سبع نجوم، لا تستطيع ولو عين الصقر الحادة أن ترى آخره. مساحات شاسعة من البساتين، وملاعب الجولف، وحمامات السباحة، وعيون الماء الدافئة،

ومبانٍ فاخرة بأزيد من 30%³ ونواhir موسيقى هادئة

تتسرب إلى الأركان، وقاعات طعام متجاورة لمحتها من خلف الزجاج وأنا أسير بجوار المُرافق، وسال لعابي على صنوف ملونة مما لذ من اللحوم والدواجن والفاكهة والحلوى. كانت هذه من المرّات القلائل التي شاهدث فيها عيني اليمنى المستقبل، فقدرأيتني وأنا أجوب البو فيه المفتوح ذهاباً وإياباً، أملاً صحيحاً كبيراً بالأرز والمكرونة وقطع الستيك والدواجن المحمرة والأسماك، وأعود لأملاً صحيحاً آخر بسلطات البطاطس بالمايونيز وسلطة التونة بالخضروات، والزيتون الأسود والأخضر، والجبن الحلوم والشيدر والفلامنك، واللانشون، ثم أعود إلى جولة ثالثة لكيأنتقي من الحلوي تورته "التشيز كيك" والشوكولاتة والكاسترد والآيس كريم.

أيقظني المُرافق من واحدة من أروع المشاهدات والعطایا الريانية التي منحتني طمأنينة، بأن صاح فيَّ بأننا وصلنا إلى الغرفة. وأشار إلى صندوق بريد خارج غرفتي، يفترض أن أجده به ورقة كل ليلة بها برنامج اليوم التالي، الذي سأمضيه برفقة مجموعة من مرضى السمنة والمتعاوفين من جراحات العمود الفقري. من السادسة إلى السابعة إفطار في المطعم الكبير. من السابعة إلى الثامنة تحليلات الدم ورسم القلب. من الثامنة إلى العاشرة راحة ألتقط فيها أنفاسي من المشي في الطرقات الطويلة واستنشاق روائح المطهرات. من الثالثة إلى الرابعة لقاء المجموعة في جلسة ثرثرة مع الطبيبة النفسية التي تناقض نفسها في كل مرّة. فتارة تلقي علينا محاضرة طويلة في كيف نحب أنفسنا وأجسادنا حتى يقبلنا الآخرون كما نحن. وتارة أخرى تجعلنا نسير ونحن نتخيل أن على أكتافنا أحمالاً تزن عشرة أو عشرين أو خمسين كيلوجراماً، وكيف سيتعزل السير حتى نكف تماماً عن الحركة إن استمررنا في كسب مزيد من الكيلوجرامات الإضافية. أما ما كُنْتُ أظنه الجائزة الكبرى فقد تحول إلى ذل عظيم. منضدي محددة بآخر صالة الطعام، عليها كارت باسمي وبه السعرات الحرارية المسموح بها، التي أبدل جهداً حسابياً ضخماً في أن ألتقط عشرين جراماً من هذا الجبن وعشرة جرامات من تلك الفاكهة، حتى لا أتجاوز المقرر الذي يمر المشرف ليتأكد من

التزامي به. أما الخلاص من جرعة التجويع هذه فكان في الجولات التي يأخذوننا فيها إلى أقرب مدينة، للتسوق أو التمشي بين المحال، حيث كنت أشتري كميات من الشوكولاتة وأدثّها في حقيبتي، وأتسلّل ليلاً بالتهمامها، الأمر الذي حير جميع الأطباء لعدم فقداني الوزن المأمول، وجعلهم يعيدون التحاليل مراً، فربما كنت مصابة بمرض نادر يمنع حرق الدهون.

أثار صمتي فضول رفاق المجموعة أكثر من مرح وهرج الآخريات، فتقربت إلى "هيلجا"، شبيهة "إليزابيث تيلور"، وأخذت تحكي كمن يسجل ذكرياته على أشرطة كاسيت ولا يتوقع ردّاً من طرف آخر. قالت إنها وقعت في الحب كثيراً وتزوجت مرات ثلاثة، وفي النهاية تأكّدت من حقارة الرجال، لهذا وجهت كل مشاعرها تجاه النساء، فلا تفهم المرأة ولا تحنو عليها سوى امرأة مثلها. ملّست على شعري وضمّنتي بقوّة إلى حضنها، لكنني لم أعتقد هذا النوع من التعبير عن المحبة، فصدمها برودي، ووعدتني بأنني سأكون حبيبتها الوحيدة، وأنها لن تواعد أحداً إن بادلتها الغرام. أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه.

هربت من أماكن وجود "هيلجا" بالسير وحيدة في الغابة الملائقة لـ"كوير"، فلمحني "جونتر"، وهو عجوز في الخامسة والسبعين، جاء ليتعافى من جراحة في القلب. استسمحني في أن أنتظره حتى يتمشى معي، فصارحته أنه سيعيق سكوني النفسي وتدبرّي لأحوالى بإيقاع خطواته ومشيته البطيئة، لكنه وعدني بأن يسايرني بإسراع الخطى في صمت، فوافقت، حتى أني لم أشعر بوجوده كظل يلازمني. وحين أغْيَاناً المشي الحديث بين الطرق الملتوية التي تحفّها الأشجار، توقفنا لنجفف عرقنا ونلتقط أنفاسنا. ضغط "جونتر" على ذراعي بأصابعه ومال قليلاً، فظننته سيسقط من الإعياء، لكنه كان يرغب بأن يلقي بجسده النحيل فوق جسدي المستند إلى الشجرة، وأخذ يقول أشياء عن الحرمان والاحتياج والقلب الذي لا يشيخ. لم أحبس صوتي وأنفاسي كاليوم الذي كاد يفعل بي خالي "عادل" ما فعله "عنون" بـ"ثamar"، بل فعلت كل ما كان يجب أن أفعله في ذلك

اليوم البعيد.

لم ألاقي "جونتر" في اليوم التالي بابتسامة خشبية ثابتة كالتي أبئها في وجهه خالي "عادل" وبيظنها فرط محبة، فلم يطرق "جونتر" النظر في وجهي، بعدما وبخته بأقذع الشتائم المصرية التي لم يفهم منها شيئاً، لكنه حتماً تأثر حينما لكرزته بقوه في كتفه الشمال فوق موضع القلب، الذي جاء للمنتزع طمئناً في لمسات حانية تداويه، عوضاً عن المنشار والمشارط الطبية التي شقت صدره بفتحة طولية وغرزات عرضية، تذكره بالآلام التي تكبدتها.

فهمت متأخراً التلميحات الخبيثة لزوجة خالي "عادل" وصديقاتها عن "الكواور"، حين أصابني الأرق ذات ليلة، وخرجت إلى الدهلiz لأخذ زجاجة ماء الصودا، فوجدت رجالاً يخرجون من غرف النساء، ونساء يغادرن غرف الرجال وهم يتداولون قُبلات ساخنة في الهواء، وعلى وجوههم علامات ارتياح ونضارة.

حاولت الاتصال والاستغاثة بخالي "عادل" ليأخذني بعيداً عن هذا الجحيم، ويعود بي إلى مصر، لكنه رماني في المنتزع الصحي، ليسافر بمفرده ويُتم مؤامرته مع "وديدة" بتغيير العقد، وتكون له حرية التصرف في الشقة، فيؤجرها من الباطن للأجانب المهووسين بالأحياء الشعبية القديمة.

وقد كان الخلاص هو أن أصفي فؤادي بالصمم التام حتى تلوح لي الأنوار وتكتشف الأسرار، فأجدني وقد علوت إلى مقام المدارسة، فتارة أدرس مع الملائكة وأتعلم من علومهم، وتارة أجلس مع الأنبياء ليطالعونني، وتارة أجلس مع الكائنات كلهم، حتى يكشف لي الله خواصها.

ما عمق إحساسي بالفراغ في المنتزع هو مشهد الذين يستمتعون بأنشطة الرسم والتلوين والحزف والطرق على الحديد وأشغال الحلي، ورياضات البولينج والبلياردو والتنس، أو الذين يخلعون ملابسهم ويكشفون لحمهم المترهل بسلامة ثم يغمرونها بالمياه 40%^{الدافئة في حمام السباحة، أو في الجاكوزى والينابيع، لكننى}

تدبرت الآية الكريمة التي تقول: "وجعلنا من الماء كل شيء حي"، فقررت أن أتطهر بماء الينابيع الكبريتية الدافئة، مثلما يغسل المسلمون أدран البدن والروح بالوضوء، ويزيل المسيحيون الخطايا بماء التعميد، إلا أنني رفضت لبس المايوه مثلهم، وصممت على السباحة بالبنطلون والتيشيرت. وقد كان هذا يوماً مشهوداً ونقطة تحول غيرت مجرى أحداث حياتي. فبمجرد أن غمرتني المياه والسكينة المتداقة مع الدوامات والفقاقيع الصغيرة، سمعت جملًا صاحبة وكلمات بالألمانية ورأيت أصابع تشار نحو يعقبها صياح وضحك، إلى أن أخرس رئيس المجموعة الجلبة المثارة حولي بأن قفز بدوره في الينبوع بكامل ملابسه.. "علاء المصري" الذي أخرجني عن عزلتي حين تكلم معي وفضفض بمكونات روحه ولاماح من تاريخه الشخصي أسفل الشجرة الكبيرة، فرسمتها في النشاط الفني كامرأة تُسقط دموعاً وتكون ينبوعاً دافئاً تحتها. لوحة صفق لها الجميع، وأحبها "علاء المصري" بشكل خاص، فهو الوحيد الذي كان يعلم أن هذه الشجرة ترمز إليه. وكنت أنا الوحيدة التي تعرف أن بركة المياه التي كونتها الدموع، لم ترمز للينبوع الذي جمعنا بملابسنا كاملة، بل للمياه المتسربة من أسفل الكرسي في حصة التاريخ، وجعلت البناء يُشرن على ويتهامسن كل يوم في طابور المدرسة. وحين بدأني في التغافل عن تلك الواقعة، داهمني أول بقعة دماء لأنوثة في طابور آخر، فسمعت الهممات نفسها، وسحبتي المشرفة بعيداً وقالت لي أشياء عن الدورة الشهرية لم تكن تبيتها "زكية" قد حكت لي شيئاً عنها. لم يعفني من حرج تلك الطوابير سوى نقلني إلى مدرسة حكومية أقرب إلى البيت في "ال滴滴" وأقل تكلفة، والأهم من هذا وذاك، أنه لم يكن لي في المدرسة الجديدة أي تاريخ.

وحين حاولت "إيماء" المدرية النفسية في المنتجع الصحي أن تخرجني عن صمتي، نصحتنى بـألا أجبر نفسي على الكلام في البداية، بل أن أتصور أن كل شخص آخر في المجموعة يتحدث، هو صورة لي في المرأة، وسميت الجلسات التي كانت تجمعنا 40% ^{دقائق} بالأسبق ^{عن} "حواديت في المرأة". في تلك الأمسية، تكلم

"علاء المصري" كثيراً، وأكملنا حواراتنا التي كُنّت أقوم فيها بدور "المراة" على دكة أسفل الشجرة. الشجرة الكبيرة نفسها التي رسمتها وتخيلتها تبكي ينبوغاً في الصورة التي علّقها ببرواز أنيق في الدهليز المؤدي إلى المطعم، وتحتها اسمى كاملاً "ثقى شامل أبو لاسة". الاسم نفسه الذي وقعت تحته في وثيقة الزواج الذي تم في السفارة المصرية ببرلين، يجاوره توقيع "علاء إبراهيم المصري".



الجزء الثاني : "تيليسى"



VectorStock®

VectorStock.com/9133257

چورچیا

"تمارا"

(1)

41%

دقيقة متبقية من «تمار..» 204



لو كان الأمر بيدي لتخطيث كل الحواجز ومكاتب ختم الجوازات بمطار "تيليسى"، وطررت نحو الرجل الذى يحمل اسمى على لافتة كبيرة، ويلوح بيده الأخرى بتمثال الدرويش الخزفى الذى اشتريته لـ"سهر"، لكننى مضطراً إلى الوقوف أمام السير الذى يدور هو الآخر مثل ثورة الصوفى، ويلتاف حوله المريدون المفترقون شوقاً لوصول حقائبهم، وينتظرون في حسراً إلى حقائب تظهر وتختفي، ثم تظهر مراتٍ متتالية ولا يلقطها أحد. تُشبه دقائق انتظار الحقائب في المطارات لحظة خروج الروح من الجسد، التي يقولون إن الإنسان يرى فيها شريط حياته كاملاً يمرُّ من أمامه في ثوانٍ. فمع الدوران المتكسر للحقائب التي بلا أصحاب، وبداية وصول حقائب معظم الركاب، إلا حقائبي أنا، تمرُّ من أمامي لقطات بعينها من حياتي، تجعلني أرتعب من أن تضيع الحقيقة بمقتنياتي التي عشت معها بحب، ووضعت فيها أجزاء من روحي، واخترتها دون غيرها لترافقني في رحلتي.

تفوت على السير المتحرك كل الحقائب السوداء والبنية التقليدية كألوان ملابس "ئقى" التي لا شكل لها، ولا ألمح أبداً حقيبتي الفوشيا والبنفسجية المميزتين. ترانى الآن أقلل من شأن

بكلام زوجها الفلاح الفصيح، "علاء المصري"، قبل عامين، ما كُنْتُ لأقيم وزناً للخطاب الذي جاءني من القس المجهول، وجعلني أفتشر عن فردة القرط والإنجيل.

فاجأتني "ثُقى" بإصرار وسذاجة بالمطالبة بحقها في الأراضي والأملاك التي عثّرت عليها في چورچيا، حين سافرت إلى "تبليسي" لحضور أسبوع الموضة منذ عامين. أخذت تردد مثل تلميذة تحفظ ولا تفهم ما لقنه لها زوجها، بأن اسم "تمار" الممتد إلى جدات الجدات في تاريخ أسرتنا لا بد أن يدل على أنها من أصول جورجية، وأنني لا بد أنني مسافرة سرّاً للاستحواذ بمفردي على ثروة من الأراضي والبنيات. ضحكت وسخرت من "ثُقى" كالعادة، فارتفع صوتها فجأةً واحتنتقت بالدموع، وقالت:

- علاء بيقول مش معقول أختك "تمارا" خريجة قسم التاريخ، مش عارفة إن المماليك اللي كانوا جايين من چورچيا بالذات فضلوا محافظين على لغتهم الأصلية، وكانوا متابعين أخبار بلادهم في "القوقاز" وكمان قرايبهم كانوا بييجوا يزوروهم في مصر، ويأخذوا منهم فلوس يشتروا لهم فيها أراضي ويبنوا كنائس في القرى اللي كانوا جايين منها.

ثم توقفت قليلاً عن الكلام لتبلع ريقها وكأنها تلميذة تتذكر باقي الدرس، أو تحاول أن تثبت أنها كانت لتكون محامية مُفوّهة لو كانت قد استمرّت في عملها وترافعت في المحاكم.

- أية، وأكيد أنتِ كمان عارفة من كتب التاريخ إن المماليك دول كانوا عايزيين يتحرّروا من الإنجليز والأترارك، ويرجعوا بلادهم بعد ما بتوع الحملة الفرنسية طلعوا من مصر. "علاء" قاللي إن له واحد صاحبه ححاله إنه كان له جد أصله من چورچيا، وكان سايب لهم نسخ من أوراق وجوابات كانوا بيعنوها الجورجيين للسفير الروسي في القسطنطينية عشان يتتوسط لهم يرجعوا بلادهم سنة ألف وثمانين حاجة كده، بس السفير ده طلع لئيم وطنشهم عشان الروس خافوا يرجعوهم چورچيا أحسن يعملوا ثورات واستقلال هناك.

تنفست "ثقي" الصعداء بعدها قذفت في وجهي كل النفايات التي لقّنها لها زوجها، ثم أضافت وكأنها عالمة ببواطن الأمور:

- ما هو مش معقول تكون صدفة إنك تتطلقي وتسيببي شغلك، وتروحي مسافرة على چورچيا دي بالذات بالصدفة كده عشان تحضري عرض أزياء! إلا عمرنا ما سمعنا عن چورچيا دي غير في أمريكا.

وقد كان آخر ما قلته لها قبل أن أنساها لعامين آخرين:

- وهتراري أنت چورچيا منين؟ إيه الجنان ده؟! الفلاح الفصيح جوزك طير البرج اللي فاضل من دماغك. قال كنایس وممالیک وقنسطنطینیة قال. ده أنت عمرك ما فشلت في حاجة قد دروس التاريخ وحصص ميس "عايدة".

لمحث طرف حقيبتي الفوشيا وهو يظهر من بين فتحات الستارة بأول السير. هدأت قليلاً بعد أن التقطتها بخفقة، ووضعتها على الأرض، وجلست فوقها انتظاراً للحقيقة الأخرى. أهم ما في هذه الحقيقة هي التئورة الفلاحية التي صممها لي "ضيا" وقال إنها تشبهني. تئورة واسعة بكورنيش بها بوافي الأقمشة الغالية والرخيصة التي يجلبها من كل محافظات مصر، ويستوردها من شرق بلاد الأرض ومغاربها يتجاورون ويتدخلون في انسجام لا يخطر على قلب مصمم أزياء عادي، قد يظنها متناففة، ولن يفكر في وضعها في رداء واحد. المدهش في تلك التئورة السحرية أنها تناسب جميع ألوان النيشيرات السادة التي أنتقيها وفقاً للمزاج، ونوع الإكسسوار الذي أرغب في أن أتحلى به. تذكرني هذه التئورة بأول جونلة أحضرها لي خالي "عادل" من ألمانيا. كانت عبارة عن قطع طولية متباينة من الشموهات بألوان الأرض، البنى، والبيج، والهاfan، والزيتوني، والطوبى، بدرجاتها، وكأنه اقتطع أجزاء من المدن التي زارها وأهداها لي، كما أحضر لـ "ثقي" واحدة مثلها بألوان مبهجة، لم تحبها، ولم أرها ترتديها يوماً، لكنني وقعت في غرام تلك التئورة؛ لأنها أيضاً كانت من رائحة خالي "عادل"، الذي أحببته لخفة ظله، وطيبة روحه، وسخائه في

الملابس التي كان يرسلها في حقائب لي ولـ"تقي"، لكن تلك الجونلَّة هي ما علقت بذهني، وظللت أتذكرها بحسرة بعدما كبرت عليها، أو صغرت هي علىِّ مثلما كانوا يقولون، وصرت شغوفة بعدها بكلِّ أشكالِ الجونلات، الواسعة المرحة أو الكلاسيكية الأنique، حتى إنني اخترت خط التنورات كمشروع للخروج في أكاديمية الموضة بإنجلترا. لكنني أبداً لم أصل لعقريَّة "ضيا" في أن أصمم جونلَّة تُشبه روح امرأة، مثلما اهتمي هو لفكرة أنني أحمل بداخلِي كلِّ شعوب الأرض في انسانية وهمونية.

رفض "ضيا" طلب "سهر" في أن يقلد لها نسخة طبق الأصل من تنورتي، متعللاً بأنَّ بوادي الأقمشة التي صنعها منها قد نفت. فظننت أنه لا يرغب في بذل جهد في قطعة يعرف شكلها مسبقاً، واعتقدت "سهر" أنه صار يتخد منها موقفاً عدائياً بعدما حلَّ الشراكة التي بينهما وارتبطت بـ"راشد" المريض. كُنث لأنفر من "راشد" لو كُنث مكان "ضيا"، ليس فقط بسبب العلاقة التي بدأت متواترة بينهما، بل لأنَّ "راشد" يقوم بأنشطة مريبة بالفعل.

ربما كانت "سهر" هي الوحيدة التي التقاطها "راشد" من حفل غنائي ليتزوَّجها، لكنها كانت من بين كثيرين يصادقهم من الحفلات ويضمهم لجمعيته التي تروج لأفكار ظاهرها التسامح والتراحم وفي باطنها نار مستعرة. وضع "راشد" على قوائم النشطاء الهاريين والممنوعين من دخول البلاد بعدما صدر ضده حكم غيابي، لم يقدره كثيراً لأنه وجد ملاداً أكثر سخاء في بلاد أخرى. أما ما كدَّرني أنا فهو أنَّ "سهر" استجابت له في أن تسليت مخفية في زي خليجي فضفاض لوضع مولودها الأول في حي "بروكلين" الذي يعجُّ بالمصريين والعرب، ولا يختلف كثيراً عن حي "شبرا"، وهربت قبل أن تسدِّد أجرا المستشفى الباهظة، مثلما نصحها كثيرون من مُريدي الجنسية الأمريكية لأبنائهم. فصارت هي أيضاً على قائمة الممنوعين من الدخول والولادة مرَّة أخرى في المكان نفسه بعدما تم القبض على صاحب شركة تسهيلات الولادة التي أغراها اسمها "يو إس إيز هابي بيبي"، أي طفل

أمريكا السعيد، فقررت أن تلد طفلها الثاني في كندا، الذي ستسمييه "نوح"، أو "نوا" كما سيناديه الكنديون، حتى يتيسر له حين يكبر دخول مائة وستة وسبعين بلداً، بفارق بلد واحد أقل من أخيه الأكبر.

ذهولي من الهستيرية التي تسيطر على تحركات "سهر" ينبع من كونها ابنة ميس "عايدة" التي افترضت أنها فعلت معها نفس ما فعلته معنا، وغرست في روحها شجرة راسخة تقدس مسقط الرأس والمنبت، أما البلاد الأخرى ففروع وأزهار وأنهار، يشكلون مشهدًا جميلاً مثل تابلوه من الجوبلان يتحول إلى ثوب مبهج به أشجار وجداول مائية وأزهار. لكن "سهر" كانت مثل فصول الموضة المتقلبة، وعروض أزيائها التي تضعف في حيرة، فمجموعة الربيع تعرض في الشتاء الذي يسبقها، ومجموعة الخريف تعرض في الربيع، ومجموعة الصيف تعرض في الخريف، فيدور رأسك كما تدوخ حين تتبع ثورة الدرويش، بينما يستمر هو في دورانه دون كلل، مثله مثل السير الذي يحمل الحقائب في المطارات، وتوقف فجأةً الآن لسبب غير معلوم، دون أن تظهر حقيبتي البنفسجية.

لاحت لي لقطة كُنْث قد نسيتها، تذَكَّرَت فيها يد "سهر" تدشِّن لي كارت بوستال في حقيبة يدي في مطار "أتاتورك"، قبل أن تعطيني ظهرها وتغادر مع زوجها قبل ساعتين من الآن. التقطت المظروف بسلامة وفضضته لأتسلى بما فيه حتى يعود السير للدوران، لكنني وجدت به أربع أوراق مطوية بعنایة، ومكتوبة بخط يد "سهر" الطفولي، وليس كارت بوستال كما ظننت. تضمن الخطاب كل المسکوت عنه منذ سنوات، التاريخ الشخصي لـ"سهر" الذي قمت بتأليفه بخيال ذي قماشة عريضة، بناءً على خبرتي السابقة مع ميس "عايدة" وملابسها اللافتة ونظرياتها البراقة. ها هو يعود إلى "أونفيروب"، الذي أحببته مودياً في التنورات، ومظروفاً تقليدياً يكشف المستور. جريت على الحروف سريعاً، التي استهللتها "سهر" بأنها كتبت لي هذا الخطاب لأقرأه بتممٍ وتممٍ، فلعلني أمنحها بعض العذر، ثم استطردت:

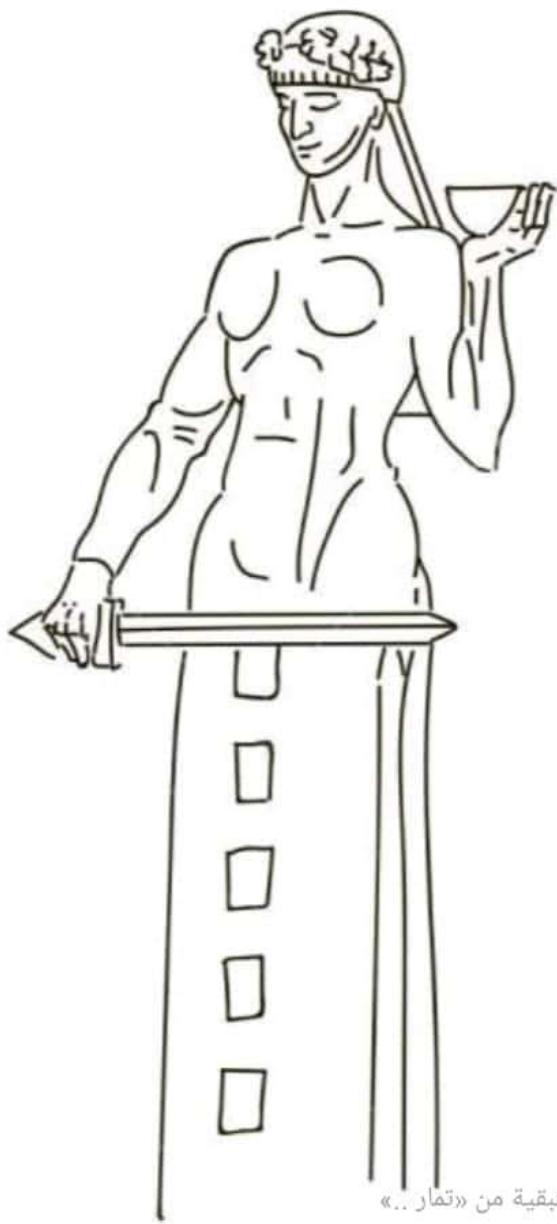
"لم أنشأ في بيت واحد مع أمي مثل كل البناء، بل تربيت في منزل عُمّتي التي زرعت في رأسي فكرة أن والدتي هي من أصرّت على الطلاق، وظلت تُعايرني بأنها تخلّت عنّي ورمتني لتنزوج رجلاً آخر، يوفر لها منزلاً فاخراً وملابس أنيقة، لم يستطع والدي مدرس التربية الرياضية أن يوفرها لها. لم تفلح محاولات أمي في المرأة التي كُنّت أزورها فيها في طفولتي أن تقعنوني بأن هذا الكلام افتراءً من أخت زوجها، وأن التفاهم بينها وبين والدي كان يصل إلى حوائط صد بعيداً عن الماديات. ولما سيطرت على رأسي في سن المراهقة وساوس بأن الله حتماً غير راضٍ عنّي، وأنني لا محالة في النار، غطّيت جسدي بجلباب واسع، وغلّفت رأسي، وأسدلت على صدري خماراً. أرادت أمي أن تكسب رضاي، فتنازلت راضية عن كل الأزياء الجميلة، وتحجّبت هي الأخرى، وأخذت تصاحبني إلى مجالس العلم الدينية، وتغوص وتتوغل في الفقه وأحكام الشريعة حتى وصلت إلى أمهات الكتب، ورجعت إلى الوراء وحدها إلى قرون بعيدة في التاريخ الذي تعشقه، فتاهت في غيابه ونَقَّبت نفسها بالكامل بالسود.

ماتت عُمّتي في الشهر نفسه الذي نجحّث فيه في الثانوية العامة، فشعرت بشبح امرأة محبة للحياة يسحبني من يدي إلى كلية الفنون الجميلة. وبين اللوحات وبالبيتات الألوان، بدأت أزحرغطاء رأسي إلى الوراء قليلاً، وأسدل خصلة ناعمة من شعرى الذي صبغته باللون النبيذي تشبعاً بأمي، وشمرت أكمامي وقصّرت ثوبى شيئاً فشيئاً، حتى عدت إلى سيرتي الأولى قبل أن أتحجّب، لكن النّدّاهة التي جذبّتني من يدي جعلتني لا أهداً على حال، فتارة أرتدي الكلاسيكي القصير الذي شاهدته في فيلم "الشيطانة ترتدي براداً"، وتارة ألف الساري الذي أحببته على بطّلات قناة "بوليود"، وتارة أتبختر في جلباب فلاحي عصري من تصميم "ضيا"، سرعان ما أزهده وأعرضه للبيع. وعلى الرغم من أنّي مكثت ستة أشهر كاملة بجوار أمي، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، حاولت فيها رغم صراعها مع المرض، أن تقعنوني بأنّها لم تهجرني من أجل مسكنٍ أكبر وملابسٍ أجمل، ظلّت تلك الفكرة^{43%}

الطفولية راسخة في وجداي، فأردت أن أوفر لأبنائي ملادات كثيرة آمنة في شتى بلاد الأرض، حتى لا يظئوا يوماً أني تخلّيت عنهم وتركتهم في العراء.

فهمت لماذا لم يمنح "ضيا" تنورة تتجاوز فيها قطع من بلاد الدنيا في انسجام لـ"سهر"، فقد كان يعرف منها ما لم أعرفه، وحجبته هي عَنِّي حتى تحافظ لي على الصورة القديمة التي صممها خيالي لميس "عايدة". فقد قال لي "ضيا" ذات مرّة إنه قرأ أن الأنقة المقلدة مقارنة بالأناقة الأصلية تُشبه شكل الباروكة مقارنة بالشعر الأصلي. فـ"سهر" منذورة للقلق والشتات، وليس لتلاصق وتدخل البلدان في قطعة يدوية أصلية، حتى إنها في رحلة بحثها عن الملاذ المستقبلي الآمن، نذرت ابنها "آدم" لقارة لن تستطيع أن تطأها ويبلتم شملها معه فيها إن اختارها وطنًا، وستهدي الوليد الذي تحمله في أحشائهما لقارة أكثر برودة وبُعدًا، حتى تضمن لهما حرية التبعثر والشتات في مائة وستة وسبعين بلدًا.

عاود السير دورانه وظهرت حقيبتي البنفسجية، التي أنتظرها منذ عشرين دقيقة. ففتحت الـ"هاند باج" للاطمئنان على الصندوق الصغير الذي يحوي القرط والإنجيل، فلامسته وربّت عليه كأم حنون، لكنني اندھشت لما لمحت طرف الدرويش الخزفي الذي اشتريته لـ"سهر"، سليمًا مُعافي وملفووفًا في مأمه بداخل السترة الصوفية، على الرغم من وجوده في يد الرجل الغريب، الذي يلوح لي به على بعد أمتار خلف الحواجز الحديدية.



44%

دقيقة متباعدة من «تمار..» 194

اقتربت منه ذاهلة، فتبينت عيناه الزرقاء، وشعره الفضي الذي أخذ يزيفه بأصابعه إلى الخلف لكيلا ينسدل من فرط نعومته على جبينه. ولو لا السمرة التي تلون بشرته، لظننت أنه لم تلفحه شمس يوماً. قدم لي نفسه على أنه "موتي"، ثم استدرك:

- أقصد "مطيع".

اتسعت ابتسامته الطفولية فتكاثرت التجاعيد على وجنتيه وعلى جنبي عينيه وهو يمد لي يده ليصافحني، قائلاً:

- كيف؟

بلکنة شامية. سلمني اللافتة التي يحملها وعليها اسمى قائلاً:

- هاي مني إلك.

ثم أعطاني الدرويش الخزفي، وقال:

- وهاي من رفيقتك.

أصر على أن يجر لي الحقيبتين الثقيلتين على الرغم من أنه يحمل على ذراعه حقيبة يده.

"مطيع الشیخ"، أحد مفاجآت "سهر" وهداياها غير المتوقعة. رجل لم تكن تعرفه قبل ساعات. راكب عادي على الطائرة التي حملتنا من مصر إلى تركيا، قدّمت له القهوة بعد الوجبة، وقطعة كيك إضافية، ثم ألقت عليه بعبء العناية بي حين نصل إلى "تبليسي". هذا الرجل الوقور الذي تجاوز الستين، أشركته "سهر" في إحدى لعبها الصغيرة، وأوصته ألا يكلمني أو يجعلني لألاحظه على الطائرة، حتى يكون فرحة كبرى وخلالاً من القلق الذي يفتكم بي، خشية التوهان بعد الثالثة صباحاً في شوارع مدينة غريبة. والعجيب أن "سهر" لم تكن تعرف أنني اشتريت لها الدرويش الخزفي الذي أحببناه معاً، وابتاعته لي هي الأخرى نسخة منه، واستسمحت "مطيع" أن يفاجئني به كرفيق خزفي أحمله أينما ذهبت وأديره بأصابعي فيؤنسني ويذكرني بها.

قليل القد، ذو بنية رقيقة، لكنه حمل حقيبة تلو الأخرى وسُئّلَهما في مؤخرة سيارته الصغيرة بسلاسة وخبرة من يرتحل كثيراً، وهو يضحك من ضخامة حجم أمتعة النساء. أزاح خصلة شعره الناعمة التي انفلتت على جبينه، وقال:

- شُبِّيك لُبِّيك.

سلمته عنوان شقة أخت "أنستازيا" في شارع "ديفيد آجماشينيبيلي" بوسط المدينة، فوضعه في جيبه دون أن ينظر إليه، وصرف الرجل الذي كان ينتظره بالسيارة. لم أكن أقل حماقة من "سهر" التي عهدت إليه بالهدية التي اشتراها لي، وركبت بجانبه في تلقاء وكأني أعرفه منذ سنوات، لكنني كُنْث كالغريق الذي يقنع نفسه أن القشة ستنقذه، فتناست كل القصص التي صورها لي خيالي عن عصابات المافيا التي ستحططبني لتحصل على الكنز المكون من فردة قرط متغضنة، وكتاب مقدس لا بد أن له آلاف من النسخ المثلية.

قال:

- هل شاهدت "تبليسي" ليلاً؟

قلت:

- نعم، منذ عامين، كل ليلة وأنا مستلقية على فراشي في الدور السابع عشر بغرفة الفندق.

قال:

- "تبليسي" تستحق أن تشاهديها من نقطة أكثر ارتفاعاً، واسألي شيخاً مثلي عاش هنا لأكثر من ثلاثين عاماً.

قلت:

- ربما مرّة أخرى. فصاحبة الشقة تتوقع قدومي، وتنظرني.

"عُوِّدت عيني على رؤياك" بصوت "رياض السنباطي" وسلطنة أوتار قوقاز كأنه آخر لها. أتوقع سماعه من كاسيت السيارة، وسط

هذا العبث الذي جعلني أركب عربة يقودها مجهول، ويجري
بسرعة تلقي بإغراء الشوارع الخالية، في الثالثة صباحاً بتوقيت
"تبليسي".

فوق ربوة عالية، تتلاأ تحتها أضواء المدينة وترى قلعة
"ناريكيلا" الأثرية، التي تعلو تلة شديدة الانحدار بين حمامات
الكبريت والحدائق النباتية، نقف أنا و"مطبيع" في صمت حفاظاً
على روعة المشهد. لكن كلانا يبذل جهداً هائلاً لكي لا يجرح
الصمت؛ هو لأنه حتماً يمتلك روایات وفيرة، وأنا لأنني أجهل
كثيراً وأريد معرفة كل شيء. شق "مطبيع" رتابة السكوت المفتعل
وببدأ الكلام بصوته المتหشّر. قال كلاماً غريباً يشبه ما كانت
ترويه "أم إدريس" ليلاً، ويذكرنا أنا و"ثقى" حتى صباح اليوم
التالي. صوب بصره نحو حصن "ناريكيلا" والكنيسة الأثرية التي
تجاوره وكأنه يحدث نفسه:

- كانوا يقولون في الأساطير الجورجية إن للكون شكلاً كروياً،
ويتكون من ثلاثة عوالم كالطوابق، يسمونها "سكيينيلي". العالم
الأعلى اسمه "زيسكينيلي"، وتسكنه الآلهة. أما العالم السفلي
فاسمها "كيفسكينيلي"، ويقع تحت الأرض، وهو مسكن
بالشياطين والأرواح الشريرة والديناصورات. بين هذين العالمين،
توجد الأرض التي نعيش عليها نحن والأشجار والجبال والبحار
والأنهار. لكل من العوالم الثلاثة لونه الخاص؛ الأبيض للأعلى،
والأسود للأوسط، والأسود للأسفل. آه يا مصر. ألوان العلم
المصري نفسه. على فكرة كان بدئي أعيش بمصر. وأنت إيش لونك
يا حلوة، أحمر ولا أبيض؟

عاد لـ"مطبيع" وجهه الطفولي، وزالت عنه الحشرجة بعدما استطرد
في الحكي، وأنا صامتة تماماً.

سألته فجأة:

- هو حضرتك بتشتغل إيه؟

فأجاب:
«192 دقيقة متبقيّة من «تمار..»

- حكاواتي.

لم أفهم ولم يتبقّ لي مزيد من الطاقة لكي أستفسر. تجاوزت الساعة الرابعة صباحاً، فعدنا إلى السيارة. كان "رياض السنباطي" ما زال يصدق في الكاسيت بـ"عُودت عيني"، وفي ذيلها بدأت أغنية روسية لها لحن شهير مبهج، كان لدى "چيمي جدو" أسطوانة لها، وكانت تيتة "نازلي" تدب فيها الحيوية حين تسمعها عن بعد. كُنث أظنها أغنية للرقص الجماعي الذي يشبه الدبكة، لكن "مطيع" قال لي إنها كانت تُغنّي أيام الحرب العالمية الثانية في روسيا، وتحكي عن فتاة تنتظر حبيبها الذي يخدم بلاده في الجيش. كانت الفتاة تسمى "كاتيوشة".

- بتعرفي شو يعني "كاتيوشة"؟ "كاترينا" بيدللولها يقولولها "كاتيا"، وـ"كاتيوشة" تدليل "كاتيا". بحب كتير هالغنية مشان على اسم زوجتي "كاتيا".

وصلنا إلى شارع "ديفيد آجماشينيبيلي"، وأخذنا نبحث عن رقم العمارة 111 في الظلام. كان الباب الخشبي الضخم مغلقاً ولا أثر لحياة أو لامرأة تنتظرني مثلما وعدتني "أنستازيا". فقد قالت إن اختها لا تنام حتى تستقبل السكان الجدد، وتعطيهم المفاتيح وتفرّجهم على المكان. أتذكر أيضاً أن "أنستازيا" قالت لي إن اختها تُبقي نور البلكون مضاءً، وللblkون ستارة خفيفة بيضاء، حتى أتعرف إلى الشقة في الدور الثالث. وجدنا ممراً يفضي إلى باحة مظلمة بها عمارات كثيرة بلا بلكون مضاء سوى لامرأة عجوز تعسّس في الدور الأرضي. سألتها عن شقة تستأجر للسكن في الدور الثالث في هذه البناء لمرأة تُدعى "تارا"، أو بأي من البناءات الملائقة، فبدأ عليها أنها لم تفهم. كرر عليها "مطيع" السؤال باللغة الجورجية والروسية، لكن شيئاً لم يتغير.

كان "مطيع" في تلك اللحظات هو العالم كله، هو المنقذ والمخلص، الذي ظلت صامتة أمام عروضه التي لم أعرف أيها اختار حتى ينقشع هذا الظلام. قال إنه مستحيل أن يتركني مثلما طلبت منه، وكنت بيني وبين نفسي أتمنى ألا يهاودني ويفعلنـ 45% 190 دقيقة متبقية من «نقاري».

أصر على أن يأخذني إلى فندق في المدينة القديمة صاحبه مصرى، ويمكن أن يجد لي مأوى أو يعثر معي على صاحبة الشقة التي دفعت لها أجرة شهر مقدماً. لم أذرف أمام "مطيع" دمعة واحدة لأعطيه انطباعاً بأنني فتاة غريبة قليلة الحيلة، لكنني كُنت أشعر بأن جسدي مُغلَّف بثوب مهلهل تملؤه الثقوب، وبأن قلبي إسفنجية منقوعة في طست مياه قذرة.

دقائق قليلة ووجدتني في شوارع ضيقة صاعدة وهابطة، ثم توقفت السيارة أمام فندق صغير لم أتبين اسمه. تبادل "مطيع" وصاحب الفندق حوارات كثيرة، وسمعت جمل ترحيب بالعربية والإنجليزية، كما سمعت صوتاً يصدر مثي يقول إنني سأبقى على الأريكة الجلدية في المدخل ساعتين فقط حتى الصباح. لكنني شاهدت حقيبتي الفوشيا والبنفسجية محمولتين على ظهر الشاب المصري صاحب الفندق، وهو يصعد بهما السُّلُم المؤدي إلى الغرف، وذراعي تستند إلى ذراع فتاة جورجية، لم أفهم ما كانت تقوله لي بحماسة وود، قبل أن تدخلني إلى غرفة تعم فيها الفوضى، وكأن نزلاء ما قد غادروها للتو.

يسقط جسدي على فراش غير مُرتب، ويصدر من الوسادة سؤال لم أكن قد أجنته قبل ساعات بصوت "مطيع":

- وأنتِ إيش لونك يا حلوة؟

فأرد عليه بتلقائية بالكلمة الجورجية الوحيدة التي علمني إياها وعلقت بذهني:

- لوني مثل "الكيفسينكيلي"، العالم الذي يقع تحت الأرض، وتسكنه الشياطين والأرواح الشريرة والوحوش.

وقد كان هذا بداية حلم يليق بنوم ثقيل كعمق عالم الأساطير السفلي، وليلة عبئية يغمرها السواد.

ضرب أول شعاع شمس المرأة المُواجهة للفراش، ففتحت عينيه على شبح ضوء يتراقص على الحائط، ويعكس صورة اللافتة التي تحمل اسم الفندق "ميجوتيل". هرعت إلى balkon لأنها 45%

بداية دبيب الروح في الشارع الضيق الذي يتراص فيه الأوتييل جنباً إلى جنب مع بنايات مكونة من دورين أو ثلاثة، كلها ذات أسطح مائلة من القرميد الأحمر، بعضها مرمم حديثاً، وبعضها حال لونه ويقاد يتفتّت وينهار؛ لكنني ظنت أنني ما زلت بداخل الحلم حين سادت برودة نسمات شقشقة النهار، تخللها زقزقة عصافير وصياح دبوك ونعيق غراب، ثم تفاجأت بها أمامي بحجمها الخرافي، وكأنني انتقلت في غمضة عين من العالم السفلي الأسود، إلى عالم الـ"زينسكيينيلي" الأسطوري الأعلى الذي تسكنه الملائكة والآلهة.

"ساميبا"، أو كنيسة "الثالوث المقدس"، التي قرأت عنها في رحلتي السابقة لـ"تبليسي"، ولم يسمح لي الوقت بزيارتها، تكاد تحتضن بلكوني الصغير بفندق "ميحوتيل"، الذي وضعني فيه "مطبيع" وتركني مثل طفلة لقيطة. ثالث أكبر كنيسة بالعالم كله تدق أجراساً عالية بجوار أذني، مثل جارة حميمة تُقلب الشاي لأسرتها وتلقي على بتحية صباح عابرة من شباكها. وعلى هضبة زرقاء بعيدة يلوح لي تمثال "الأم چورچيا" الذي يحرس المدينة. على الأقل أعرف الآن موعدي بالتحديد إن حاول أحدهم تضليلي. أنا فوق تلة "إيليا" في حي "آفلاباري" التاريخي في "تبليسي" القديمة. لا بد أن ميس "عايدة" كانت لتفتخر بي لأنني ما زلت أتذكر المعلومة التي اختزنتها منذ عامين. ولا بد أن "ثقي" ستتشقّق في لانتقام القدر مثّي حين كُنْت أخيفها بأن حي "ال滴滴 الأحمر" الذي تعيش فيه سُمي هكذا بسبب آثار الدماء التي التصقت بشوارعه بعد مذبحة القلعة.وها أنا أطل من بلكون بناية مجهلة على أرض ممهدة كانت يوماً مقبرة وكنيسة، هدمها السوفيت وأقاموا بدلاً منها حديقة، لكن الأمر الذي تقشعر له الأبدان هو أنه أثناء بناء كنيسة "ساميبا" لاحقاً، لم تُحترم المقبرة، وانتشرت العظام بجوار الجرافات في الساحة الفسيحة جدًا التي أملأ بها عيني الآن.

لا مجال الآن لتسميع دروس الجغرافيا أو لإثبات المهارات في حفظ التاريخ، أو حتى لتخيل القدس الذي جلبني إلى چورچيا،

46% دقيقة مبنية من «تمار..»

وهو يخرج من بوابة الكنيسة ويلوح لي مثل شيخ طيب، يربت على رضيعه باكية على باب مسجد.

أمام مكتب الاستقبال بالفندق، شاهدت وجوهاً كثيرة مألوفة للفتيات الجورچيات اللاتي استقبلنني ليلة أمس. تعرفت إلى "ريموندا" التي استندت إلى ذراعها، وصاحب الفندق المصري الذي عرفت الآن أن اسمه "أمجد"، أو "ميجو"، ويشبهه "شادي عبد الهادي" بشكل مخيف. تقاسيم وجهه، وشعره الفاحم وقميصه الكتان الأبيض. لو كنّت رأيته عن بعد في الطريق لظننته "شادي"، إلا أن "ميجو" يفوح منه عطر ذكري فاخر، ما كان ليستعمله "شادي"، حتى لا يمحو على حد قوله "نكهة المادة الخام لجسد الإنسان".

سلمتني "ريموندا" كارت شحن چورچيا تركه لي "مطبيع" معها لأعاده الاتصال بصاحبة الشقة، وبضعة "لاريهاز" فكّة للتاكسي، وأوصاها بala تتركني أغادر حتى تطمئن أني عثرت على المرأة. سألت "ريموندا" إن كانت تعرف رقم تليفون "مطبيع"، فأجبت بسلامة أن "موتي" موجود دائمًا في مكانه الثابت بجوار مقهى مسرح "ريزو جابريادزة"، ولا يحمل التليفونات ألبتة.





(3)

النَّسْخُ الْأَرْبَعُونَ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَخْصٍ تَقَعُ دَائِمًا مِنْ نَصِيبِي أَنَا لِأَتَعَذَّبُ بِهَا، وَكَأَنْ وَلَعِيَ بِالْتَّفَرُّدِ ذَنْبٌ أَوْ خَطِيئَةٌ تَسْتَوْجِبُ الْعِقَابَ. "تَارَا" صَاحِبَةُ الشَّقَّةِ وَشَقِيقَةُ "أَنْسَتَازِيَا" جَارِتَنَا فِي "الدَّرْبِ الْأَحْمَرِ"، تَشَبَّهُ بِشَدَّةٍ، إِلَّا أَنَّهَا تَكْبِرُهَا بِسَنَوَاتٍ، الْأَمْرُ الَّذِي يُرِبِّكُنِي دَوْمًا إِذَا مَا رَأَيْتُ أَشْقَاءً، وَيَجْعَلُنِي أَعْقَدُ الْمَقَارِنَاتَ عَنْ أَيِّ الشَّبِيهِيْنِ الْأَصْلِيِّيْنِ وَأَيِّهِمَا الْمُكَرَّرُ. وَقَفَتْ "تَارَا" بِظَهَرِ مِنْحِنِّ أَمَامَ الْبَنَاءِيَّةِ رَقْمَ 111 شَارِعَ "آجِمَاشِينِيَّبِيلِي" بِمَلَابِسِ الْبَيْتِ، يَعْتَرِيْهَا إِحْسَاسٌ عَارِمٌ بِالذَّنْبِ لِأَنَّهَا غَلَبَتْ النُّعَاصِ لِمَا تَأْخَرَتْ عَنِ الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ لِوَصْوَلِيِّ لَيْلَةَ أَمْسٍ، فَأَغْلَقَتْ الْأَنْوَارَ وَنَامَتْ. كُلُّ الْأَمْرُورِ تُحِيلُنِي إِلَى أَشْيَاءَ مَكْرَرَةً أَرْدَتْ نَسِيَانَهَا، "أَمْجَدُ" صَاحِبُ فَنْدَقِ "مِيجُوتِيل" يُشَبِّهُ "شَادِيَ عَبْدَ الْهَادِيَّ" ، وَ"تَارَا" الَّتِي تَمَاهَلَ "أَنْسَتَازِيَا" فِي الشَّكْلِ وَنَبْرَةِ الصَّوْتِ. حَتَّى اسْمِيُّ الَّذِي كَانَ يُمِيزُنِي مُثْلِ فَسْتَانِ "هُوتِ كُوتُور" لَمْ يَصْنَعْ مِنْهُ الْمُصَفَّمُ سُوَى قَطْعَةِ وَاحِدَةٍ، أَظْنَهُ هُنَا بِالآلَافِ وَأَبْسَطِ مَثَلِ "تَارَا" نَفْسَهَا، الَّتِي تُدْعَى بِالْأَصْلِ "تَمَارَا". صَرَتْ هُنَا فِي چُورچِيا مُثْلِ زَوْجِيِّ "مُحَمَّدِ الْخَيَّامِيِّ" ، الَّذِي مِنْ فِرْطِ تَدَالِيِّ اسْمِهِ الْأَوَّلِ كَانُوا يَنَادُونَهُ بِ"خَيَّامِيِّ" ، وَكَأَنْ لَا اسْمَ لَهُ سُوَى صَفَّةِ جَدَّ جَدَّهُ. الْأَمْرُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُسَعِّدُنِي حِينَ أَرَاهُ يَتَكَرَّرُ هِيَ الْأَرْقَامُ الَّتِي أَصَادَفُهَا، مُثْلَمَاً كَانَ يَحْدُثُ مَعَ سَاعَةِ الْحَائِطِ الْخَشِيبَةِ الْقَدِيمَةِ فِي بَيْتِنَا بِ"جَارِدَنْ سِيَّتِيِّ" ، الَّتِي كَلَّمَا وَقَعَتْ عَيْنَاهِي عَلَيْهَا وَجَدْتُ السَّاعَةَ 10:10 أَوْ 8:08 وَأَرْقَامَ أَخْرَى كَثِيرَةَ كَتَارِيَخِ مُولَديِّ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ 47% شَهْرٍ سِعَةٍ، وَعِنْهَا مِنْ تَقْمَارِ المشاهداتِ الَّتِي كَانَتْ تُحِيرُنِي، لِأَنَّهُ لَمْ

أعرف لها تفسيرًا. وحين تعمقت في البحث في أسرار الأرقام، تبيّنت أنها رسائل وإشارات من عالم علوي، تطمئنني بأن لي ملائكة حارسًا يرعاني عن بُعد، ويفرد أجنهة لا مرئية ليظلوني بها. ولا بد أنه يطوف بهذه البناءة التي تفألت برقمها 111، وتمسّك بحقي في الإقامة بها، حتى وإن صادفتني العثرات في البداية. سأمكث شهرًا كاملاً بهذه الشقة، سواء قابلت القس في اليوم الأول أم في اليوم الثلاثين. فالروح تحتاج إلى هدنة والجسد يتوق إلى بعض الدلال، بعد أن غادر "چيمي جدو" وطار بعيداً.

سلمتني "تارا" حلقة بها أربعة مفاتيح بأحجام مختلفة، أكبرها يفتح البوابة الخشبية الأنيقة بواجهة العمارة في شارع "آجماشينيبيلي". حاولت أن أخفض صوت لهائي، وأنا أحمل حقائي الثقيلة إلى الدور الثاني، ثم الثالث، حتى أنصت إلى تعليمات "تارا". لا حفلات، لا تدخين، الإبقاء على نظافة الشقة كما تسلّمتها، والتشديد على غلق الأبواب بالمفاتيح الأربع. تفتح "تارا" باباً آخر يفضي إلى دهليز بالدور الثالث يضم شقتين، إحداهما شقة "تارا". لفت في قفلها المفتاح الثالث وهي تشير إليه لكي أحفظه، وأنا أثق أنني في كل مشوار سأجرب المفاتيح الأربع دون جدوى مثل لص مُرتكب. واجهني سلم حلزوني يؤدي إلى الجزء العلوي الذي من المفترض أن يكون مسكنى، ويفتح بالمفتاح الرابع.

تركتنى "تارا" وأناأشعر أنني كالعروس الخشبية الروسية "ماتريوشكا" التي تخرج من بطن عرائس عدة، أو كأنني أغوص في صمت مقبرة عميقه تتوجه إلى أعلى. أحكمت إغلاق الباب بالمفتاح الأصغر وبدأت أتجول في الشقة الصغيرة الفاخرة وأنا أمر سريعاً على كل ركن وأدقق فيه، مثل جاسوسه تتلخص وتجمع بيانات في عجلة.

لم يكن اختيار "أستازيا" لتسكن في باحة "الдорب الأحمر" عبيداً، كما لم يكن ترشيحها لشقة أختها لي من قبيل الصدفة، فبلكون شقة "تبليسي" يطل على باحة نسخة طبقة الأصل من نظيرتها في 182 "الدورب الأحمر". الفارق الوحيد هو أن واجهة عمارة "تبليسي" 47%

تقع في شارع تجاري فخم، واجهات مبانٍ مُرَمَّمة حديثاً، ومطلية بألوان الباستيل الفاتحة، ومزينة بالورود الجصية البيضاء والأعمدة الرومانية.

تبعد في balkon الخشبي الواسع كل المخاوف التي انتابتني أثناء صعود سالم العمارة مع "تارا"، فالرقم 111 كان فقط رقم باب يفضي إلى عشرات العمارت المترابطة كمصلين يأمرهم الإمام بأن يساواوا الصفوف حتى لا يخترقهم الشيطان. لكل بناء أدوار ثلاثة، لكن من فرط التلامس بالعرض، يتلاشى الإحساس بالارتفاع، وتبدو الباحة كقطعة من القماش العريض المفروش كبساط مريح. تمتلئ balkons بنساء يرتدين ملابس النوم القطنية، ويكلمن بعضهن عن بُعد، وينادين أطفالهن وأحفادهن الذين يلعبون في الباحة، لعبات جماعية لها أغانيات يرددون لها اللحن نفسه للعبة "كُلوا باميّة"، لتذكرني برائحة "الويكة" التي كانت تطهوها "أم ديدو" وتشيع نكهتها في بئر السلم.

تمتد أحوال الغسيل بين balkons بعرض الشارع كالشرايين، إلا أنها مزينة بالسرافيل الجينز والتيشيرتات الصغيرة، وملابس حداد ونوم وبشاير زاهية وملاءات وجوارب أطفال. وكعادة الأمهات التقليديات، ينشرن الأصغر فال أكبر في ترتيب مدروس، على الرغم من أن كل شيء مكشوف هنا بعرض الباحة. تتقطع الأحوال وكأنها شبكة اتصالات وجسور رفيعة للتواصل بين أهالي البيوت. يصلح هذا المشهد كتصميم مطبوع على تُورة واسعة أو لوحة سياحية مكتوب عليها "أحب تبليسي". شبكة الخطوط المتداخلة نفسها والمعقدة لمترو الأنفاق في لندن استلهمتها زوجة "أبلرت" ورسمتها في لوحات زيتية، وأقامت بها معرضاً كدليل على الغربة والقبح.

حين تفرّجت على "تبليسي" من التلفزيون منذ عامين، حسدتهم على أسطح رائقة بلا كراكيب. أدركت الآن أن قراميد الأسطح المائلة هي التي منعتهم من تستيف أشيائهم فوقها خوفاً من انزلاقها، فسلم العمارة المقابلة يماثل سلم الخدم الحلزوني، ويفضي إلى "بلكونات" مكتظة بدوابيب التخزين التي تقشر

طلاؤها وحقائب من عهود ماضت، ونمليات قديمة وألواح خشبية مستعملة، وأُضص زرع تشقّقت. إنها تراكمات الحروب التي تجعل البشر يتلمسون الأمان ولو في أطلال خزفية متكسرة، على الرغم من أن أبوابهم مفتوحة وأطفالهم يلهون في الباحة من فرط الأمان.

هذه البناءة تماثلني أنا و"ثقى"؛ واجهة غريبة أنيقة، تفضي إلى باحة خلفية شعبية. أما تلك الجدران الخشبية التي أكلت الرطوبة طلاعها، تُشبه رداء من الدانتيلا أصفر لونه فصار تراثاً، أو كعجز تطل من ملامحها آثار جمال الصبا، فيسرح الآخرون في كيف كان شكلها في الماضي، تماماً مثل تيتيه "نازلي سنجر".

تنشط العصافير وهي عائدة إلى أعشاشها قبيل الغروب. أجرب المقادع الوثيرة والهزة المنتشرة بأرجاء balkon مثل طفلة تلهو، ثم استقر فوق الأريكة الأرجوحة المواجهة لمروج وجبال ملونة تلوح عن بُعد، وتنبثق منها أشجار كأشجار الكريسماس تجاورها قباب وأبراج كنائس وقلاع من العصور الوسطى، على خلفية من لوحة سماوية مرسومة بإبداع إلهي بدرجات الأزرق، ومشربة بحمرة الشفق. انقطت صوراً عديدة للمشهد النادر من خلف شجرة التوت التي ترمي بأغصانها بداخل balkon، وقد نسيت الهدف الأصلي من الإمساك بالتلفيفون قبل دقائق.

يتتصدر اسمه قائمة الأسماء ببريد الإلكتروني، من كثرة ما مررت على رسائله بعيوني ليل نهار.

القس "أندراوس" ..

بعد التحية،

وصلت مساء أمس إلى "تбليسي"، وأقيم في 111 شارع آجماشينيبيلي". أحضرت فردة القرط القديمة والإنجيل، بحسب الاتفاق. رقم تليفوني الجورجي 995558654153 +.

برجاء سرعة الاتصال وإرسال رقم تليفونك وعنوانك.

ولكم جزيل الشكر،

"تمار الشوافيلى":

لم أعنِ الجملة الأخيرة تماماً، فليت القس "أندراوس" يفتح بريده الإلكتروني غداً أو بعد غد، لأنّه أتقطّ أنفاسي بعد عناء الرحلة التي استغرقت يومين يصطحبان بأحداث غير متربطة. أم تراني لا أرغب في إنهاء المهمة سريعاً التي جئت من أجلها، لأنني أستمرّي فكرة البقاء وحيدة وبلا قيود في مكان أليف؟ عجيب أنني أتحدّث الآن عن التشابه بين الأمكنة على كونه ألفة وليس تكراراً رخيصاً مثلماً كُنْت أشعر مع "محمد الخيامي". تهتز الأريكة الأرجوحة فأشعر بالنعاس وأغلق عينيَّ فكأن وجه "محمد الخيامي" وأخيه "أحمد" يحملقان في وجهي ويقتربان مثيًّا بشدة، فتتداخل ملامحهما وتسيح في الغفوة القصيرة التي أفيق منها على صوت انفجار.

مع أول خيوط كل ليلة، تضيء سماء "تبليسي" بنجوم صاحبة، تنطلق كمهرقات متتالية من مسدسات الألعاب النارية، تعقبها شهقات الانبهار برؤية التشكيلات المشعة في السماء، احتفالاً بزفاف العرسان في الكنائس المتناثرة فوق الزبوات. الطلقات التي أفزعني في حفل زفافي على "محمد الخيامي" لم تعقبها نجوم براقة ملونة تتشكل على هيئة ورود ونواير ضوئية في الهواء. فقط طلقات من مسدسات صوت وأسلحة حقيقة في أيدي أقاربهم الريفيين الذين دعوا إلى الزفاف وأرادوا أن يجاملوها على طريقتهم. لم يشعرني بالطمأنينة في تلك اللحظات سوى أن ذراعي كانت لا تزال مشتبكة في ذراع "چيمي جدو"، الذي كان يتلقّس الأمان هو الآخر من تلامحنا، قبل أن يُسلمني بدقاقيع "محمد الخيامي".



(4)

صوت مفروعة في الخامسة صباحاً على صوت رنتين من جرس باب شقة "تбليسي"، وكأنما مطرقة معدنية تدق بجوار أذني. ولما أفقت قليلاً، تذكريت أنها رنة رسائل البريد الإلكتروني على تليفوني المحمول. رأى القس "أندراوس" رسالتني ليلة أمس، وأرسل الرد على الفور، لكنني كذبت عيني حين قرأت محتويات الرسالة. لو لم يكن قسّاً أرثوذكسيّاً وملتزماً كما عرّفني بنفسه، لظننته مخموراً أو معتوهاً. تجاهل الرجل كل توثيري وترقبي

للمقابلة التي ستحمّعني به وتبدا مسار حياتي، وأرسل له قائمه 49% 177

بأسماء أفضل الطهاة الذين يجيدون تقديم الأطباق الجورجية في مطاعم ومقاهٍ بالمدينة القديمة. والأغرب أن هذا الجزء كان على رأس قائمة تتضمن أماكن مقترحة لقضاء الأمسيات مع تناول النبيذ المعتق من مزارع الكروم العريقة. كان بالرسالة أربعة عشر بندًا، كلها مناطق للتنزه والتسوق، حتى إنني شكت في أنني قد وقعت فريسة لإحدى المواقع الإلكترونية السياحية التي تترصد هواة السفر.

بقدر ما كُنْتُ أرغب في أن يتَّأجل لقائي بالقس لبعض الوقت، بقدر ما استفِرَّتني رسالته، فقد منحتني إحساس امرأة كانت ترغب بالطلاق، لكنها شعرت بالمهانة حين بادرها زوجها وتركها، مثلما فاجأني "خيامي" وغادر دون سابق إنذار.

لم يدرِ أحد بخبر طلاقي ولا حتى تيتيه "نازلي"، فقد كان هذا هو سري الكبير مع "چيمي جدو"، بعد أن هددني أنه سيكون فراغاً بيبي وبينه هو أيضاً إن أخبرتها أنه هو الذي ذهب بنفسه إلى "خيامي"، وأقنعني بأن يكون بيننا سراح معروف، وشهد بنفسه على وثيقة إبراء ذمة من كل حقوق الزوجية. أما الجميع فقد تعاملوا معه كأرملة مكلومة حين كُنْتُ أبكي بحرقة بعد تلك الواقعة بساعات قليلة، وأنا أتلَّقَّح بالوشاح الكشمير الأسود وأتلَّقَّ العزاء في "محمد الخيمي".

باغتتني نغزة فرح في القلب لما تذَكَّرتُ أنني أنام الآن في سرير آخر في بلد غريب، وأن هذه هي الليلة الأولى في حياتي التي أقضيها في شقة بمفردي، على الرغم من صولاتي في الأسفار البعيدة والتجوال. كُنْتُ دائمًا إما بصحبة "چيمي جدو" وتيتيه "نازلي" في شقة "جاردن سيتي"، أو نزيلة في فندق، أو بيت شباب، أو شبه زوجة في شقة "محمد الخيمي"، التي شاركتنا فيها والدته، وكانت لها مفاتيح أربعة بعدد إخوته.

أطمئن على المفاتيح الأربع التي سلّمتها لي "تارا"، والتي ستفتح لي المغاليق لكي أتنفس هواءً جديداً في مدينة "تبليسي". لم أهرب كعادتي لأعرف التفاصيل التاريخية الدقيقة لشارع

"آجماشينيبيلي" الذي أقطعه، واستبشرت خيراً بما كُنْت قد قرأته مسبقاً عن آخر ما آل إليه وهو أنه قد رُمِّم وتجدد وصار زاهياً باهياً، بعد أن تبدلت عليه أسماء قواد المستعمرين وخربته الحروب. ثم حمل أخيراً اسمًا تاريخياً للملك "ديفيد آجماشينيبيلي" الذي حَرَّ شعبه فأحبُوه. إلا أنني لم أستطع مقاومة النَّهَم في التلصُّص على الأحداث التي مرَّت علىَّ من عاشوا في الشقة التي تُؤويني من خلال آثارهم، أقصد ما يتناثر حولي ويحمل نفحات من أنفاسهم وعقبهم. تركت روحي تسing في المكان لتعارف وتتألف مع الأرواح الهاeme.

أرتب الفراش على الطريقة نفسها التي وجدته عليها مثلما أمرتني "تارا". اليد التي أعدت تلك الغرفة يد مدربة على التنسيق المحترف كعاملات خدمة الغرف بالفنادق، فقد لفَّت مفرش السرير على هيئة إوزة، ورصَّصت البشاير بحسب المقاس وأولوية الاستخدام في الحمام، لكن بالغرفة طاقة لأمرأة أخرى غير التي رَبَّتها، وكأنها قضت لياتها معي فيها لتحرس مقتنياتها، ومنحتني شعوراً بأنه ليس من حقي أن أفتح الدوّلاب أو أدراج التسريحة الكلاسيكية القديمة. ما أحـس به ليس هوـساً يلبـسني بسبب مشاركة والدة "محمد الخـيامي" وإخـوته معظم تفاصـيل حـياتـنا، وجـعلـنـي أصـابـ بـعـقـدـةـ أـنـنـيـ لـسـتـ الحـاكـمـةـ الـأـمـرـةـ فـيـ بيـتـيـ. الرـوـحـ التيـ تـهـيـمـ عـلـىـ الغـرـفـةـ تـشـهـنـيـ أـنـاـ؛ـ فـقـدـ لـامـسـتـهاـ حـيـنـ نـظـرـتـ فـيـ صـورـةـ المـرـأـةـ المـطـبـوـعـةـ عـلـىـ اللـوـحـةـ الـقـمـاشـ الـمـوـاجـهـ لـلـفـرـاشـ،ـ وـكـانـنـيـ أـنـظـرـ فـيـ مـرـأـةـ. قـطـعـةـ الـقـمـاشـ الـمـعـلـقـةـ عـلـىـ الـحـائـطـ مـطـبـوـعـ عـلـيـهاـ كـوـلـاجـ لـشـابـةـ تـرـتـديـ زـيـاًـ تـارـيـخـيـاًـ كـأـزيـاءـ نـسـاءـ الـمـمـالـيـكـ. تـجـلـسـ بـأـرـتـيـاحـ وـتـرـفـعـ ذـرـاعـاـ وـتـبـسـطـ يـدـاـ وـكـانـنـاـ تـهـمـ بـاحـتـضـانـ رـجـلـ،ـ إـلـاـ أـنـهـ تـضـعـ سـاقـاـ فـوـقـ السـاقـ كـحـرـكـةـ لـأـ شـعـورـيـةـ تـعـبـيـرـاـ عـنـ الـانـغـلـاقـ الـعـاطـفـيـ. أـكـادـ أـسـمـعـهاـ تـهـمـسـ:ـ "أـنـاـ أـحـبـ الـحـيـاةـ وـأـتـوـقـ لـاـحـتـضـانـهاـ؛ـ لـكـنـنـيـ لـنـ أـمـنـحـهاـ جـسـديـ كـامـلاـ،ـ وـهـوـ نـفـسـهـ مـاـ كـنـثـ أـفـعـلـهـ مـعـ "مـحـمـدـ الـخـيـاميـ"،ـ كـالـعـاهـراتـ الـشـرـيفـاتـ الـلـاتـيـ يـمـنـحـنـ كـلـ الـجـسـدـ إـلـاـ الـفـمـ،ـ الـذـيـ يـسـتـبـقـيـنـهـ لـلـحـبـبـ الـذـيـ يـسـكـنـ الـقـلـبـ.

تدرّبت على عدّة سيناريوهات أواجه بها أسئلة الفضوليين الذين لن يهدأ لهم بال إلا إذا عرفوا سبب الطلاق، وأولهم تيتيه "نازلي". جهزت قائمة بالحجج التقليدية التي يتداولها الناس بأنه عصبي، أو غيور، أو ضعيف، أو بخيل، ثم قررت أن أرد بكلمة واحدة: "نصيب". كلمة سحرية تُسكت الأفواه أمام الإرادة الإلهية، وتجيب على لا منطق كثير من الأشياء، وأبرزها سبب موافقتي على الزيجة بالأساس.

لا يدفع الفضول أحداً لمعرفة أسباب القبول بالزيجات، خاصة التي تبدو متكافئة. ولو عرف أحد بالحوارات الذي دارت بيني وبين "چيمي جدو" ليقنعني بالزواج من "خيامي"، لرمانا فوراً بالجنون، أو لرددوا جملة تيتيه "نازلي" كلما رفضت عريساً:

- لأ، ده أنتِ عايزة عريس تفصيل!

والمشكلة أن "خيامي" كان "جاهازاً"، أو بمعنى أدق يمتلك مصنعاً للملابس الجاهزة لزي عمال المصانع والسكك الحديدية وأفراد الأمن والبدل العسكرية. ملابس متكررة لا تتغير أو تتطور بمرور الزمن، بل تبلى وتتشيخ مع مرتدتها وتذهب إلى زوال. كان هذا أحد تحفظاتي على مهنة "خيامي"، الذي ورث المصنع عن أبيه، ويورد بعضاً من القمصان والسراوييل السادة لمحل "چيمي جدو". الغريب حقاً هو وسيلة إقناع "چيمي جدو" لي حين عرف كيف يلعب على وتر امرأة مهووسة بالتاريخ والموضة معاً. كان "چيمي جدو" يكن تقديرًا لـ"محمد الخيمي"، ويمتدحه بصفتي "رجل، وطيب". وهما من الصفات التي كنّت آنذاك أعتبرها تسميات مائعة، نبرر بها محاولات تقبلنا لأشخاص بعينهم، حين لا نجد فيهم ما يستحق الانبهار. استغل "چيمي جدو" ولعي بالوشاحات الكشمير الدافئة الناعمة، وعشقي للدانتيل الأنثوي الرقيق، وحكي لي أن "كوكو شانيل" اشتربت مصنعاً تم تأسيسه من مائة وأربعين عاماً للملابس المصنوعة من الصوف للجيش البريطاني في الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين. وفي خمسينيات القرن الماضي، باتت من أهم منتجي الكشمير المعتمدين في دور

الخياطة الكبرى من لفظ "چيمي جدو" تبدل حالى ونظرتى التي 50%

هامت بعيداً مع جنود الحروب العالمية، وقصص حبهم الخالدة التي نشاهدها في الأفلام الأجنبية، فضرب ضربته الكبرى بأن ذكر الدانتيل، فرق قلبي وهفا إلى زهرات وردية وببيضاء مفرغة ومنسوجة بعاطفة أنثوية.

- عارفة إن مصطلح الدانتيل ده قبل القرن السّتّاشر كانوا بيقولوه على إيه؟ ع الشريط المضفر اللي بيزيّن الزي العسكري.

وقبل أن يستفيض جدوأو يعيـد إلى الرّف كتاب "تاريخ الدانتيل" النادر الذي اقتناه من مزاد، كُنـث قد وافقت على الخطوبة وكتب الكتاب.



(5)



لم أندم لأنني جئت إلى "تبليسي" وأنا أكددس حقيبتي بعشرات الأطقم الأنiqueة وملابس الرياضة والتنزه والسهرة، وشال "الباشمينا" المحبب، على الرغم من أننيأتيت من أجل هدف آخر. فلقد أثبتت لي الحياة مقوله أن الأماكن تفقد سحرها، إن لم تكن ترتدي ما يليق بها، ويخذلك الأشخاص أيضًا إن لم يضعوا ملابس على قدر الحدث. في الليلة الأولى لزواجهنا، والتي كانت شتوية قارسة، ارتدى "خيامي" بيجامة كستور مقلمة قديمة. ظننته في البداية يقدم لي فقرة ضاحكة، واستعددت لأن أراه يخلع الچاكيت ويفاجئني بثوب مغوي من الحرير الطبيعي أو بيجامة ماركة "بيير كاردان"؛ لكنه سحبني من يدي ودلفنا إلى الفراش، وفكك أزرار السترة الخشنة على جسد عاري غير مُتناسق، وظل خشب المدفأة يقطقق حتى الصباح. وفي فيلا المصيف التي تمتلكها أسرته، كُنت أشعر أنني حبيسة البراح لأنني لم أكن أشاهد سوى ذفنه التي لا يحلقها احتفاء بالإجازة، والجلاليب التي ترتديها إخوته وزوجات إخوته من باب الراحة الصيفية والخشمة، ولم يكن لائقًا ألا أجاري أصول الملبس في المكان وأخرج من غرفة نومي بأزياء أقل التزاماً.

تغويك بأن تجذبها وتلفها حول وسطك وتشبكها بدبوس ذهبي
وخرج فخوراً بما ترتديه، وكذلك ستائر البيت ذات الورود
البهيجية، ومنسوجات الـ"ماندالا" المعلقة بأشكال دوائر متداخلة
لزوم التأمل والاسترخاء، تدعوني كلها بأن أجذبها وأفضل منها
تنورات واسعة أو قصيرة على موضة الستينيات، أو أربطها حول
رقبتي كالـ"كاش مايوه".

تدب في الباحة روح الصباح بأصوات أوانى الطهي المعدنية،
وأعمال النجارة وضجيج الشنيور، والأسماء الجورجية للأطفال
الذين تناديهما أمهاطهم أو جداتهم. أسماء كلها دلال ولدونة
تترافق في وسطها وآخرها حروف المد.. "تاتا"، و"نيكو"، و"زارا"،
و"نيبو"، وتليق بأبجديتهم المرسومة على شكل ورد وقلوب،
بعكس باقي المفردات والكلمات الجورجية القليلة التي عرفتها،
وتتخللها الخاء كثيراً، فتجعلها خشنة وصلبة، كصلابة الأخشاب
التي قرر أن يستوردها "خيامي"، ليُعوض الكساد الذي بدأ يحل
على مصنع الأزياء العسكرية. تحول "خيامي" في تلك الفترة إلى
لوح خشبي عريض، كتلة صلبة لا تلين إلا حين تتفتت أو تحرق.
كانت الألواح التي في المصنع الجديد تقذف على الأرض، محدثة
جلبة مخيفة يصاحبها زعيق "خيامي" في العمال، الذي لم يعد
يفرق بيني وبينهم ويجلب صياحه معه إلى البيت، على الرغم من
وجود أمه وإخوته. صحوت فجراً ذات يوم على صوت خبط
الأدراج التي نرصص فيها جوارب "خيامي"، لأجد أنه قد بعثر
بأنحاء الغرفة فرداً فرداً الجوارب التي ابتلعت الغسالة الكهربائية
فردتها الأخرى، وتركني أململها، ونصحني بأن أحافظ بها لنفسي،
ساخراً منرأيي بأن قيمة الأشياء تأتي من تفرّدها. لم يكن
"خيامي" يشعُّ دفناً إلا حين يشتعل رغبة ويهترق تماماً ويذوب
في نصف الساعة الذي تعقب جذبه لي من معصمي إلى الفراش،
ويعود بعدها كما ولدته أمه طفلاً بريئاً نقىًّا. تلك الدقايق من
الاشتعال التي كان يعقبها هدوء نسبي لم تكن تنسيني صخب
وصلادة الألواح التي كنت أراها ثُقذف بقسوة في المصنع وتئنُّ
تحت جسدي وتجعلني مُحملة بالذنب؛ فهي عالم الأزياء الذي
أنهى إلية، لا يمكن تأمينه... تكون القماشة ناعمة وخشنّة في الوقت 51

نفسه، أو لونها فاتح وداكن، أو شفافة ومعتمة معًا مثل "خيامي".

أذوب في شارع "آجماشينيبيلي" بمحلاه العصرية وأرضيته الحجرية النظيفة التي تشعرك برغبة في السير في وسط الطريق، وعلى الرغم من مرور السيارات، فإن أكثر ما يلفتني هو كم اللوحات الزجاجية خارج محلات الصرافة التي تتبدل عليها الأرقام الحمراء بأسعار تحويل العملات، وكأنك في ساحة مضاربة للبورصة، وتنشر حولها أسر الشحاذين بطبقات من الملابس الرثّة، وهم يستجدون قرشاً أو لقمة. يحيرني أمر البلاد التي تبيع طعاماً شعبياً شهياً ورخيصاً، ويشير شحاذوها إلى أفواههم باستعطاف كدليل على عوز الطعام. يداهمني الجوع فأستقر على منضدة لفرد واحد في مقهى فرنسي بأول الشارع، وأطلب قهوة أمريكية وفطيرة "خاتشابوري" من الحجم الصغير، فهي تكفي لأن تُشبع ثلاثة أفراد وتجعلهم يندمون على ما التهمونه من أنواع الجبن السميك السائحة بداخل العجين الساخن.

لم أتوقع حدوث الحمل بالسنة الأولى من الزواج، واعتبرت أن امتلاء بطني ما هو إلا زيادة مؤقتة في الوزن، وفرصة لتصميم ملابس واسعة وأنيقة مثل تصميمات "بالينسياجا"، التي كانت تداعب "چيمي جدو" في أحلام يقظته، وكان يقول إن الناس تصبُّ كل اهتمامها على ثوب الزفاف الأبيض الذي يحتفلون فيه لساعات قليلة، ولا يُبالون بالأشهر التسعة التي تليه. كُنْت في تلك الفترة قد بدأت عملي مصممة في مصنع صغير للملابس المتميزة، إلا أنني كلما أمسكت بالقلم وواجهت كرَّاسة الإسكتش، يتلوّث خيالي بالنشاز اللوني الذي يدخل ويخرج من البيت في سلاسة على أجسام أقارب وقربيات "خيامي"، فيكون بياض الصفحات الخاوية بحجة أن الإلهام لم يأتي، أهون من رسم القبح المحض الذي يتجلو في خيالي.

شيء محرج أن تذهب إلى مناسبة ما وتتجد أحداً يرتدي مثل ثوبك، فما بالك أن تأتي إلى الدنيا وتتجد شخصاً يرتدي شكلك؟
هكذا أفتحت عقلي ملاظها، المفاجئ لـ"أحمد" شقيق "محمد"، الذي

ينادونه بـ"خيامي" هو أيضًا. لم يشاهد "أحمد" خطبتنا ولا حضر زفافنا؛ لأنه بحسب قولهم كان على خلاف مع الكفيل صاحب المؤسسة التي يعمل بها في السعودية. كان "أحمد" و"محمد" كوجهي شال "الدورانجا - دوروكا"، الذي لا يمكن تمييز الوجه الصحيح له بسهولة، حيث يحمل أحد الوجهين تصميمًا موجودًا أيضًا على الوجه الآخر، ولكن بلون مختلف. كان لون "أحمد خيامي" باهتًا وكابيًا مثل خنوعه وعدم تناسق هندامه ومسحة العجز ومرمطة الغربة التي رسمت حالات سوداء وخطوط زمن شوهرت وجهه، أو بالأحرى شوهرت لي الملامح الشابة لـ"محمد خيامي". فيما له من ملامح تكاد تطابق أخيه الأكبر، لم أكن لأتجاهل نظرات البلاهة والل肯ة الريفية وبهدلة الثياب وفساد الذوق وسنوات عمر "أحمد" التي صارت مقبحة لوجه زوجي. نصحني "چيمي جدو" في بداية زواجي أن أقف أمام المرأة وأنظر إلى نفسي من كل الزوايا، وأنتقي الفستان الذي يداري العيوب لكي أكون زوجة تُشَرِّف زوجها؛ لكنني كنت أرغب بشدة بعد ظهور "أحمد" أن أعمل بنصيحة "كوكو شانيل" وهي أنه على المرأة أن تنظر في مرآتها مليًا قبل الخروج من البيت، وتخلع قطعة من الإكسسوار الذي ترتديه، وكان ما يحيرني أيهما أجدر بالخلع، "أحمد" أم "محمد"؟

صرخت بعصبية أثناء محاولات الولادة، ليس من فرط الألم مثلما تفعل النساء في الأفلام، بل من كثرة عدد أفراد أقارب "محمد" المُلتَقِّين حولي والأعين المتشابهة المُحملقة فيَّ، والممرضات والأطباء الذين يطبقون على نفسي بزيهم الأبيض المتكرر. سمعت كلمات مثل مفيش نبض، وجهاز التنفس، وهنعمل صدمات للقلب، ثم لم أعد أسمع سوى صوت كحيف سيارة مسرعة تحملني في نفق كأنه مظلم؛ لكنني كنت أرى وجوهًا مليحة لأناس لا أعرفهم وأفسر ملامحهم بوضوح شديد. كانوا ينظرون لي في حياد وأنا أنزلق بسرعة بداخل النفق، وحين شعرت بأنني أكاد أسقط، لمع برق خفي وهمس أحدهم في أذني وكأنما ينصحني قائلًا "تسعشاشر"، ثم سمعت شهيقي وعدت للأصوات المألوفة

- حمدًا لله على السلامة.. البيبي يتغَّض.. المهم سلامتك.

كان أول ما لمحته لحظة الإفاقه هو 19 في الساعة الرقمية المواجهة لفراشي، وتصادف اليوم الذي تحدد لرحلة النقاوه التي كان سيرافقني فيها "خيامي" إلى "وادي الريان" مع يوم 19/9. كانت ليلة قمراء بها لسعة برودة فتلحفت بشال "الباشمينا" الكشمير الذي يبُث دفَّنا ناعمًا دون أن يخدش جلدي. كُنْت قد غسلته برفق بالشامبو قبل هذه الرحلة بيومين فقط، ونزلت نصيًّا من التريقة من "آل خيامي"، لا تدل سوى على جهل بتصوف الكشمير الأصلي الذي يتطلب صناعة شال واحد منه أربع سنوات لكي يطول شعر الماعز الهيمالايا، الذي يفوق جودة شعر الإنسان بستة أضعاف. لم يكونوا ليفهموا سوى لغة الأرقام؛ لكنني حين أخبرتهم أنني قد دفعت فيه ستمائة دولار، صرخوا دفعه واحدة وتحسروا على حظ أخيهم العسر، الذي أوقعه في سفيهه مثلي. أناس كلما أتت سيرة كلبي "چاكويت" أمامهم يسألونني متى سنقوم بتسربيه، ليس لهم أن يفهموا أن هذا الشال لا يعوضني اشتياقي لنعومة فراء كلبي "چاكويت" فحسب؛ بل يحل محل حضن كان يجب أن يمنحه لي أخوه الذي لا اسم له، لأن ملوك الموضة يقولون إن أفضل شال تتدثر به المرأة هو ذراع رجل تحبه.

صعدنا تلًا صخرية أنا و"خيامي" على ضوء القمر وأنوار التليفونات المحمولة مع فوج رحلة "وادي الريان". كنا نشبه أهالي القرى الريفية الذين يحملون المشاعل ليلاً، وهم يعتزمون على أمر جلل؛ لكننا كنا فقط نتوق إلى قليل من الفرح الذي تمنحه روح المغامرة. استقررنا بجوار كهف، ورمى الشباب أحشائًا كثيرة وأشعلوا بها النار للتدفئة، وأخذوا يدندنون بأغانيات بدائية، أعادتنـي لـزمن رـحلـات المـدرـسـة وـحـفلـات السـمـرـ بالـنـادـي مع "فـاديـ أـبـاطـةـ". اقتـرـحـ أحـدـهـمـ لـعـبـةـ أـنـ تـغـمـيـ ثـلـاثـ نـسـاءـ أـعـيـنـهـنـ، وـيـضـعنـ أـمـامـهـنـ ثـلـاثـةـ رـجـالـ، وـعـلـىـ كـلـ وـاحـدـةـ أـنـ تـتـعـرـفـ بـإـحـسـاسـهـاـ عـلـىـ زـوـجـهـاـ. وـضـعـواـ ضـمـادـةـ عـلـىـ عـيـنـيـ، وـأـخـذـواـ أـتـحـسـسـ شـعـرـ وـأـذـنـيـ وـذـرـاعـيـ الرـجـالـ ثـلـاثـةـ. لـمـ أـتـعـرـفـ عـلـىـ "ـخـيـامـيـ"ـ، فـأـعـدـتـ

المحاولة. تآلفت أنا ملي ووبرة ناعمة من كوفية من الكشمير المخلوط بالحرير وتمسكت بها. الكشمير الذي لعب "چيمي جدو" على ولعي به، لأنه قديم قدم حضارات بابل، وآشور، والتبت، وأقنعني بأنه يمت بصلة ما لعائلة "خيامي". تشبّثت بالكوفية الناعمة حين رأيت في أذني المقوله بأن الرجل لا يمكن أن يكون غاية في الأناقة من دون لمسة أنوثية، وقلت بثقة وسط تهليل شباب الرحلة وتصفيقهم:

- هو ده جوزي.

لم يكن "محمد خيامي" هو صاحب الكوفية، وخسرت في اللعبة، لكنني سمعت صدى آتياً من خلف صخرة يهمس في أذني للمرأة الثانية بكلمة "تسعاتاشر"، وقد كانت هذه هي بداية شغفي بفك أسرار الأرقام. فتّشت عن سر الرقم تسعة عشر. يقترن هذا الرقم بأشخاص ممتّصين بداخل أنفسهم ويقومون بأمور غير عادية. يدل الرقم تسعة عشر على أن العلاقة التي أنت بداخلها قد استنفذت أغراضها، وأن هناك باباً لا بد أن يغلق، ليُفتح باب جديد.

ما كان يمكن لأحد سوى "چيمي جدو" أن يتفهم قراري بطلب الطلاق من "خيامي" لأنني فشلت في تمييزه وأنا مغمضة العينين في لعبة ما، أو لأنني أخطأت في التعرف على ملمس ثيابه. فـ"جمال الشوافيلي" فقط هو من يعرف أن الحياة كدنيا الأزياء، بها تصميمات جيدة تقبل التطوير وتستمر طويلاً كموضوع وأسلوب مُتبّع، وهناك أفكار سطحية تأخذ فترة قصيرة ثم تختفي مثل التقليعة. العجيب أنه بعد ساعات من الزيارة التي قام بها "چيمي جدو" لمخزن الأخشاب للاتفاق على الطلاق من "خيامي"، ذهب إلى المكان نفسه أحد معارف أخيه، لتحصيل بعض الأموال التي افترضها منه "أحمد" ولم يردها.

دخل الرجل ثائراً على "محمد الخيامي"، وقد أعماه الغضب عن ملاحظة الفروق الطفيفة بين وجهيهما، ولما أقسم له أنه ليس "أحمد" أخيه، ظنه يتهرب من سداد الدين، ودفعه بقوة نحو

فمات غدراً في حادث تشابه.

طلبت من الجرسون أن يلْفَ لي ما تبَقَّى من قطعة "الخاتسابوري"، بعد أن عرفت أن سعرها في المقهى الفرنسي يساوي تسعه لاري، بينما تباع ساخنة وشهية بLarry ونصف الLarry في الفرن المقابل للبيت. أحكمت شال "الباشمينا" الأكاسي ذي المستمائة دولار حول ذراعي، وشعرت بالزهو لأنه من النوع الأرقي الذي ينسج له وجه واحد فقط. قطعت شارع "آجماشينيبيلي" سيرًا على الأقدام متوجهة إلى آخره من الناحية الأخرى، حتى أوفر أربعة لاري ثمن التاكسي.



(6)



لم أندم للحظة لأنني تنازلت عن حقوقني كافية، ولم أرث "محمد الخيامي"، فالناس يحق لهم أن يرثوا أشكال وطبعاً من يحبونهم فقط، وكذلك أموالهم بعد وفاتهم. لكن هذا لم يمنع أن طريقة موت "خيامي" المأساوية قد أرشدتني إلى ثروة أخرى حصلت عليها بفضل "أليبرت".

المَرْأَةُ الْأُولَى الَّتِي رَأَيْتُ فِيهَا "أَلِيَّبْرَتْ" فِي "الدُّرْبِ الْأَحْمَرِ" كَانَتْ مِنْذُ حَوَالِي أَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ. سَمِعْتُ صَوْتَهُ فِي بَئْرِ السَّلْمِ، شَعِرْتُ أَنِّي اَنْتَقَلَتِ إِلَى حَصَّةِ الْلُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ بِالصَّفَّ الْأَوَّلِ الثَّانِيِّ، فَقَدْ ظَنَنْتُهُ بِالْفَعْلِ مَسْتَرْ "جُونْزْ" مَدْرِسَ اللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ. كُنْتُ أَغْمُضُ عَيْنِيَّ فِي الْفَصْلِ لَكِي أَسْمَحَ لِخِيَالِي بِتَصْوِيرِ كُلِّ الْمَشَاهِدِ الَّتِي يُشَرِّحُهَا مَسْتَرْ "جُونْزْ" بِأَدَائِهِ الدَّرَامِيِّ فِي رُوَايَةِ "زَهْورُ لِلْسَّيْدَةِ هَارِيِّسْ". لَمْ أَكُنْ مُّولَعَةً بِالْأَدَبِ الإِنْجِلِيزِيِّ؛ بَلْ بِحَكَايَةِ الْفَسْتَانِ الْفَاخِرِ مَارْكَةِ "كَرِيسْتِيَّانُ دِيُورْ" الَّتِي تَسْعَى الْخَادِمَةُ الْفَقِيرَةُ الْعَجُوزُ بِطَلَةُ الْقَصَّةِ أَنْ تَقْتَنِيهِ، وَقَدْ وَقَعْتُ عَيْنَاها عَلَى فَسْتَانِ "دِيُورْ" ذِي الْوَرَودِ الزَّاهِيَّةِ فِي دُولَابِ سِيدَتِهَا فِي لَندَنْ. لَمْ تَنْمِ 53% لِلْيَوْمِ مِنْذَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقَرَرْتُ أَنْ تَسْتَغْنِيَ عَنِ التَّدْخِينِ وَالسِّيْنِينَ،

وأن تشتغل بأعمال إضافية وتدخل في مراهنات وتقامر لتحصل على الثمن الباهظ للفستان، وتذهب لشرائه من بيت أزياء "ديور" في باريس بعد عامين كاملين من المعاناة. وهناك تصادفها العثرات أيضًا... وتتوالى الأحداث.

كان قد مرّ على وفاة "خيامي" حوالي ثلاثة أشهر، وكنت قد قرّرت في ذلك اليوم أن أجرب تطبيق قوانين الموضة على حياتي، علّها تفيد في التغلب على آثار حدثين عظيمين أحدثا وجعًا مثل خبطتين في الرأس؛ الطلاق والترمل. والنظريات تقول: "اضغطي دولبك.." "الموضة هي فن الان.." "لا تحتفظي بفستان كان يجلب لك صفات الإعجاب في الماضي، فقد يتحول الإعجاب إلى تريقة، بعد أن زاد وزنك، أو كبر عمرك". اعتبرت حكاياتي الأليمة القصيرة مع "خيامي" مجرد فساتين ذهبت موضتها وتزحم الدولاب وتكرمش الملابس الأخرى التي تليق بي وتناسبني في اللحظة الآنية.

كان يومًا خريفياً يحثّ على التأقّل والخروج، فارتديت فستانًا أسود "شانيل" محبوّغاً على تفاصيل جسدي، الذي صار متناسقاً جدًا بعد أن قام الحزن بفضيلته الأجمل للنساء؛ تخفيض الوزن. ما كان يناسب هذا الرداء سوى حذائي الأسود "الكريستيان لوبيوتان" ذي الكعب العالي الرفيع، والنعل الأحمر الذي يجعل لكل خطوة سحرًا بلون الغواية. تخدع نفسها من تقول إنها ترتدي الملابس الجميلة لإرضاء جسدها هي فحسب. قد يكون هذا صحيحاً في الدقيقة الأولى التي تتأمل فيها أناقتها في مراتها، لكنها في الدقيقة التالية تفكّر في وقع هذا المشهد على وجوه الآخرين، رجالًا كانوا أم نساءً. لطالما هرعت إلى حفلات في النادي كان سيحضرها "فادي أباطة"، لمجرد أن أفرّجه على بلوزة جديدة. وكثيراً ما تنازلت عن غضبات صغيرة منه، ورضخت لطلبه بمقابلتي لأنني أكون قد اشتريت فستانًا للثُّوّ مصادفة، وكانت أتلّهف على أن يرانني به.

كان بيني وبين "ضيا" وعد مؤجل منذ شهور، بأن نتقابل لتناول العشاء أو مالقهوّة في مكان هادئ، حيث يمكننا أن نتحدث مثل

53%

ذى قبل، دون أن تقاطعنا الزبونات الالاتي يدخلن دگانه، أو يضطر لتركي بالداخل ويخرج لمحاسبة الموردين، أو للشجار مع الصناعية. قررت عمل مفاجأة لـ"ضيا"، فركبت التاكسي، ومررت عليه في الدگان، فقيل لي إنه في شقة الفنانين عند "أنستازيا" في "الدرب الأحمر"، فلم تضعف همتى، وانطلقت إلى الدرج. رفض سائق التاكسي أن يدخل شارع "أبو حريبة" الضيق، فاضطررت للسير بالكعب المدبب ذي الاثني عشر سنتيمترًا فوق المدق الترابي، وكأنني عارضة أزياء مبتدئة تحاول ضبط توازنها على الـ"ران واي". واتتني فكرة أن أمرّ على "تقى"، فربما وجدتها وسلّمت عليها، وحتمًا سأجد عندها حذاء مُفلطحاً يهدئ قدميَّ اللتين اعتصرتهما الأنقة المفرطة. كانت شقة "باتريك" مررم الآثار الإنجليزي مفتوحة بالدور الأرضي، فناداني وأخبرني أن لا أحد بشقة "تقى" منذ شهور، ودعاني للاحتفال معهم بعيد ميلاد صديقه "أبرت"، مراسل قسم الترحال والسفر في الـ"بي بي سي".

توقف "أبرت" فجأة عن الحكاية التي كان يسردها بطريقة مسرحية على المُلتفين حوله وتعلقُ أنظارهم به بشغف، وأخذ يتأمل وجهي ثم جسدي ثم ساقيه فتوثّر قليلاً. ولما نزل ببصره إلى قدمي ووقف كثيراً عند حذائي "الكريستيان لوبوتان"، ظننته كالرجال الذين لديهم عقد نفسية ويعشقون أقدام النساء، لكنني تفاجأت بأنه يكتم الضحك من احمرار وجهه، ونفرة عروق جبهته، ثم انفجر في نوبة قهقهة، وهو يشير إلى المدق الترابي، ثم إلى حذائي مثل بندول ساعة، ولو لا أن اقترب مني وطلب أمام كل الحاضرين أن أصير ملهمته في مشروع تصوير المعالم الأثرية، لشعرت بالإهانة البالغة من سخريته من طريقة ملبي. إلا أنني ما كنت لأسترداد كرامتي كاملة إلا أن بعد أن أظهره كجاهل أمام أصدقائه، فقلت بصوت مرتفع كطفل يثبت براءته:

- على فكرة موضة الكعب العالي اخترupoها الفرنساوبيين، عشان كانت بتلّم تراب وقادورات أقل من الشارع، ومش بتتوسّخ طرف الجيبة زي الجزم الواطية.

أقطع شارع "أجهازيبيلى" حتى منتصفه، وأتوقف عند محل 54%

يسمى "صنع في تبليسي" بجوار العمارة التي أسكنها، كلما لمحته وجدته مغلقاً، أو على ما يبدو أنها إجازتهم السنوية. تبدو الواجهة بطلائهما التقليدي كمحلات حقبة الستينيات، وتشبه الفساتين الكتان و"الترجال" الواسعة المعروضة فيه الموديلات الأنثقة الفضفاضة التي كان يرسمها "چيمي جدو"، أو تصاميم موديل "الشوال" لـ"بالينسياجا". تصلح هذه التصاميم المرحة لامرأة في ظروفي، تقدر الملابس الأنثوية ذات الحليات والقصات، لكنها قد التهمت تؤناً نصف فطيرة "خاتشابوري" تصلح لثلاثة أفراد وهي تتسلّك على الفاتريnas، ولا تشعر بالندم. حمدت الله لأن المحل مغلق؛ لأنه لو كان مفتوحاً لضحيت بسبعين لاري "بعد الخصم"، واشترت الفستان النبيذى اللون الذى أشتاهيه، وأخشى أن أندم إن أصابتني حمى الشراء، وقد قسمت المبلغ المحدود الذى أتيت به، على عدد الأيام التي سأقضيها في تبليسي".

ظننت أن "ألبرت" كان يُراضيني حين عرض عليَّ أن أصبح "موديل" لصوره، كنوع من الاعتذار عن وقادته، لكنه طلب من "باتريك" أن يحضر لي حذاء رياضياً مُريحاً من أحذية زوجته لأننا سنبدأ العمل فوراً. أمران كانا يشعرانني بالدُّوار حين أتخيل أنني سأضطر للعمل بهما؛ الأول أن أصير "موديل" في عروض الأزياء، بمقاييس جسدي، التي على الرغم من تناسقها، لا تمثل بصلة لنحافة وطول قامة العارضات. والثاني هو أن أظهر في آخر العرض المصمم مجموعة الأزياء التي سترتديها العارضات الرشيقات، فأبدو أقل جودة من الكائنات التي صنعتها وصُفِّق لها المُتفرّجون على الـ"ران واي". راقت لي فكرة أن أصبح "موديل" افتراضية على الورق؛ لكن "ألبرت" الذي ظننته مُعجبًا بهيئتي كاملة قال لي إنني سأكون شريكته في مشروعه الفني بالوجه فقط، ثم أضاف هامساً:

- على الرغم من أن الكعب الرفيع الذي اخترعه الفرنسيون لتحاشي قاذورات الطريق في شارع "أبو حريبة"، يجعل ساق من ترتديه انسانية وجميلة.

كان "ألبرت" يهدف إلى أن يثبت إحدى فضائل الترحال، وهي كيف يجعلك السفر متواضعًا حين تكتشف كم تحتل مكانًا ضئيلًا جدًا على خريطة الكون، وكان يريد وجهاً للتصوير يتألف مع كل المعالم الكبرى. قال لي إن وجهي يصلح شمال أفريقي، وعربي، وأسيوي، به مسحة بحر متوسطية. وقد كان هذا هو ما كتبه في خطاب التزكية لبيت أزياء في لندن يعرض ملابس الشعوب. مَسَّ "ألبرت" رغبة في أن أرى كم تصبح مشكلاتي الشخصية تافهة، لو ظهرت بوجهي في صورة، وفي الخلفية معالم أثرية تصطحب بأحداث دامية وبطولات وهزائم غيرت مجرى التاريخ.

استفِرْتني مهارة "ألبرت" الذي كلما اقتربت عليه موقعاً للتصوير، أجده قد ذهب إليه ويحفظ تاريخه أفضل من "المقريري"، و"الجبرتي"، فقررت أن أبهره بأماكن من تاريخي الشخصي. ذهبت به إلى دُكَان "ضيا" الذي لا تزيد مساحته على غرفة صغيرة، لكنه انطلق منه إلى آفاق جمالية وتاريخية وقبلية لم يكن ليحلم بها. لم يكن بال محل ما يسمى الحوائط، فقد كانت مُغطّاة بجلاليب بنقوشات فاقعة، أو مطرزة بخرز ملون وملاليم ذهبية وغرز من "سيناء"، و"سيوة"، و"فلسطين"، وطارد للأشباح وزينة للجمال وبراقع مشغولة بفضة يمنية، وأفغانية، وتركية. كان "ضيا" نفسه حكاية، بملامحه الغربية وملابس "البمبولي" التي كان يرتديها في هذا اليوم. ثم حدثت جلبة خارج الدُكَان لنجد "ضيا" يقول لمساعده "سامبو" إنه لا يثق بقسمه، لأنه "بتاع عفاريت". ولما هدأت المعركة الصغيرة، عرفنا حكاية "عم سامبو" الأسمر ذي الطاقيّة الأفريقيّة متعددة الألوان، والذي يجلس واضعًا ساقًا فوق الساق يطرز الأحزمة العريضة بمزاج رائق على قارعة الطريق.

كان "سامبو" يعمل في شبابه في محل جد "ضيا" ترزي قفاطين. وكان يحمل "ضيا" على كتفه وهو صغير. وبعد مرور زمن طويل، كان "سامبو" يسير أمام الدُكَان يائساً من الحياة وتمللّه رغبة في الانتحار، فقابل "ضيا"، وتغيّرت حياته بالكامل وعاد للعمل بالحياة، بعد أن كان يعمل في قراءة الطالع وفك الأعمال

والسحر الأسود. لم تكن هذه هي الحكاية الأغرب، بل العالم الذي أخذنا إليه "سامبو" في حوش الفجر في سور مجرى العيون. ألبسنا "ألبرت" جلباباً من عند "ضيا"، وارتديت أنا ملساً صعيدياً، ودخل بنا "سامبو" دنيا الغجر المحظورة على الأغرباء، بصفتنا ضيوفه وشركاءً جدداً في العمل. سمح لنا بأن نصور اثنتين من زوجاته الثلاث؛ الراقصة، وضاربة الودع، أما الثالثة فهي التي تخدم في البيت، فقد مررت سريعاً من أمامها قبل أن يحبسها عقاباً لها على أمر ما. استرقنا بعض صور خلسة في الحارة لأطفاله الذين يصبح شعرهم باللون الأصفر، على الرغم من سمارهم حتى يتميزوا عن الصغار الآخرين من غير الفجر. عدنا إلى دكان "ضيا"، حتى يكمل عم "سامبو" قطعة فنية كان قد بدأ بها قبل أن يأخذنا إلى بيته. ولما وجد رأسه قد تعطل عن الإبداع، أشعل سيجارة حشيش وتقاسماها مع "ضيا" بداخل الدكان، بينما انتشينا أنا وألبرت" ونحن نشرب كوبين من الشاي بالنعناع والقرفة، وقد امتلا المكان بعقب غامض بعدما دخل شحاذ صديق لهما، وفي يده مبخرة تفوح بأريح المسك والعنبر.

ذهبنا في اليوم التالي إلى أتيليه "چيمي جدو" بوسط البلد، والذي كان قد هجره من سنوات. كان كل شيء في موضعه، الماكينات، والأرفف المكَّدة بالأقمشة، ورائحة زيت الماكينة اللزج، والمقصات الضخمة، وغرفة القياس، المُطلة على ميدان "لاطوغلي"، وقد تراكمت الأتربة على حديد بلكونها المشغول بطرز أوروبية. صور "ألبرت" وجهي، وفي الخلفية عمارت القاهرة الخديوية، وكل ركن سمعت فيه حكاية من حكايات "چيمي جدو" عن تاريخ بيوت الأزياء الفرنسية، و بدايات الموضة منذ القرن السابع عشر وحتى الآن. الحكايات نفسها التي كانت تأتي من أجل سمعها زوجات الزبائن مع أزواجهن، وينظرن لـ"چيمي جدو" بشغف وانبهار، على الرغم من أن تيتيه "نازلي" قد حرمته من العمل كمصمم أزياء راقية للسيدات، حتى لا تقتلها الغيرة من ولع النساء به، ووأدته حلمه في أن يصبح مثل "تشارلز فرديريك وورث". رفع "ألبرت" حاجبيه، وهز رأسه كدليل على عدم معرفته بـ 55 ذكرت اسمه تواً، شعرت بالذهول لأنني تفوقت عليه في معرفة

اسم رجل إنجليزي عاش في القرن التاسع عشر، ويعتبر أول مصمم حقيقي للأزياء، وبادئ صناعة الموضة كما نعرفها اليوم.
قال "أبلرت" وكأنه قد حصل على جائزة:

- ها أنتِ قلت لي معلومة عن رجل إنجليزي لم أكن أعرفها ونحن في بلدك. تعالى إلى لندن لأخبرك بمعلومة لا تعرفيها عن مصر.
وقد كان هذا تحديداً ما كُنْتُ أصبو إليه في تلك المرحلة، أن أسافر لتحرير الرَّاكِد والانتقال لمُجَرَّد الانتقال.

بدأت قدماي ثؤلماني بعد أن وصلت لآخر شارع "آجماشينيبيلي"، ففكّرت بالعودة إلى البيت في تاكسي، لكنني لمحت فرع محل "ريفر آيلاند"، الذي كُنْتُ أعمل به "ستايلست" في فرع لندن. برقت في رأسي فكرة أن أتسلى بالعمل لبعض الوقت في "تبليسي"، فاتجهت إلى مدير المحل مباشرة، دون أن أنظر إلى الملابس التي أحفظها عن ظهر قلب، لكن سرعان ما انطفأت الفكرة بعد أن اعتذر لي المدير لأنهم لا يعرفون ما يسمى "الستايلست" الذي يساعد الزبائن في اختيار أفضل ما يناسبهم، وإحداث تحولٍ جذري في هيئتهم في فروع چورچيا.

ما زال محل "صنع في تبليسي" الملافق للبيت مغلقاً، وما زال الفستان النبيذي المتشع ذو الكورنيش المُلتف بميل على ذيله معروضاً في واجهته ويداعب خيالي. أشعر أنني صرت مثل السيدة "هاريس" الخادمة الفقيرة بطلة الرواية الإنجليزية، التي سيطر عليها الهوس باقتناء فستان "كريستيان ديور". أصعد إلى الشقة في الدور الثالث، وأكتب على "جوجل" "فروع محل صنع في تبليسي"، فياخذني محرك البحث إلى اسم مصممة الفستان التي يحدث اسمها وقعاً مألفاً في نفسي، ومع ذلك يُربكني قليلاً، فقد كانت تُدعى "تيري إيلشوفيلي".



(7)

©TrueMitra - FreeVectors.com

وصلت إلى لندن في يوم ممطر، لكن شثان بين المطر الذي كُنْث أجري تحته في مرح وسط حفنة من زملاء الدراسة، حين جئت لعمل دبلومة الباطرون قبل زواجي، والأمطار التي يسير المرء تحتها ببطء، وهو يحبس دموعه، فتقوم السماء بالمهمة نيابة عنه. كان لقائي بـ"ألبرت" في "الدرب الأحمر" منحة أخرى من السماء، فهو من شجعني على إرسال بياناتي لإدارة أسبوع الموضة في لندن للعمل معهم لبعض الوقت، بالإضافة إلى خطاب التزكية الذي رشحني فيه للعمل كمديل بالوجه في مشروعه

الفنجانيقة متيقية من «تمار..» ١٥١

اتصلت بـ"ألبرت" فور أن وضعت حقائبها في الفندق الصغير بحي "إيرلز كورت"، فقال لي:

- تسع دقائق هي المدة الفاصلة بيني وبينك. سأنتظرك أمام محطة "فيكتوري" في الدقيقة العاشرة.

قاومت متعة التدقيق في وجوه المسافرين وتخيل حواديتهم، ومشاهدة أحضان اللقاء بعد طول غياب، والأيدي الملوحة بالوداع، وفن العمارة الفيكتوري وروح الاغتراب الجميلة التي أشعر بها حين أتوه بين الكتل البشرية وموسيقى عازفي مترو الأنفاق وروائح القهوة والمخبوزات والمحال الصغيرة الملونة في المحطات الرئيسية. كانت الناس في الشارع تجري في اتجاهات عكسية، حين أخذ المطر ينهر بشدة، فتعرفت على "ألبرت" من ظهره ومن شكل رأسه وسترته الكحلية الأنيقة. استدار وجذبني من يدي ودخل معي تحت شمسitti، وعبرنا الطريق جريًا دون أن ينطق بكلمة واحدة. لم أفهم ماذا كان يقصد حين وضعني على الناحية الأخرى عند موقف الباصات الحمراء الضخمة ذات الدورين، فصرت كنقطة بين قطرات المطر الثقيلة، ثم أمرني أن أنتظر وركض ثانية إلى الجهة المقابلة، مخالفًا كل قواعد المرور. قام "ألبرت" بتلك المغامرة العبثية الصغيرة حتى يأتي بتاكسي ويلتقتنـي باتجاه الشارع المؤدي إلى المطعم الأنيق الدافئ الذي اختاره لتناول العشاء على ضوء الشموع.

كانت تلك الرحلة مهرباً آخر من لزوجة تأنيب تيتيه "نازلي" لي بعد الطلاق، ومعايرتها بأنني لا أستمر في عمل أو علاقة، فعزمت على أن أخذ هدنة من العواطف، وأن ألقى بنفسي في تفاصيل وظائف وأعمال أعود بعدها لـ"چيمي جدو" مرفوعة الرأس. شعرت أن "ألبرت" قد سمع ما يكفي ويزيد من حكاياتي في مصر، وإنه قد آن الأوان أن أرد له الجميل وأن أصمت لكي أنصت له. كان عادة ما يشرع في أي حوار جديد بجملة استفزازية أو بنبرة تعالي، ولو لا أنني قد تعرفت إليه بصفته الصديق الحميم لجارنا "باتريك"، ما كنت لأمنحه الفرصة الثانية ليظهر جانبه الطيب. لم يكن دافعه بحاجة لأنّ أمehle الوقت ليصير رقيّاً حنوناً في

المطعم الفاخر الذي دعاني إليه، فهذا ما قامت به الرشفة الثانية والثالثة من كأس النبيذ الأحمر، مثلما كان يذيبه شذا نصف السيجارة التي يدخنها "ضيا" في دكانه، ممزوجاً بعقب بخور المسك.

بتشجيع من "أبرت"، أرسلت طلبات للعمل نصف الوقت إلى أكثر من جهات عشر، وعملت على التوازي في بعضها؛ بيوت أزياء تخفض عدد موظفيها في قسم التسويق، وتستبدلهم جميعاً بشخص واحد من الخارج، محررة للموضة في مجلة شهرية، بحيث أحضر عروض الأزياء وأكتب ملخصات عنها، كما استجاب على الفور موقع إلكتروني أطلق في آخر أخبار الأزياء من كل بقاع الدنيا، وأحولها في الحال إلى تقارير يومية قصيرة. وقد كانت هذه الوظيفة تتطلب يقطة معظم ساعات الليل، فاستثمرت تلك الفرصة وعملت في الفترة الليلية في قسم الاستقبال في الفندق الصغير الذي أقيم فيه، في مقابل توفيرأجرة الغرفة. وعلى الرغم من كل هذا الجهد، اعتبرت نفسي أوف حظاً من الفتيات البولنديات اللاتي يجئن في الصباح، ليجهزن الإفطار للنزلاء وينظفن لي غرفتي؛ لأنهن يُقمن من دون فيزا ولا يتحدثن الإنجليزية. كما كانت خروجة كل يوم سبت مع "أبرت" هي الجائزة التي أفوز بها بعد شقاء الأيام الخمسة، وإن كانت خروجة الأحد معه أيضاً تفسدها قليلاً مثلما يفسد هطول مطر لندن المفاجئ حلوة يوم ربيعي مشمس.

كانت لندن "أبرت" في تلك الشهور غير لندن التي جئتها مراراً وأحببتها ودرست الموضة في أفضل مدارسها. وقد كان معه كل الحق حين قال لي إن اسم التدليل الذي يطلقونه على حي "كينزنجتون" المجاور إنما يعود عليه هو، فقد كانوا يسمون الحي "أبرتوبولي". زرنا معًا معظم المواقع التي يتضمنها شارع المتاحف به، وشهدنا أكثر من خمسة آلاف عام من تاريخ الفن والقطع النادرة من الخزف والزجاج والنسيج والأزياء الوطنية والفضة ومنحوتات ولوحات من كل بقاع الدنيا. وبنهاية كل زيارة، يفاجئني "أبرت" بأن يشير إلى قطعة حبيبة من تاريخي

الشخصي، فقد أخذني ذات سبت إلى مقبرة الكلب الوفي لمدير متحف "فيكتوريا أند ألبرت"، التي لا يلمحها أحد في الحديقة، وسط الانبهار بالعمارة المذهلة والمعروضات التي تخطف الأنفاس، وقضينا ذلك النهار في الحديث عن كلبي "چاكيت"، حين أخبرته أنني أفتقد شقاوته ونباحه ودفعه فرائه. وفي محل "لبيرتي" للأقمشة التراثية، عشت معه أيام أتيليه "چيمي جدو" وبقايا قطع النسيج التي كانت تأخذها "وديدة" لشفصل منها سجادة من قصاقيس ملابس، لي مع كل منها ذكرى وحكاية. وفي محل "هارودز"، خالف "ألبرت" طبيعته وتركني أتعالى عليه في القسم المصري الذي ينقل أجزاء من روح التاريخ الفرعوني ويخلد ذكري حب "ديانا" الإنجليزية و"دودي" المصري.

كثيراً ما تقمص "ألبرت" شخصية زبون يرغب في استشارة نصف ساعة لاختيار الملابس في محل "ريفر آيلاند" الذي كُنْت أعمل به ستايリスト ل ساعتين صباح السبت، لكي نشرب القهوة معًا ونقضي ساعتين كاملتين في الثرثرة والضحكة. كما حجز بعض مرات مقابلة مطولة لعمل "إكستريم ميكوفر"، أي تغيير جذري في مظهره، وكان يأخذني فيها إلى الأماكن نفسها التي طالما زرتها أثناء الدراسة بمعهد الموضة؛ لكن كانت لها نكهة مختلفة معه.

قلت له:

- سيرفدني المدير إن تعرّف عليك، ووجدك بالچاكيت نفسه الكحلي والبنطال الرمادي، حتى بعد كل تلك المقابلات لعمل تغيير جذري في مظهرك.

فقال:

- سأبلغ أنا عنه مديره؛ لأنه لم يفهم التغيير الجذري الذي أحدثته أنت بي.

كان يوم السبت بالنسبة لـ"ألبرت" كشفتي النبيذ الأحمر اللذين تحسنان حالته المزاجية، وكان لقاء الأحد كأنما قد أتى على باقي زجاجة الخمر المعّقة، ودخل في نوبة سكر حزينة ليفرغ بعدها ^{57%} _{ما في متجره} وقد كان تحمله لرداعه مزاجه نهار الأحد هو

مكافآتى له على سخاء روحه صباح ومساء السبت. عادة ما يكون لقاء الأحد مقتضياً متوجهماً؛ لأنها اللحظات الأخيرة بإجازة نهاية الأسبوع، وهذا يعني أنه سيضطر إلى ركوب القطار لمدة ساعة واحدة عائداً إلى بيته بـ"أوكسفورد"، حيث ينتظره أبناؤه الصغار، ووالده العجوز، وزوجته الحسناء التي تصغره بعشرين عاماً.

لم أحلِّ لـ"أبلرت" إلا القدر اليسير عن "محمد خيامي"، ربما لأنه كان قد "أخذ الشر وراح" كما يقولون، لكن شر "تاتيانا" زوجة "أبلرت" كان ما زال يتتجول كالشبح في حياته، فلا منها ظلت معه، ولا منها غادرت. حكاية معقدة مثل خريطة خطوط متزوّلنلنن التي تُشبه شبكة أنابيب متداخلة ومربيكة للعين، كما رسمتها "تاتيانا" بتنويعات مختلفة، وعرضتها في معرض للفن التشكيلي، أثنتى عليه كل من جاؤوا من دول أوروبا الشرقية مثلها، وقتلهم الحيرة بين أن يعودوا لأوطان أكثر دفناً وفقرًا، وبين أن يبقوا وهم يلهثون جرئًا تحت الأنفاق، لكي يزدھروا فوق الأرض كما كانوا يحلمون. توينزات مثلي أنا وـ"تُقى"، توائم غير متشابهة من الحيرة تتنازع "أبلرت"؛ ولأنه التي غيرها من أجل "تاتيانا" ووطنها الذي هجرته لتعيش مع رجل أحبها، فينتهي بها الحال مدمنة للخمر لكي تنسى شيئاً لا تستطيع الإمساك به. تفيق "تاتيانا" لساعات تمنح فيها ذلك الشيء الغامض البهيج لأطفالها ولحماتها المسن، وحين يأتي دور "أبلرت"، تكون قد غابت في ماتها، أو انتظرته بآخر الليل بنظرة لائمة وثياب سوداء كأرمدة مكلومة. يقول "أبلرت" إن عائلة "تاتيانا" تحضرنه كابن، ويقول إنهم يطلبون منه ما يزيد على حدود إمكانياته، ويقول إنها أم جيدة، ويقول إنها زوجة بشعة، ويقول إنه يريد خلاصاً، ويقول إنه يريد وفاقاً، ويصب تلك الحيرة المزدوجة في فناجين القهوة أو أطباق الحساء الخفيفة التي نشربها في مقهى مجاور لمحطة القطار قبل أن يغادر لندن متوجهاً إلى "أوكسفورد" ظهيرة كل أحد.

مرّت ثمانية أشهر لم يتحسن فيها وضع "أبلرت" أو يزداد سوءاً أيام السبت واللحداد. وفي أيام الأسبوع التي كنت أقضيها نصف ^{١4٦} دقيقة متبقية من «تمار..»

نائمة ونصف مستيقظة في كتابة مواضع الموضة للموقع الإلكتروني، والجري خلف المصممين لأخذ تصريحاً أو اثنين بعد عروض الأزياء، ومتابعة البريد الصادر والوارد من إدارة التسويق بالشركة التي استبدلت أربعة موظفين بي، شعرت أن هذة السبت وارتباك الأحد لم يكونا كافيين لاستعادة إحساسي بالحياة، ولم ينقذني من تلك الدوامة سوى مكالمة تيتة "نازلي" في ساعة متأخرة من الليل بأنني يجب أن أعود لأن "چيمي جدو" قد بدأ يدخل في ماتهته الخاصة، ويقول الأطباء إنه بحاجة إلى شخص حميم يعيده للحياة. إذا كانت تقليعة النظارات الحمراء الكبيرة قد عادت هذا العام، ومعها موضة ارتداء السروال الإسترتش تحت الجيبة، مع الكعب القصير جداً ذي السن المدبب، فلا بأس من أن أرجع أنا أيضاً إلى غرفتي القديمة التي تطل على فناء مدرستي، وأتحمل ثقل معاشرة وتبكيت تيتة "نازلي".

عاد "ألبرت" من "أوكسفورد" ساعة مبكراً عن موعده في صباح السبت الأخير لي قبل العودة إلى مصر، وقال إنه سيبقى معه حتى مساء الإثنين. كانت الأيام الثلاثة مثل جوال "بابا نويل"، فقد أخرج "ألبرت" من جيشه تذكرتين لحضور معرض ملابس الفنانة المكسيكية "فريدا كاهلو" في متحف "فيكتوريا أند ألبرت"، ثم قال إنه لا بد أن يتسلّم ساعة يده التي يصلحها في "كنزينجتون" في اليوم التالي، فتوّقعت أن يأخذني إلى منطقة محال تجارية، لكنني وجدتني نسير معًا في قلب جنة حضراء بها بحيرات، وإوز، ونوارس، وبآخرها قصر "كينزينجتون"، مسقط رأس الملكة "فيكتوريا". لم تكن تلك هي المفاجأة، بل تذكرتان آخرتان لحضور معرض لمجموعة ملابس الأميرة "ديانا" بداخل القصر.

أخذني "ألبرت" مثل طفلة بصحبة أبيها إلى محل "بيتر جونز" الأثري. صعدنا الطوابق العديدة على السلالم لكي نمتع أعيننا بالمعروضات المغربية غالية الثمن، واستقررنا في الدور الأخير على منضدة لشخصين، في المطعم المستدير المطل على حي 45 دقيقة متباعدة من «تمار..».

"تشيليسي" لتناول الطعام. كان الطعام شهيًا والمكان ينضح بالحياة، إلا أنني للمرة الأولى أحس أن للتاريخ وطأة ثقيلة، شعرت برغبة في أن أفلتها. ما كدت أن أعبر عما يعتمل في نفسي، حتى بادرني "ألبرت" بتعجبه من كراهية "تاتيانا" لهذا المكان الذي يعج بالعجزة وأحفادهم؛ لأنها مريضة بفobia التقدم في العمر. أعطاني "ألبرت" مهلة ساعتين حتى أترج سريعاً على معرض "ساتشي" للفن الحديث المقابل للمحل، يكون قد جهز فيهما الشقة التي يستأجرها، واستعد لحفل الوداع الذي سيقيمه لي مع الأصدقاء.

لم يكن بالحفل سوانا، وموسيقى الروك، وكتابين اشتراهما لي "ألبرت" من مكتبة المتحف وأبقاهما كمفاجأة؛ الأول عن الرسامية المكسيكية "فريدا كاهلو"، والثاني عن أصول تصميم الملابس للمسرح، ومجموعة الصور التي ظهر فيها وجهي بأغطية رأس وملابس وطنية من معظم بلاد الدنيا. وعلى الرغم من عشقه للأحداث التاريخية المزدحمة بالانفعالات، لطالما قال "ألبرت" إنه يكره الدراما التي يظهرها البشر في اللقاء والوداع؛ لذا زعم أنه منهمك في إعداد صحن "ريزوتو" بالدواجن، وأعطاني صحنًا مماثلاً من الخضروات لعمل السلطة، فاندمجت أنا الأخرى في تقطيعها على منضدة أمامه بالمطبخ.

تعلمت من التاريخ أن البشر يدورون في حلقات من الأحداث المفترّرة وأن لا شيء يدعى "النهاية". لذا كان يداخلني يقين بأنني وأ"ألبرت" سنظل نتلاقى حتى يختفي أحدهنا من على وجه الأرض. جلسنا نتناول العشاء ولا نعرف ماذا يقول أحدهنا للآخر، فكلمتا حفل ووداع توأمان متنافران في جملة واحدة. يُدعى الناس حين يمارسون هذا الطقس العجيب أنهم فرحون، بينما تنخرهم غصّة، ويتعصر قلوبهم وجع الفراق الوشيك. رفع "ألبرت" صوت الموسيقى، وسألني وهو ينظر إلى البعد الآخر ليظهر عدم اكتراض:

- ماذا لو تقدم للزواج منيِّ رجل أجنبي، على استعداد لأن يدخل 58%
في الإسلام ويرتدى الحجاب، هل تقبلينه؟

قصد "ألبرت" أن يُضيف مسحة ساخرة إلى جملته حتى يجمع بين الهرزل والجد اللذين احتلطا على أنا الأخرى، فأجبت عن سؤاله بكل ثقة:

- لا. لن أتزوج أبداً، حتى لو ارتدى العريس النقاب.

و قبل أن يتحرك القطار الذي يحمل "ألبرت" من لندن إلى "أوكسفورد"، اتصل بي، وقال:

- لقد وعدتكِ أن أقول لكِ معلومة لا تعرفينها عن بلدك إن جئتِ إلى لندن، مثلما قلتِ لي معلومة عن بلدي حين كُنْتُ في مصر، خاصة أنني قرأت التاريَخ وشاهدت تصاوير وتماثيل كل من حكمَنَ بلدك. "تمارا" .. أنتِ أجمل من "كليوباترا" وأروع من "شجرة الدر".

وحين شاهدت السحاب يتشكل على هيئة بُراق يطير أمام نافذة فندق "الهوليدي إن"، حين جئت إلى "تبليسي" بعد رجوعي من لندن بعامين، تلقَّيْتُ رسالة من "ألبرت" يسألني فيها بتلقائية:

"هل قلت لكِ من قبل إنني عشقتَكِ؟".

لم تصلني من "ألبرت" بعد ذلك سوى كروت بوستال من كل بلد يذهب إليه، مثلما كان يفعل المسافرون في عقود سابقة، وكنت أفعل المثل وأخطره حين أذهب إلى بلد جديد. أرسلت هذه المرأة كارتاً إلكترونياً، عليه صورة كاريكاتورية لرجل جورجي يشرب النبيذ في قرن من العاج، وفي الخلفية معالم المدينة القديمة، مكتوب تحتها "تعال إلى تبليسي". لم يخطر لي ببالِي أن "ألبرت" سيعتبر ذلك الكارت الذي لم أدقق في تفاصيله دعوة شخصية مثُّي له، ويبعث لي بر رسالة على تليفوني أكثر غرابة من رسالة الاعتراف بالغرام السابقة.

تفيد رسالة "ألبرت" بأنه ينوي أن يمضي أسبوعاً مع أولاده وزوجته السابقة "تاتيانا"، المقيمين حالياً عند أهلها في أرمينيا، ويفكر بما أنه ستكون بينما أربع ساعات وست وأربعون دقيقة بالباشق فقط، فلأنَّ الواقع أن أجده أمامي في الدقيقة السابعة

والأربعين فور وصوله لعمل فيلم تسجيلي عن عادات وتقاليد
شرب النبيذ في المدينة القديمة بـ"تбليسي":



٣)

"لا تقتلني، فأنا عاشقة"; جملة مكتوبة على قطعة صغيرة من الورق، ومثبتة بدبوس رسم على الحائط الذي تستند إليه المكتبة الضخمة في صالة شقة "تبليسي". ارتجف قلبي حين رأيتها على أكثر من ورقة، في أكثر من موقع على رفوف المكتبة. شعرت

140 دقيقة متباعدة من «تمار..»
أبريل ٢٠١١ - بقلم: أ. عاصي سعيد - نسخة رقم ١٤١٦١

ارتكتبت جريمة حب، أو محبة ترجو معبودها ألا يقتلها بالإهمال أو الخيانة. ثم وجدت على جدار المكتبة لوحة مستنسخة لامرأة مُوجّه نحو رأسها مسدسان من الجانبيين، وموقعًا باسم "فيولا كونست". عاودني هوس التنقيب عن الأسماء والأماكن الذي غرسته في عقلي ميس "عايدة"، فبحثت عن اسم وأعمال الفنانة لأكتشف أن "لا تقتلني فأنا عاشقة" هو اسم تلك اللوحة الموجودة في معرض مُقتنيات متحف "ساتشي" الذي زرته في لندن ولم ألحظها. وبصفتي امرأة تؤمن بالعلامات، فقد اعتبرت تلك اللوحة إشارة إلى أن مكتبة هذه الشقة خبيئة تستحق التنقيب، أو مقبرة بها كنوز، كالتي كان يسرقها ويعيش من ريعها رجال القبيلة في فيلم "المومياء". الفيلم الذي صدّع "شادي" رأسي بتحليل كل مشهد من مشاهده، ليس فقط لقيمته الفنية؛ بل لقيمته المعنوية أيضًا، لأن والد "شادي عبد الهادي" قد منحه هذا الاسم حبًّا و蒂منًا بصديقه مخرج الفيلم "شادي عبد السلام".

كنت قد قضيت الأيام الأربع السابقة مثل مكوك ماكينة حياطة، لا يهدأ صعودًا وهبوطًا من وإلى الشقة، في مشاوير صباحية تستمر حتى حلول المساء إلى نهر "كورا" والمناطق التاريخية المحيطة به، ربما لأنني كنت أعرف مسبقًا أنني سأمتع عيني وروحي بسخاء التاريخ الجورجي وآثاره وتذكرياته الملونة على كوبري الـ"درابي بريديج"، دون أن أضطر للمرور في شارع "روستافيلي"، وأفقد تماسكي أمام معروضات المحال البراقة التي تبيع الماركات العالمية الشهيرة وأبدد كل ما أتيت به من أموال في قطعة ملابس واحدة. ظلت روح "شادي" طاغية بتعلقه الروحي بروسيا، وأنا أحدق في المعروضات التي تشكل بازارًا يتم تجميعه بعناية على بطاطين مفروشة على أرض الكوبري، هدايا تذكارية تميز حقبة الاتحاد السوفياتي الجورجي، والأرمينية، والأذربيجانية، ميداليات عسكرية قديمة تم منحها للأبطال الجورجيين البواسل لشجاعتهم ولولائهم أثناء الحرب العالمية الثانية، ومجوهرات عتيقة مصنوعة يدوياً، ومجموعات من "الساموفار" النحاسي الروسي العتيق، والمرصوص إلى جوار أدوات قصبة للمطبخ وكاميرات وكتب بأوراق صفراء وصور 59%

عائلية بنية اللون وبطاقات بريدية نادرة وختاجر مزركشة أطراها بالفضة والنحاس، ثم أدلّ إلى الحديقة الفسيحة التي يعرض الفنانون التشكيليون فيها لوحات زاهية تسُرُّ من رآها، وتعكس فن العمارة والعادات والتقاليد الجورجية بألوان فاقعة ومنظور للرسم لم أَرْ مثله ولا في أي لوحة من لوحات الفنانين الذين زرت متحفَهم في معظم بلاد الأرض، أو رسامي البورتريهات في شقة الرسامين بـ"ال滴滴 الأحمر".

أجُرُ ساقيٍ، وأعود مُنهكة كل مساء، أسجّل أسماء الشوارع وحكايات أصحابها، حتى صار "شوتا روستافيلي"، و"كوت أبخازي"، و"إريкли"، و"آجماشينيبيلي" لا يمثلون أسماء شوارع في "تبليسي"، بل صاروا رفاقاً يؤنسونني ويهونون عليَّ التعب. ولا أسترد طاقتِي إلا بعد أن أدخل فطيرة "الخاتشاوري" إلى المايكروفي، والتهمه في تلذذ مع كوب شاي بالنعناع الأخضر. أشعر أنني بدأت أخالف طبعتي في حساب عدد السعرات الحرارية قبل كل قضمَة أتناولها، كما أنني تفاجأت ذات مساء بأنني فتحت درفة النملة العليا في مطبخ "تارا" وأعددت من المكونات المتاحة طبق كشري وفي الليلة التالية صحن "ريزوتو"، فلم يكن بالمطبخ سوى أرز ومكرونة وعدس أسود.

ليست الحياة منفردة في شقة بالسوء الذي ظننته دائمًا، فما سعيت أبداً لفكرة الاستقلال التام، أو الطعام من حضن جدو الحنون، حتى وإن اضطررت للعيش معه كـ"باكيديج" هو وتيته "نازلي". حتى إقامة أهل "محمد خيامي" حولنا ومعنا في عمارة واحدة، وفرضهم علينا ما يأكلون وما يشربون كُنُثُ اعتبارها ميزة وليس عيباً، مثلما كُنُثُ أقيم في أي بيت للطلبة أو فندق، وأكل ما يقدمون على الإفطار. ما كان يوحّز ضميري قليلاً حين أتيت لهذه الرحلة هو تركي لتيته "نازلي" في شقة "ال滴滴 الأحمر"، وقد يعترضها خوف أو مرض. إلا أنني حين كُنُثُ أرتمي على فراشي شبه غائبة عن الوعي هنا في شقة "تبليسي"، بعد جولات السير على الأقدام، وتدوين اسم كل شارع وطئته، وكل أثر وقع تحت ناظري، ثم قضاء المساء في البحث الإلكتروني عن حواديث تلك

الشوارع، وحواديت الشوارع التي تجاورها، أدركت أن النوم وحيدة في الظلام ليس الشبح الذي ظننته، وإنه لا داعٍ لتأنيب الضمير الذي حملته طوال عمري خوفاً من ذنب لم أقترفه تجاه تيطة "نازلي". شعرت أيضاً بلذة الحياة كـ"سينجل إنديندنت وومن"، أي امرأة عزباء مستقلة، وإن "السنجلة جنتلة.. هاهاها".
لو سمع "شادي عبد الهادي" هذا المصطلح لنهرني على الفور، ليس لأن التعبير مبتذل، بل لأنه عصري، وقد كان "شادي" يستخدم كل المصطلحات الراقية والمبتذلة حد الدناءة، لكن من القاموس الخاص بحقبة الستيبييات.

أقيس الفستان الزيتوني الواسع ذا الكرانيش المائلة، والذي يشبه تماماً الفستان الذي اشتهرت به في المحل المغلق تحت البيت، ويماثل فساتين بالشكل نفسه معروضة في بازارات شارع "شارдан" السياحي بالمدينة القديمة، إلا أن الفستان الذي أرتديه الآن اشتريته من امرأتين يعرضان بضاعتهما على حامل خشبي في مدخل عمارة قديمة بشارع "آجماشينيبيلي"، وبيع بثلاثين لاري فقط، والآخر الذي في البازار يباع بمائة وثلاثين. الفارق بين الفستانين هو اسم المصمم، فالذي اشتريته خيطته إحدى السيدتين، والآخر غالى الثمن صممه بيت أزياء يستأجر دكّاناً في بؤرة تاريخية تعج بالسياح. والعجيب أن معظم النساء الجورچيات يرتدين الموديل نفسه، الفقيرات منهن والثريات، لكنك تستطيع التمييز بينهما من خامة القماش. تُشبه الرخيصة اللينو الناعم المريح الذي صنعت لي منه "وديدة" أول وأجمل قميص نوم ارتديته في طفولتي، أما الغالية فمن الكتان الخشن الذي يتكرمش مع أول قطرة عرق، لكنه ذات الصيت كعنوان لذوق صاحبه الرفيع وتميزه، شأنه شأن جميع القمصان الكتان البيضاء التي كان يرتديها "شادي عبد الهادي".

أشبُ على أطراف أصابعِي في وضع جنبي أمام المرأة، وأتخيلني وأنا أرتدية بکعب عالي، ثم أعطى ظهري للمرأة وأدير رأسي لأرى إن كان الفستان يظهر الكيلوهات التي ربما أكون قد اكتسبتها بعد أكل "الخاتشابوري" وـ"الخينكالي" المحسو باللحام المفروم ومرقته 60% دقيقة متبقيَّة من «نقار..».

اللذيدة. أنزل بقدمي الحافية ثانية، وأراني أرتديه على حذاء مريح وأغطي رأسي بطربة، مثلما تفعل كل النساء هنا في الكنائس، وأتجه في تحشم نحو المكان الذي سأقابل فيه القس "أندراوس"، لكي يُسلّمني الكنز الذي وعدني به.

أعاود التفتيش عن أي رسائل جديدة من القس ولا أجده سوى الرسالة الأخيرة التي بعث بها لي من أكثر من أسبوع، فأملاً فراغ إيميلي بإرسال رسالة مكررة له بأنني ما زلت في الانتظار، وأرفق بها كالعادة رقم تليفوني الجورجي وعنوان شقة شارع "آجماشينيبيلي"، فربما يكون قد فقد الرسائل السابقة. ما يخفف من وطأة الإحباط واستفزاز التجاهل هو إحساس غامض بوجود يد حنونة، زارت الشقة صباح أمس ورصقت الأكواب الزجاجية والفناجين الخزفية على رخامة المطبخ بشكل فني، ربما مكافأة منها على تركي كل شيء نظيفاً لاماً. ولما وجّهتني أستعمل أكياس التموين البسيطة بداخل النملية، جمعت بجانبها على التوابل وزجاجات الزيت والخل، لتسهل عليّ مهام الطبخ. أما مفرش السرير الذي كان قد سُوي على شكل إوزة يوم قدومي، فقد تحول إلى شكل قلب، وكأنها رسالة موجهة لي من المرأة التي تنطف الشقة أسبوعياً، تقول لي فيها "أنا أحبك، أنت ذات قلب رحيم".

يرن تليفوني المحمول بصوت حاد مرتفع، فأجري لاهثة لألتقطه. يبدأ رقم المتصل بـ 955+ فيداخلي يقين بأنه حتماً القس، وقبل أن أتأكد أنه يسمعني أقول بالإنجليزية في لهفة:

- هاللو!!!

فيرد المتصل بصوت هادئ رخيم وبلهجة شامية:

- وينك يا حلوة؟ أنت بالبيت ولا بالدار؟

لم يخطر بيالي سوى كلبي "چاكیت" في اللحظة التي سمعت فيها الصوت الغريب على التليفون. كان ليهجم على هذا المتحرش لو اقتحم الشقة، خاصة بعد أن قررت "تارا" أن ترحل فجأة إلى 61% دقيقة متبقيّة من «تمار..»

بلدتهم "كاخيتسي"، وتركتني بمفردي في العمارة. تم قتل خمسة وثمانين ألف كلب ضال في "تيليسى" في الأعوام القليلة الماضية. ليتنى التقطت واحداً منهم وتبنته ومنحته طعاماً ليدين لي بالولاء ويحميني. لو كان الأمر بيدي، لاقتني كلباً قوقازياً جليلاً قوي البنية، كالـ"چورچيان شيربرد" الذي يعين الرعاة في الجبال⁹

- شو يا حلوة؟ نعست ولا نمت؟

يأتيني الصوت مرة أخرى بعد الثوانى التي شرد ذهني فيها، وما إن أخذ يتمنج محراجاً من صمتي، حتى تذكرة أنه صوت "موتي"؛ "مطيع" الفلسطينى الذى تلقاني في المطار مثل أم حنون تتلقف ابنها الضال.

- أنت عرفت نمرتى إزاي؟ مش أنت مش بتستعمل الموبايلات؟

جاءتني الإجابة بصوت "ريموندا" موظفة الاستقبال بفندق "ميوجوتيل"، التي كان قد أعطاها "مطيع" كارت تليفون برقم جورجي اشتراه لي، وأعطاه لـ"ريموندا" فثبتته لي في تليفوني وسجلت رقمي لديها، وقررت اليوم أن تعد لي مفاجأة وتنصل بي، ثم فكرت أن تسمعني صوت "مطيع" حين قابلته مصادفة في شارع "آجماشينيبيلى". دعوتها لتناول القهوة معي، لكنهما اعتذرا لأنهما تقابلا صدفة ولدى كل منهما ارتباطات. تنفست الصعداء، ليس لأنني لا أرغب في صحبتهما، بل لخوفي من نزول وصعود الأدوار الثلاثة في الظلام لأفتح لهما الأبواب المغلقة، وهو ما سيؤكدى لي أنني صرت أعيش في هذه البقعة بمفردي تماماً.

ما يؤنس وحدتي في هذه الشقة أن بها ملامح من لحظات حميمة عشتها في الماضي القريب، وكأن الأركان والحوائط لقطات صور فوتوغرافية منها ما يبعث على البهجة، ومنها ما يقف كفحة في الحلق. روح أخرى تهيم هنا أكاد أراها وأمسك بها، مثل الكاميرا التي كانت لا تفارق يد "شادي عبد الهادى"، ويفاصلها كرجل يحاول أن يفعل المستحيل ليوقع امرأة في حبائله. لم أتعذب، فتمنى استحضار تلك الروح، مثلما أعنى كل ليلة¹⁰

في استعطاف ملائكتي الحارسة أن تجلب روح "چيمي جدو" إلى أحلامي، وأن تجعله يمنعني حضنًا أثيرياً أو يبلغني رسالة ولو مشقرة عن السبب الحقيقي لوجودي في هذا البلد. أما روح "شادي عبد الهادي" السارح الآن في مكان ما من الكُرة الأرضية، فقد تجلّت لي في أنواع الكاميرات القديمة، والتي يبدو أن أصحاب الدار يعتزّون بها، ويرصّونها كتحف فنية على أرفف المكتبة. حتى صوت "شادي" كدت أسمعه وهو يصف ولعه بالتصوير، وأنا أمرٌ بعيني على البوسترات الضخمة بالدهليز المجاور لغرفة النوم، ومكتوب عليها جمل مأثورة عن التصوير بألوان وطُرزٍ ستينية تليق بتعلق "شادي" المرضي بتلك الحقبة، وتمثل غروره بموهبته وامتلائه بذاته:

"أنا مصور لذلك أعيش بصوت مسموع"، و"التصوير الفوتوغرافي يساعد الناس لكي يروا"، و"كل صورة عظيمة ثرينا شيئاً نبصره بالعين مع شيء ندركه بالبصيرة، فهي تجمع بين البصر والبصيرة"، و"الكاميرا الاحترافية العالية الدقة ليست من تصنع الصور، بل يصنعها المصور". أما أكثر مقوله وصفت "شادي" فهي أن "الصورة سر يكشف سرًا، فيقدر ما تخبرك بقدر ما تكتشف أنك وقعت في دوامة من الأسرار".

وقفت تنظر لي بالأبيض والأسود في حياد مُرّيب بآخر الصالة. تتصدر صورتها الغلاف الكبير للكتاب الفخم الذي يحتل ركناً على رفٍّ مميز، وهي ترتدي زي ممرضة متقطعة في الصليب الأحمر في القرن التاسع عشر. عرفت تلك المعلومة حين قلبت في صفحات الكتاب مليء باللقطات الخاصة، والذي كشف لي روح التصوير الفوتوغرافي المهيمنة على أجيال متعاقبة عاشت في هذا المكان. فقد كانت جدتهم صاحبة صورة غلاف الكتاب السميكة الذي يحمل اسمها بخط عريض، وعنوان بخط أصغر:

"الحرب العالمية الأولى بعيني امرأة جورجية".

ألهمني العدسات العتيقة المتناثرة بأرجاء المكان أن أتوغل كل صباح في شوارع المدينة القديمة، وألتقط صوراً وفيديوهات 62% 132 دقيقة ممتدية من «تمار..»

ذات خصوصية للنساء الالاتي فقدن أزواجهن في حروب وثورات عاشتها چورچيا على مدار عقود، وتركتهن جالسات على قارعة كل الطرق في ملابسهن السوداء، لا ليشحذن، بل ليبعن الفواكه المجففة والملضومة في أحبال كالسبح الكهرمان، أو ليصنعن زهوراً من "الأورجانزا" زاهية الألوان لتضعها البنات والنساء على رؤوسهن كأكاليل للبهجة. وددت لو طبع لي المتحف القومي كتاباً أسميه نساء چورچيات بعینی امرأة مصرية، على غرار الكتاب الموجود في صالة شقة "تبليسي".

مرّ أسبوع آخر دون خبر من القس "أندراوس"، وكلما زعمت أنني أستمتع بلعبة حفظ أسماء الشوارع والتنقيب عن أصولها، أدركت كم التوتر الذي بدأ يمسك بكل جزء من جسدي ويصيبني بالأرق وعدم الرغبة في الطعام، حتى مع وجود فطائر "الخاتشابوري" الطرية و"الخينكالي" الشهي.

بدأت أتشكك في حقيقة ما يدور حولي، وتمنيت لو كُنْت في كابوس مزعج، أرجو أن أصحو منه على سريري في شقة "جاردن سيتي"، على صوت تقليب الشاي بالملعقة الصغيرة بيد "چيمي جدو"، بينما تناديني تيطة "نازلي" بنبرة مفزعة بأن أصحو لكي أذهب إلى المدرسة، أو أن أجدني في المقعد المجاور لـ"شادي عبد الهادي"، وهو يقود سيارته بحرفية في شارع مظلم محاولاً اختلاس قبلة مَنِي وأنا أتمنع، وفي الخلفية تتجلّى "أم كلثوم" بأغنية "عُودت عيني على روياك". ليته يعود ولو ساعة ليثرثر بآرائه في الكون والوجود والثورات وغباء البشر، ثم يسألني بتعالٍ: "فهمت حاجة؟". ولا أمانع أبداً أن أعود لفترة هستيريا البحث عن بُعد عن "فادي أباظة"، والمرور مع كل مشوار من أمام بيته، والتدقيق في وجوه كل من كان يقود سيارة جولف حمراء كسيارته، وأنا أبكي لأسابيع متواصلة لأن أسطوانة تطُن في أذني بصوت "فيروز" وهي تغنى "كيفك أنت؟".



(9)
63%

129 دقيقة متبقية من «تمار..»

فهمت الآن فقط لماذا قال لي "شادي" إنه لا أصدقاء حميمين لديه ولا أحد يستمع له سوالي. ملأتنى تلك المقوله بالغرور والزهو بنفسى آنذاك، خاصة مع كتاب تاريخ وأوتار عود وملاحم بطولية مجسدة على هيئة رجل مثل "شادي". فقد بدأت أتحول تدريجياً في الأسبوعين الماضيين إلى ماكينة لتخزين الأحداث والأبعاد الاجتماعية والخلفيات الثقافية لأصحاب أسماء الشوارع مثله، إلا أن معرفتي بأن "شوتا روستافيلي" هو شاعر چورچيا الأعظم، أو إن "كوت أبخازى" هو بطل حركة التحرير في عشرينيات القرن الماضي، وإن "الملك إيريكلي الثاني" هو أول من لجأ للحماية السوفيتية المسيحية من هجمات العثمانيين، لم تملأ خواص روحي بالقدر الذي يغنىي عن صحبة بشر من لحم ودم، يرافقونني السير والضحك أو حتى الحيرة والبكاء في تلك الشوارع التي تحمل أسماء أولئك الرجال. عرفت أيضاً أن أول أثر لقدم إنسان وطئ الأرض قبل مليوني عام قد وُجدت في چورچيا، ومع ذلك لا أجد رفيقاً أو أنيساً يشاركتي حكاياتي الشيقة، شأنى شأن "شادي عبد الهادى".

خرجت إلى البلكون الخشبي الذي يطل على الباحة، وقررت عقد
هدنة مع جسدي ورأسي وأن أمنحهما قليلاً من السلام. تبادلت
الابتسامات مع جارة عجوز تشرب الشاي مع زوجها في البلكون
المقابل، وتعجبت من صياغ متحشرج في فراغ الباحة من عجوز
أخرى ترتدي فستانًا أسود كالحَّا، فوجدتُها تمسك بمقشة وتزيح
القمامنة ببطء؛ لأن أحداً قد رمى شيئاً أمام عتبتها. استحوذتْ علىِ
التفكير في المرأةين وأدركت أنني من كثرة ما شاهدت العجزة
المرتديات ملابس الحداد، صرت أشاهد خيالات قبل النوم لأعين
نسائية بائسة، وشعوراً بيضاء هائشة، وأيادي متعرقة، وخطوطاً
عرضية في الجبهة ووجنات متغضنة بالتجاعيد. وفجأة لمحت
وجهها لشابة تلتتصق بزجاج نافذتها، وتحمل في يدها مرآة صغيرة
لتلتقط الشعيرات الزائدة من حاجبيها تحت ضوء الشمس.
ألهمني الفكرة بأن أنزل إلى محل الكواشير الصغير بالدور
الأرضي وأدلل نفسي قليلاً، فسرحت في شكري بعد أن أصبح
مشغولاً باللون الأحمر كبعض النساء الچورچيات، فربما ألقى

بعض الحيوية على لون بشرتي الذي صار باهتاً، على الرغم من الكيلوجرامات التي اكتسبتها من أكل "الخاتشاوري".

تذكّرت أن اليوم هو الأحد، وهو الموعد الذي تأتي فيه المرأة المسؤولة عن تنظيف الشقة، والتي تحرص على الدخول بعد أن أغادر، مثل خدمة الغرف في الفنادق. فكّرت أن أقوم بخدعة صغيرة، وهي أن أنصرف وأسير حتى منتصف الشارع، ثم أعود لأتعرف سرّاً على شكل تلك التي تبادلني رسائل المحبة الصامتة من خلال ترتيب الملاءات والفوط والكبايات، ورصن أكياس الأرز والمكرونة وزجاجات الزيت والخل. وقفّت على الرصيف الآخر لأراقب أي وافد إلى العمارة، لكن الرصد كان من الصعوبة بمكان، مع وجود مكتب الصرافة الذي يحتل بئر السلم، ويستقبل صاحبه زبائنه وضيوفه معظم ساعات العمل طوال النهار، فضلاً عن زبونات مركز التجميل. سخرت بيّني وبيني نفسي من حماقتي وقررت التوجه إلى الدور الأرضي لأصبح شعري قبل أن أفقد حماسي.

لم يكن ترحاب "نانا" المصففة، أو الابتسامة العريضة التي قابلتني بها "كيتفان" صاحبة المحل، من منطلق كسب زبونة، أو الطمع في بضعة لاريهات كبقشيش. كانت الحفاوة هي نفسها التي قرأت عنها عن أهل چورچيا الذين يعتبرون الضيف منحة من الله، فقد أخبرتني كل العاملات أنهن يعرفنني من اليوم الأول الذي وصلت فيه العمارة كساكنة جديدة، لكنهن لم يرغبن في اقتحام خصوصيتي مثلما أوصتهن "تارا" صاحبة الشقة. لم تشرع "نانا" في صباغة شعري مباشرة، بل أخذتني إلى الحوض وأمالت رأسي إلى الخلف، وأخذت تُخلل أصابعها في فروة رأسي وتضغط برفق على جنبي جبهتي، حتى إنني كنت أبكي حزناً على الوقت الذي فرّطت فيه في حق الجانب الأنثوي من آدميتي. انسال الماء بارداً ليطفئ حمي التفكير التي تلبستني الأسبوع الفائتة. دارت أغانيات شبابية مرحة، بعضها نسخة طبق الأصل من أغانيات لـ"عمرو دياب" وـ"شيرين" وـ"إليسا"، بكلمات أرمنية، أخذت تغنى عليها "نانا"، بينما يميل رأسي إلى الخلف وتطيره

حركات أناملها الدائيرية الرشيقـة. آه يا "نانا"، اعـصـي كلـ ما فيـ دماغـي منـ صـخـبـ، واجـعـلـيـ المـيـاهـ الـبـارـدـةـ تـتـدـفـقـ بـغـزـارـةـ لـتـفـسـلـ كلـ ماـ تـرـاـكـمـ منـ أـحـدـاثـ وـأـسـمـاءـ عـتـيقـةـ لـاـ تـخـصـنـيـ. أـكـمـلـيـ غـنـاءـكـ وـاسـتـمـرـيـ فـيـ الرـقـصـ المـرـحـ يـاـ "كـيـتـفـانـ"ـ عـلـىـ هـذـهـ الأـغـنـيـةـ الـرـوـسـيـةـ التـيـ كـانـ يـتـنـاـولـهـ "شـادـيـ"ـ بـالـتـحـلـيلـ مـنـ مـنـظـورـ مـأـسـاوـيـ. تـبـّـاـ لـكـ، وـخـسـئـتـ، وـعـارـ عـلـيـكـ أـيـهـاـ الـوـغـدـ الـرـعـدـيـ الـأـخـرـقـ، وـثـكـلتـكـ أـمـكـ بـكـلـ الـأـلـفـاظـ الـمـنـدـثـرـةـ الـتـيـ تـعـشـقـهـاـ، وـالـمـصـطـلـحـاتـ الـتـيـ عـفـىـ عـلـيـهـاـ الـزـمـنـ مـنـ فـرـطـ مـاـ تـعـفـفـتـ أـيـاـ "شـادـيـ عـبـدـ الـهـادـيـ"ـ أـنـتـ وـ"ـكـارـلـ مـارـكـسـ"ـ، وـ"ـنـيـتـشـهـ"ـ، وـ"ـزـرـادـشـتـ"ـ، وـ"ـكـيـرـجـارـدـ"ـ، وـكـلـ فـلـاسـفـتـكـ الـذـينـ تـلـبـسـواـ رـأـسـكـ. عـلـيـكـمـ الـلـعـنـةـ، وـلـتـذـهـبـواـ جـمـيـعـاـ إـلـىـ الـجـحـيمـ بـلـ رـجـعـةـ. فـقـطـ لـوـ تـبـقـىـ مـعـيـ قـلـيلـاـ يـاـ "شـادـيـ"ـ لـتـرـدـدـ اـسـمـيـ مـرـّـاتـ مـتـتـالـيـةـ كـمـاـ عـوـدـتـنـيـ، وـلـتـهـمـسـ لـيـ بـصـوـتـ مـنـخـفـضـ حـنـونـ أـنـكـ تـعـرـفـ أـنـيـ أـكـثـرـ تـسـامـحـاـ مـنـكـ، وـأـنـكـ تـنـجـذـبـ لـيـ لـأـنـيـ فـيـ مـثـلـ طـبـيـةـ "ـفـؤـادـ الـمـهـنـدـسـ"ـ.

استدار وجـهـيـ معـ قـصـةـ الـشـعـرـ الـجـدـيـدـةـ، وـجـعـلـهـ اللـوـنـ الـأـحـمـرـ مـثـلـ قـمـرـ مـتـوـهـجـ بـعـدـ لـحـظـاتـ خـسـوفـ كـلـيـ. لـمـ تـكـنـ "ـنـانـاـ"ـ قـدـ اـنـتـهـتـ بـعـدـ مـنـ التـصـفـيـفـ حـيـنـ سـمـعـنـاـ صـرـاخـاـ مـنـ الدـوـرـ الـثـالـثـ. لـمـ يـفـرـعـ أـحـدـ سـوـاـيـ، حـتـىـ إـنـيـ كـدـتـ أـنـتـفـضـ مـنـ فـوـقـ الـكـرـسـيـ وـأـرـكـضـ صـاعـدةـ لـأـتـبـيـنـ مـاـ يـجـريـ.

قالـتـ "ـنـانـاـ"ـ فـيـ هـدوـءـ:

- إـنـهـ "ـأـمـيـنـاتـ"ـ.

. لـكـ الصـوـتـ يـأـتـيـ مـنـ شـقـتـيـ.

. نـعـمـ. "ـأـمـيـنـاتـ"ـ هـيـ مـنـ تـنـظـفـ شـقـتـيـ كـلـ يـوـمـ أـحـدـ.

. قـسـمـ الشـرـطةـ عـلـىـ بـعـدـ بـنـايـتـيـنـ، فـلـيـذـهـبـ أـحـدـ لـيـسـتـدـعـيـهـمـ. رـبـماـ تـعـرـضـتـ الـمـرـأـةـ لـهـجـومـ، أـوـ اـنـتـابـتـهـاـ هـسـتـيـرـيـاـ تـجـعـلـهـاـ تـحـطـمـ الـمـكـانـ، وـقـدـ وـعـدـتـ "ـتـارـاـ"ـ أـنـيـ سـأـسـلـمـهـاـ الشـقـةـ مـثـلـمـاـ تـسـلـمـهـاـ.

- أـمـيـلـيـ رـأـسـكـ إـلـىـ الـأـمـامـ قـلـيلـاـ، لـكـيـ أـرـشـ سـبـرـايـ زـيـتـ لـيـغـذـيـ

64% الـشـعـرـ يـحـيـيـ لـأـقـصـيـ الـأـطـرافـ مـنـ الصـبـغـةـ

قالت لي "نانا" إنهم مُعتادون على هذا السيناريو الذي يتكرّر كل يوم أحد، حيث تتلقّى "أمينات" مكالمة أسبوعية من ابنتها على التليفون الأرضي لشقة "تارا". تخبرها الابنة بأسماء "المجاهدين" العائدين من سوريا أو العراق، فقد انضمّ ابنها ذو الستة عشر عاماً للدواعش منذ ما يقارب أربع سنوات. وكلما عرفت أن ابنها ليس من العائدين أطلقت تلك الصرخات التي اعتادوها في العمارة، ولا تؤثر بالسلب على نظرتهم لأمينات، التي من المفترض أن تهدا كالمعتاد وتبدأ في الغناء والعمل بعد قليل.

كان كُم المعلومات الصادمة أقوى من قدرتي على استيعابه دفعة واحدة. فقد صوَّر لي خيالي شكلَّ من ترتيب لي أشيائي برقَّة ذوق رفيع، على أنها فتاة في العشرين، تعمل في تنظيف الشقق لتكميل دراستها الجامعية، أو لتعيل إخوتها الصغار، أو لثريح أمها التي ربما تُشبه النساء اللاتي أعياهن فقد الزوج، وبيعن الورود أو الفواكه المجففة لكسب العيش. ولا أدري لماذا تخيلتها ترتدي الذي التقليدي لخدمات القصور كما نشاهدهن في المسلسلات، والذي يشبه "يونيفورم" عاملات خدمة الغرف في الفنادق الفاخرة. ولم يخطر ببالي قط أن تكون امرأة تفتتح نهارها بالصراح، ولها ابن داعشي، ربما قرر أن يعود هو وحفنة من رفاقه ليختبئوا في شقتى، بعد أن يقوموا بتصوير مشهد ذبحي ويعرضوه على الفضائيات.

تترك "أمينات" الأبواب الأربع المؤدية إلى شقتي مفتوحة، لذا يرن الصوت الآتي من الشقة في الأدوار الثلاثة الخالية، وفي بئر السُّلُم الواقع بين محل الكواifer ومكتب الصرافة. بعد فترة هدوء قصيرة مشوبة بالحذر من جانبي، يتذفق صوت عذب بكلمات جورجية وألحان كالبكائيات، تمس القلوب وتجعلك شغوفاً بأن ترى صاحبته، وجاهزاً لأن تحضنها بمودة لأنك قد وقعت في غرام أحبابها الصوتية.

دخلت شقتي المفتوح بابها، وقد تم ترتيب المقاعد بطريقة جديدة أكثر راحة للعين، وتم وضع حبل من العنب المجفف في

طبق مستطيل على منضدة السفرة. كانت "أمينات" تهم بالرحيل، ففُزعت لما رأته في منتصف الصالة، واندهشت أنا الأخرى من شكلها وملبسها، ليس لغرابتها، بل من فُرط ألمتها. امرأة في الخامسة والأربعين تقريباً، ترتدي جلباباً فضفاضاً باللون الأزرق، وبه ورد صغير أصفر، وتعقد شعرها بمنديل رأس أسود اللون، وتتدلى من تحته ضفيرتان صغيرتان. لفحت بشرتها شمس ثقيلة، وزوَّدت جانبها عينيها الكحلتين بتجاعيد تزيد على المتعارف عليه في مثل هذه السن. رحّبت بي "أمينات" بجملة طويلة تضمنت كلمات جورجية وإنجليزية متكسرة وعربية، أو بمعنى أدق "إسلامية".

ذَكَرْتني هيئة "أمينات" بأمرأة من الماضي السحيق، كدت أنساها على الرغم من أنها قد لعبت دوراً رئيسياً في طفولتي المبكرة؛ "أم أحمد"، تلك الفلاحة التي جلبتها تيتيه "نازلي" من البلد لتحملني، وتهدهدني، وتحكي لي حواديت بدائية، وتقنعني بأن الوشم الأخضر المدقوق على كفها قد نما تلقائياً لأنها تأكل كل ما في صحن اللحم والخضروات، وتأخذني في نزهات قصيرة عصراً على كورنيش النيل القريب من شقة "جاردن سيتي". اختفت "أم أحمد" وأنا في الرابعة تقريباً، لكن تيتيه "نازلي" ظلّت تلعنها كلما تفرّجنا على الصورة التي تجمعني بها؛ لأنها غادرت بلا سابق إنذار وظللت أبكي ستة أشهر كل مساء لأنني أريدها أن تحكي لي حدوتة وأن تربت على شعري بالكف الكبيرة ذات الوشم الأخضر حتى أستسلم للنوم.

قلت لـ"أمينات" إنني مُمتنّة على ترتيبها للشقة، وعلى لفاتها الرقيقة في لف غطاء السرير والفوتوت على هيئة وزارات وقلوب، فضحت وقامت إن صديقتها "أمرا" الأبخازية هي من علمتها فنون الفنادق هذه. كاد الفضول يقتلني من الأريحية التي تتحدث بها "أمينات" والمتناقضة مع الصخب الذي بدأت به يومها، فجررت خيط الكلام حتى أصل معها إلى الموضوع الذي صار يسيطر على تفكيري الآن. كانت الاستجابة أرحب وأكثر سخاءً مما توقعت حين لم أقل سوى جملة واحدة غير مباشرة:

- صوتك أطربني، لقد سمعتكم من الدور الأسفل. لكن لماذا أغنتكم
حزينة؟

- حزينة؟!!! هذه أغنية أفراح، ومن المفترض أن تغنىها معي
أخريات بطبقات صوتية متعددة، لكننا هكذا، نغنى باحترام،
ونرقص بوقار، ومع ذلك لم يعجبهم وحرّموا علينا الغناء.

. من هم؟

- الشيشان الوهابيون. فأنا من وادي "بانكسيي"، شرق منطقة
"كافخيتي". هناك قرى وفدي إليها الشيشان بالوادي، وصار رجال
الدين الذين تأثروا بال تعاليم الوهابية يمنعون الرقص والغناء
وسماع الموسيقى التي تربينا عليها واعتدى سمعها ونحن نفرح
أو نحزن أو نصلي أو نعمل، وألبسوا النساء الحجاب والنقاب،
وصار الرجال يربون ذقوناً طويلاً غير مشذبة ويدخلون
سراويتهم في جواربهم، ويشغلون أغاني داعش بصوت مرتفع في
سياراتهم، وكأنهم يتبعون موضة أو تقليعة عصرية. موضة
انتزعت أكثر من مائتي شاب وفتاة من أحضان أمها THEM، وأرسلت
بهم إلى مصائر مجهولة في بلاد لم يخطر ببالنا أنها قد نزورها
يوماً.

. وهل قريتك في چورچيا أم في الشيشان؟

- أنا من وادي "بانكسيي" على الحدود مع جمهورية الشيشان
الروسية، على بعد مائة وستين كيلومتراً فقط من "تبليسي". ولما
هرب المتمردون الشيشان ليختبئوا لدينا أثناء حرب الروس
والشيشان عام 1994، جلبو معهم الوهابية التي صارت موضة
بين تسعين بالمائة من الشباب. ولما قامت حروب لا أدرى عنها
شيئاً منذ بضعة أعوام في سوريا، سافر من سافر ليحصل على
المال، خاصة أن الشباب يعاني البطالة والفقر، ومنهم من انقض
لمحاربة "بشار" لأن روسيا تسانده. والله ما شعرنا بأي شيء في
البيت، ولم يحدثنا الصبي أبداً في تلك الأمور، ولا حتى لمَّا
لصديق عمره "جورجي" قبل أن يقاطعه فجأة. يظنني الناس
أصرخ بـ 12% متن تكلمته "ملحمة" على التليفون لأن ابنى ليس من بين 65%

العائدين المشوّهين. أنا أصرخ لأن الفتاة ترفض أن تعيش معي في "تبليسي" بحجة انتظار أخيها، لكنني أعلم أنها تحلم بالهرب والسفر إلى سوريا هي الأخرى خلف زوجها. أما أنا حين فقدت الأمل من انتظار الصبي على دكة أمام الدار صباح مساء، اتبعت الحدوة الشعبية وفعلت مثلما تقول الأسطورة.

كنت قد أعددت صحنًا عميقًا من الكشري المصري أثناء انهماك "أمينات" في الحكي، وكأنها كانت تبحث عن أذن تبتها تاريخ بلدتها المجهولة هي الأخرى. غرفت لها صحنًا وجلست للمرة الأولى أتناول غدائى على منضدة السفرة، وليس فوق الكراسي الخشبية العالية في المطبخ وأنا في عجلة من أمري.

- تقول الأسطورة إن حفنة من الأولاد الشيشان قد خرجو للبحث عن بعض الخراف الضالة، فتاهوا في جبال "القوقاز". وبعد بضعة أيام، خرج آباء الأولاد للبحث عنهم، ووصلوا للجانب الآخر من الجبال، فوجدوا أنفسهم في غابات چورچيا الكثيفة الوعرة. كانوا مُجهدين جدًا من الرحلة، فضرموا بعصيائهم في الأرض واستندوا عليها حتى أذهبهم التعب في نوم عميق حتى اليوم التالي. وفي الصباح، وجدوا عيونًا من الماء قد تفجرت في الأماكن التي غرسوا فيها عصيائهم، وقامت طيور السنونو ببناء أعشاش فوق رؤوس العصي. اعتبر الرجال تلك المعجزة إشارة من الله، وكفوا عن البحث عن الأولاد الضالين، واستقرروا في تلك الأرض، مثلما اعتبرت عرض "تارا" للعمل لديها ولدى بعض معارفها، إشارة من الله بترك "بانكيسى" والاستقرار في "تبليسي". فقد كان والدي يعمل منذ سنين طويلة لدى والد "تارا" في معصرة النبيذ الشهيرة في "كاخيتى"، وهنا وهناك أرض الله.

وضعت "أمينات" كفها الكبير على رأسها، كإشارة إلى أنها أوجعت رأسي، فأخذت أحملق في تلك الكف وكأنني أبحث عن وشم أخضر اللون ينمو تلقائيًا لو أنهيت كل ما في الصحن من خضر ولحم. وعلى سيرة اللحم، قلت لـ"أمينات":

- ما رأيك لو رافقتنى هذا المساء للتمشية عند نهر "كورا"، ثم 65% دقيقة متبقية من «تشر ..»

دعوكِ للعشاء على "خينكالي" باللحم، تعويضاً عن هذا الغداء
المتواضع؟

لطالما أزعجني كيف صار ينصب اهتمام تيتيه "نازلي" قبيل رحيل "چيمي جدو" على أحوال الخدم أكثر من تركيزها على حصولي على عمل أو فرصة جديدة في عالم الموضة. صارت ترفع الكلفة وتنطلق في الحكي بلا قيود وكأنهن قد صرن صديقات لهن الحق في الاطلاع على أدق أسرار البيت. لا أظن أن تيتيه "نازلي" كانت تتصرف هكذا لأنها تعاني الوحدة أو الخرف، أو حتى من منطلق حق البروليتاريا في حياة متساوية مع الأسياد، مثلما يزعم "شادي"، بل لوجود خيط خفي يربط بينهن حين تسقط الحواجز، كحنين لحدوتة قديمة أو لامرأة فقيرة من زمن مضى كانت تحنو عليها أكثر من أمها، مثلما أجد نفسي الآن في تلهف على انتظار رد "أمينات" على عرض التّنّزه معه ليلاً.

قالت "أمينات" ما معناه إنها تعتبر عرضي السخي شرفاً عظيماً، لكنها لن تستطيع قبوله اليوم، لأنها قد وعدت صديقتها "أمرا" أن تمر عليها بعد أن تنهي ورديتها في فندق "ميجوتيل" وتذهبان للتمشي معًا عند النهر.

ابتهجت للوقع المألوف لاسم فندق "ميجوتيل"، وكأنني صاحبة أهل وعشيرة. فقد جلب مجرد ذكر اسم الفندق أسماء أخرى كـ"ريموندا"، وـ"أميد"، وـ"مطيع". قلت:

- لا تعارض إدّا، فلنأخذ صديقتك "أمرا" معنا. أنت بحاجة إلى الونس في مدينة ليس لك فيها أهل.

قالت بهدوء وثقة:

- جئت إلى هذه المدينة بكامل إرادتي، وأستطيع أن أعود إلى بلدتي إن أحببت. أما "أمرا"، فستدخل السجن أو تُقتل إن جُنت وقررت العودة إلى "أبخازيا".



(10)

الألوان الزاعقة التي صدمت عين "أمجاد" عند مدخل فندق "ميجوتيل" نشّطت سرعة البديهة لديه، وأيقظت حاسته السابعة. شاهدنا "أمجاد" فجأةً عند مكتب الاستقبال، أنا بفستاني الجورجي الأخضر الزاهي، وأمینات" بجلبابها الأزرق ذي الورود الزهرية، فابتكر كذبة بيضاء.

مررنا على الفندق لتأخذ "أمرا" صديقة "أمینات" في نزهة على نهر "كورا"، وكان "أمجاد" يحاول استرضاء زبونتين عراقيتين جاءتا إلى "تبليسي" لعمل جراحة تجميل في أسنانهما لكي تحصلان على ما يسمى بـ"ابتسامة هوليود". تعيش المرأةتان بالفعل بالقرب من "هوليود" وتحاولان إنتاج فيلم وثائقي عن الموضة والتراث، وانتهزتا فرصة وجودهما في "تبليسي" لأنّه لأخذ بعض اللقطات التي تفيدهما في مشروعهما. كانت السيدتان قد اتفقتا مع "ريموندا" على أن تأخذهما في التحدّي التالى... ماذا أحبّاء تاث الملاس

66% دقيقة عتيقة من: «تمار»

الجورجية، لكن "ريموندا" اعتذرت لأسباب عائلية. استيقظت ذاكرة "أميد"، فقدمني للمرأتين بكل ثقة بالاسم الذي يبدو چورچيا تماماً:

- "تمار إيلوشيفيلي". مصممة أزياء خبيرة بتاريخ الموضة في چورچيا، وتحدى العربية أيضاً، وستصبح كما غدأ بدلاً من "ريموندا".

الجمتنى المفاجأة، ليس لأننى غير مستعدة لاصطحاب المرأةين، بل لأننى كنث أتسكع قبل يومين ضمن رحلاتي المكوكية الصباحية على فترینات محل "ساموزيل بيرفيلى"، و"ماتيریال"، و"فابريكا تبليسي"، المتخصصة في إحياء الملابس التقليدية الجورجية، وما جرأت على الدخول، حتى لا أصاب بإحباط إضافي بسبب ارتفاع الأسعار. ظن "أميد" أن التعبير المتجمد على وجهي سيعقبه اعتذار أو رفض قاطع، فسحبني من ذراعي وهمس لي بأنه سيمنعني ضعف ما كانت ستأخذه "ريموندا" في مقابل أن أخرجه من هذا المأزق.

حين تمنحني السماء وهمة كهذه، ترسل لي إشارات وعلامات قبلها حتى تطمئنى. لم أكن قد شاهدت أرقاماً متكررة لها أسرار ورموز بأن هناك ملائكة تحرسني وترشدني إلى مسالك رحبة كما تعودت؛ بل رأيت الملائكة بذاتها في الليلة السابقة. لم يعم السواد المعتاد حين أغمضت عيني لأخلد إلى النوم، بل سادت تفاصيل وجه "چيمي جدو" كأنها تنظر لي وهي طافية على سطح من الماء؛ شفاهه الداكنة، مسام بشرته اللامعة عقب حلاقته لذقنه، وعياته الواسعتان تنغلقان ببطءٍ حتى بدأت أنعس في ارتياح، فتبدل المشهد إلى نقاط صغيرة من نور ساطع، تبزغ لها أجنبة من ضوء، ترفف جيئة وإياباً على خلفية الرؤية الداكنة، فأدركت أنه اتصال نوراني، لكنني للحق لم أسع إلى تفسيره.

توقعـت أن تـكمل "أمرا" مشهد الحديقة الحافلة بالألوان الذي كونـته أنا و"أمينات" بملابسـنا، لكنـها خرجـت من مطعمـ الدور الأرضـي بـجونـلة رـمـاديـة تحتـ الرـكـبة، وـقمـيـص أبيـض بـسيـط،

66% دقيقة مبنية من «تمار...»

يناسب قَدَّها القليل وشعرها الأسود القصير. كانت ملامح "أمرا" وصوتها تُشبه ملابسها؛ هادئة ومحايدة، وكأنها صاعدة للنَّسَقِ من بئر سحرية نعمت فيها بروعة السكون ورقرقة المياه. لا نزهة تناسب هذه المرأة أكثر من التمشي فوق جسر السلام "بليس بريديج"، المصنوع من الزجاج الشفاف، وتنعكس أضواوه وأنوار المدينة القديمة على مياه نهر "كورا" تحته.

قامت موسيقى "آفا ماريا" الأوبرالية التي تحرك النافورة الراقصة، وضحك الأطفال الذين يلهون في ساحة الجسر، ونداءات بائعي أكاليل الورود وعصير البرتقال الطبيعي، بملء الفراغ الصوتي الذي حل على تلك النزهة. شعرت أن المرأةين يستقلان وجودي معهما، على الرغم من صمتني معظم الوقت وتبادلها البعض الأحاديث الجانبية بالجورجية. لم تضايقني حواراتها التي لم أفهم منها شيئاً؛ لأنني أحسست أنا الأخرى أنني قد تورطت في تلك التمشية الهدئة، وأنه يجب أن أركض الآن إلى شارع "كوت أبخازي" بالمدينة القديمة؛ لأتعرف على مديرية محل "ماتريال" الذي يعرض ملابس مُصمّمي الموضة الجورجيين، أو أن أهرب إلى محل "ساموسيلي بيرفيلي"، لأملاً عيني بكل قطعة فضة أو ذهب أو ملابس الريف والحضر التقليدية والمسمّاة "شوكرا" أو "كالاكوري كابا"، وفقاً لمنطقة التي تعبّر عنها، حتى أكون جديرة بدور المرشدة السياحية الذي سأقوم به غداً.

يُفترض أن يضع تناول العشاء حدّاً لتلك النزهة التي ورطت نفسي فيها، كتعبير بالامتنان عن رقة وذوق "أمّينات" في الاعتناء بالشقة، ولم أضع في الحسبان عرض "أميد" المدهش الذي ضم الموضة والتاريخ في قبضة يد واحدة، أو ركود روح "أمرا" صديقة "أمّينات" الساكنة، التي علّمتها فن تنسيق الغرف كالفنادق. ما هؤن على وطأة وجودها هو شعوري الأصيل بالتعاطف مع موظفي خدمة الغرف، الذين يحولون فوضى غرف أدوار بأكملها إلى إحساس حريري لذيد، حين تعود إلى غرفتك بالفندق وَكَانَ عصا ساحرة طيبة قد لمستها، بينما كُنْتَ أعجز في

طفولتي عن ترتيب فوضى غرفتي بعد أن ألعب "محل الملابس"، وتنالني علقة من تيته "نازلي".

اقترينا جدًا من المطعم الذي يقدم "الخينكالي" الشهي بشارع "شافتيلى"، إلا أن أمررين قد صرفاً عن تمامًا عن شعوري بوجود "أمينات" وصديقتها "أمرا" معي، فقد وجدتني أمام كاتدرائية "سيونى" التي بُنيت في القرن الخامس، وقيل إن العرب قد دمّروها بالكامل، ثم أعاد الملك "ديفييد" بناءها، وأنها سميت "سيونى" نسبة إلى جبل "صهيون" في القدس. تعجبت أنني لم أعد أبالي بالحوادث التي وقعت للكنائس مثل ذي قبل، فقد بدأ يصيبني هوس من نوع آخر، تخيل مشهد القس "أندراوس" وهو يخرج في جلال من بوابة الكنيسة، أي كنيسة، وأنا أجري نحوه وأقول له أنا "تمار أبو لامة الشوافيلي"، لقد حضرت الإنجيل الذي تريده معي، والقرط القديم أيضًا، لقد حافظت أسرتنا عليه لأجيال لا أعرف منذ متى، خذهما وسلمني الكنز الذي وعدتني به في رسالتك، أنا وحيدة في هذا البلد، وسينفذ مالي، والشهر الذي استأجرت فيه الشقة يوشك على الانتهاء، لماذا لا ترد على رسائي؟ ما حكاياتك؟ لماذا تفعل بي ذلك؟!!!

- "تمار".

قيلت بصوت ذكوري عميق آتٍ من وسط مجموعة من السياح يتحلقون حولَّ من ناداني.

- "مطيع".

قلتها بفرحة طفولية وهرعت نحوه، وتبعتنى "أمينات" و"أمرا"، لكن ما كدت أقترب منه، حتى وجدته ينخرط في إلقاء خطبة، أو حكاية والكل ينصتون باهتمام:

- "تمار" اسم ستجده بين معظم نساء چورچيا وروسيا وبلاط كثيرة أخرى، ليس فقط لأنها كانت ملكة العصر الذهبي في چورچيا؛ بل لأن "تمار" في الأسطورة الجورجية كانت إلهة للسماء، ولها قدرة على التحكم في الجو. اتخذت "تمار" "ديليس" 67% 113 دقيقة متباعدة من «تمار..»

فاركاسفلافي "عبدًا، وكان نجم الصباح، وسيد الشتاء. أينما هرب،
يبدأ الجليد في السقوط، لكن "تمار" كانت تقبض عليه مرّة كل
عام وتحبسه، فيعود الصيف إلى البلاد ويغمر الدفع الأرض
والسماء. كانت "تمار" عذراء أبدية، تمتليء أف Cunningham
مسرجة ومقيدة بالذهب.

ظللت المجموعة المحيطة بـ"مطبع" على صمتها وذهولها وكأنهم لا ي يريدون للحديقة أن تنتهي، فقال:

- نسيت أن أقول لكم إنكم لو سمعتم اسم "تامي"، أو "تارا"، أو "تامريكو"، أو "تامونا"، فاعرفوا إنه بالأصل "تamarًا" .. وأنـتـ يا حلوة يالـلي واقفة هونـيك، ليـش سـموـكـي أـهـلـكـ "تamarًا"، مشـان مـسـگـرـة ولا لـذـيـدـة؟ اـنـتـيـهـيـ إنـكـ هـتـحـكـيـ حـكـاـيـتـكـ هـلـأـ وـهـوـنـ.

أضاف "مطيع" تلك الجملة بالعربية وبكلنته الفلسطينية التي تطربني، بعد أن بدأت مجموعة السائحين تستعد للانصراف.

لـ"مطيع" مكان ثابت على الرصيف بين كاتدرائية "سيوني" وميدان ساعة مسرح العرائس "ريزو جابريادزة"، يقول فيها حكاياته المدهشة، بعد أن يُشاكِّس المارة، خاصة المجموعات السياحية. ينادي الفتيات، ويثنى على أشكالهن، وينادي الصغار ويقول إنه سيحكى حدوتة قصيرة، فيجعلوا آباءهم يتوقفون. يتنقل "مطيع" في الحكى بين الجورجية والإنجليزية بمهارة، ويقوم ويقعد ويمسك بعصا أو كوفية، وكأنها بطلة أو حبيبة، فيعم صمت مقدس بين الجمهور وكأنهم يحضرون عرضاً عالمياً في دار أوبرا. وبعد أن يكف عن الكلام، يشير إلى أحد الحضور ويطلب منه أن يحكى حدوتة قصيرة من وحي حكاياته، وإن صفق الجمهور بشدة سيمنحه كهدية.

وَجَدْتِي أَتِفَاعُلُ مَعَهُ دُونَ أَشْعُرُ، وَأَتَدَلَّ مُثْلَمَا يَفْعُلُ كُلَّمَا
حَدَثْنِي، فَسَأْلَتْهُ:

- هلاً ولا هون؟

النفّ حول قلم أتجد من توحّي هيتهم بأنهم يفهمون العربية 68%

وأكملت:

- هاي دلع ولا مياصه؟

قال:

- أنا عم إحكي جد. إحكي حكاياتك بصوت عالي.

أعجبتني روح الأساطير التي تهيمن على كلام "مطيع"، فتخيلتني "تمار" التي تمتطي الأفعى المجنحة المسروحة بالذهب، وبدأت حكايتها بأن البراق طار من أمام نافذتي في سماء "تبليسي" منذ عامين، فعدت ومعي فردة قرط متكسّرة وإنجيل أوراقه صفراء، سأدفعهما مهراً لكنز سيمنعني إياها قس مجھول، وسأعود بعد الشقاء إلى سيرتي الأولى من العز والنعيم، وسأعود إلى بلادي التي يعني فيها اسم تمارا "تمرة"، بعد أن أنزل من فوق ظهر الأفعى وأمتطي البراق؛ لأنني ولدت في الليلة التي تنقل فيها البراق بين المدن الأرضية المقدسة والسموات السبع.

صَفَقَ الحاضرون، لكن "مطيع" اعتذر عن عدم تقديم كوفيته كهدية لي لأن آخر كوفية كانت معه أعطاها لطفل صغير، وقال:

- بتحببي أعطيكي إياها بالبيت ولا بالدار؟

قلت له وأنا أشاكسه تعليقاً على لكته الممطوطة التي تجعله يبدو وكأنه يتدلل:

- لاً بتعطيني إياها يا إما بالدلع يا إما بالمياصة.

وانصرفنا أنا وأمینات و"أمرا" حتى لا نتأخر عن العشاء.

أصابت عدوى الحكي "أمرا" الساكتة، حتى أنها لم تأبه كثيراً لأطباق "الخينكالي" الطري الذي يفوح بالسخونة والطزاجة، وقالت إنها ستنتظر حتى يبرد قليلاً، ثم تحنت وكأنها ستشرع في أمر محرج، وقالت:

- صديقك الحكاواتي هذا، إما مجنون، وإما أنه يحبك كثيراً. لقد

68 **هاريته وجهاية في الزحام حتى لا يتذكّرني، ويحدث ما حدث**

حين حكىت حكاياتي في لعبته تلك. أتيت منذ فترة بصحبة بعض السياح من نزلاء الفندق مع "ريموندا" وأمجد". ينوع "موتي" هذا في طرق الحكي، وقد كان في ذلك اليوم يلعب مثل الساحر الذي يطلب من المترجين ساعة ذهبية ويتحولها إلى تراب ثم يعيدها سليمة. كانت حيلته في ذلك اليوم أن ينادي المارة وكأنه يروج لبضاعة: "قل لي اسم مدینتك وتاريخ ميلادك، أقل لك ماذا حدث في چورچيا في مثل هذا اليوم، وأرشدك إلى أفضل مكان تذهب إليه".

عادة ما يتوقف المارة لينصتوا إلى "موتي"، فلا يبدو من هيئته أنه مجنون يهذي. تُجبر وسامته وأناقة ملبيه وصوته الجذاب أي شخص على التوقف عنده، حتى وإن كان سائحاً متوجلاً. تحمس ورفعت ذراعي وقلت بصوت عالٍ: "أنا من أبخازيا، وولدت يوم 9 أبريل". امتعق لون وجه "موتي"، ونفرت عروق جبهته ورقبته، وتبدلت ملامحه الجميلة إلى ملامح رجل ملبوس بالجن، وقال لي:

"فلتعودي إلى بلدك، أو لتجنبي إلى الجحيم، أو الأفضل أن تتسلّكي في شارع "روستافيلي" لتلقي باقة ورد بجوار النصب التذكاري، كال مجرم الذي يقتل القتيل ويسيّر في جنازته".

شعرت بحرج شديد أمام المارة، وانزويت في جانب أبي. احتضنتني "ريموندا"، وأعادني "أمجد" إلى الفندق. وفي الطريق، أفهمني إنها قد تكون ذكرى حزينة بالنسبة له، ففي مثل هذا اليوم منذ سبعين عاماً، أراق الإسرائييون دماء أكثر من مائتي وخمسين رجلاً وامرأة وطفلاً في قرية تدعى "دير ياسين" في بلد "موتي" فلسطين، واستوطن اليهود القرية، ثم أعادوا بناء المستوطنات فوق أنقاض القتلى، وسموا الشوارع بأسماء منفذى المذبحة التي أرعبت الفلسطينيين آنذاك وتسبيب في تركهم بلادهم وتشتيتهم، فربما مات أحد أقاربه في تلك المذبحة. لم أقدر أن أسامح "مطيع" من تبرير "أمجد" لإهانته لي على الملا، فكان من الأجرد به أن يتعاطف معي أنا المطرودة من بلدي أنا الأخرى، بدلاً من أن يقول لي أن أذهب إلى الجحيم أو أشرب من 68%

دماء الشهداء الجورجيين. صديقٌ هذا مُختل عقلياً.

يبدو أنني أجدب وأنجدب إلى أولئك الأشخاص الذين يجمعون بين كثافة الكشمير وخفة القطن، نعيم الجنة، ولهيب جهنم، مثل "فادي أباطة"، و"شادي عبد الهادي"، و"ألبرت راسيل". الوحيد الذي حافظ على ملمسه الخشن كان "محمد الخيامي"، وقد لفظته غير آسفة ورفضته الحياة بأكملها.

بَثَتْ سيرة "مطيع" الروح في الصحبة التي جمعتني بـ"أمرا"، والتي بدأت فاترة باهتة وتحولت الآن إلى جلسة حميمية ساخنة، حتى إنني تحمّست لسماع حكايتها على الرغم من امتلاء المطعم بالرواد والصخب والموسيقى الفولكلورية الجبلية. ظهر النادل مرّة أخرى ليرى إن كنا نريد أن نشرب شيئاً، فنظرت "أمينات"، و"أمرا" كل منهما للأخرى، وقالت "أمينات":

- نبيذ أحمر.

بينما قالت "أمرا":

- شاي.

وانخرطتا في الضحك، وكأنه أمر متفق عليه مسبقاً.

تعجبت كيف تطلب "أمينات" المسلمة ذات الابن الداعشي المتشدد خمراً، وتطلب "أمرا" الأرثوذكسية التي تتناول النبيذ كشراب مقدس في الكنيسة شاياً. لمحت السيدتان علامات الدهشة الصامتة على وجهي، وقالت لي "أمرا":

- هذا تقليد نتبعله خاص بنا نحن الاثنين فقط.

وصل الشاي والنبيذ قبل أن تكمل "أمرا" حكايتها، وشربت رشفة من الشاي الملتهب بتلذذ، وقالت:

- هذا نخب طفولي السعيدة التي ذهبت بلا رجعة. أنا وأمينات" فلاحات قبل كل شيء. لم نعرف في طفولتنا أن في العالم بلدانًا أبعد من قرانا الصغيرة، هي في "كاختي" تغسل قدميها وتترفع

ثوبها وتدب بقدميها فوق الكروم في المعاصرة التي يعمل بها والدها، كفقرة تقدم للزائرين عن طرق عصر النبيذ القديمة. وأنا أجري مع فتيات صغيرات في مثل سني في حقول الشاي الشاسعة، نقطف أوراقه ونضعها في أجولة كبيرة، وأناأتأمل الجبال الشاهقة ذات الكهوف والقمم الثلجية، وجداول المياه الصافية أو أضحك تحت الأمطار الغزيرة بقرية "جالي" في "أبخازيا".

قلت لها:

- تستطعيين أن تعودي إلى "أبخازيا" بلدك، ألم تدل استقلالها من چورچيا مثلما أراد الانفصاليون؟

فقالت:

- أنا لا أفهم شيئاً من هذه الأمور. كل ما أعرفه أن والدي من أصل جورجي، ووقع في غرام والدتي الأبخازية وتزوجها وأنجبا أنا وإخوتي، في مقاطعة "جالي" في "أبخازيا". بعدهما كبرنا قليلاً، عرفنا أن "أبخازيا" هي چورچيا، مثلها مثل أي مدينة تقع على حدود دولة. ولما كبرنا أكثر، سمعنا أن چورچيا استقلت عن الاتحاد السوفيتي، فاغتناظ الروس وهيجوا بعض أهالي "أبخازيا" ليستقلوا عن چورچيا. جاء الروس بجنودهم وأسلحتهم وألغامهم ليعاونوا الانفصاليين، واشتعلت الحرب بينهم وبين قوات چورچيا، ودُمِرت الديار وقتل أكثر من عشرين ألفاً ونحن كصغار نسمع ولا نفهم. طردنا الروس والانفصاليون الأبخاز من ديارنا بالملابس التي علينا، وقالوا لنا مثلما قال صديقك "مطبيع" أن نغرب من هنا، ومنعونا منعاً باًغاً من العودة إلى "أبخازيا" لأن والدنا من أصل جورجي. هل عرفت الآن لماذا تطلب "أمرينات" النبيذ وأطلب أنا الشاي؟

مرّ النادل وهو يحمل صينية عليها أكواب سموзи موز باللبن، فتذكّرت صوت الخلط الرهيب حين كانت تيّة "نازلي" تضع فيه شرائح الموز ومكعبات الثلج واللبن الحليب، ونشربه في أكواب كريستال مفقية البلتون.. أنا و"چيمي جدو" عصراً. أشرت للنادل 69%

بأنني أريد من هذا، ولما أحضره في لمح البصر، رفعنا كؤوسنا
مُتنافة المذاق والنكهات في صحة الطفولة السعيدة البعيدة.

مرّ طيفه بخطى هادئه وواثقة من خلف زجاج المطعم، وكأنها
لقطة في حلم."مطيع" ببدلته الزرقاء الأنique وشعره الأملس
المرتب، وحول عنقه تلتف كوفية فلسطينية في طيات عديدة،
مع أنه قال لي منذ قليل إنه ليس بحوزته واحدة لكي يعطيها لي
مكافأة على أسطوري الحقيقة التي حكتها بصوت عالي على
الملا.



(11)



لا أصدق أنني ذهبت إلى كل تلك الأماكن اليوم بصحبة "ريم" و"عاليا" العراقيتين. لو كان الوقت الذي قضيته اليوم معهما قطعة من القماش، لتصورته رداءً خلاباً ليس لتصميمه مثيل، أزراره أقمار صغيرة، وخيوطه الذهبية منسوجة من عين الشمس. شعرت أنني "شهر زاد" بذاتها، الحكاية الأشهر في التاريخ وأنا أدلف إلى محل "ساموسيلي بيرفيلي"، وأمسك بكل قطعة ملابس جورجية تقليدية، وأضعها بشماعتها على جسدي كأنني أرتديها وأنا أحكي تفاصيلها الفنية، وطرق حياكتها، وتاريخ البلدة التي نشأت فيها، بينما تمسك السيدتان بكاميراتهما لتصويراني وأنا أتألق كبطلة مسرحية بين خامات الأقمشة ووقائع التاريخ. وفي منتصف الحكي، تلوح لي غمّازة "شادي عبد الهادي" التي تغوص في وجهه حين يضحك ساخراً من جهلي بتفاصيل أحداث الماضي لأنه الأربع والأقدر على قراءة ما بين السطور. فأجدني أحد المترافقين وأهدر لهما الـ 70%.

القديمة. نمر على بيوت أزياء "ماتيريايال"، و"شاردان وان"، و"بيرو لوفو"، أمرر يديه على ملمس النسيج الفاخر، وأجرب بعض الفساتين والتايليرات، وأنا أشرح كيف وصل المصممون الشباب الجورجيون إلى السجادة الحمراء في "هوليود"، بمبتكراتهم العصرية التي استلهموها من الأزياء التقليدية، فأتخيل "چيمي جدو" وكأنه يصفق لي من غرفة القياس ويهمني مقصّه الذهبي، لا لأفضل به، بل كجائزة على مهارتي في الحكى، مثله ومثل "أم إدريس"، ومثل ميس "عايدة". المدهش أنني كُنْت قد حصلت على الجائزة مُسبقاً من "أميد" ، حين منحني أجر مرشد سياحي عن يوم استثنائي، تبعه عرض بالعمل ليومين أسبوعياً بالفندق، كمرافق سياحية للنساء اللاتي يرغبن في التسوق والتعرف على الجانب الناعم العصري البراق من مدينة "تبليسي".

لم أعقد الآمال على أن الفيلم الخاص بالموضة في "تبليسي" الذي صورته "ريم" و"عاليا" سيظهر فعلاً في "هوليود" ، وقد كُنْت محققة في توعي. فقد كان مجرد فيديو قصير للترويج السياحي، رفعته المصوّرتان على "اليوتيوب" بعد ساعات من تصويره. لم أعرف بوجود الفيديو إلا حينما جاءعني عرض من مجلة سياحية مصورة متخصصة في الترويج لجورجيا بأن أقوم بعمل فيديوهات لديهم، وأحصل على ربح لا بأس به مقابل الإعلانات. لم تنته كل تلك الأحداث السعيدة بأن استيقظت من النوم واكتشفت أنه كان مجرد حلم لطيف كما يحدث في أفلام السينما، فللمرة الأولى يتتفوق الواقع على جمال الخيال. كُنْت فعلاً مُستلقية على ظهري بنهاية اليوم مُتابعة من ملاحقة الأخبار المُفرحة، حين رن جرس الشقة على غير المعتاد، فلم تكن نسخ المفاتيح الأربع موجودة سوى مع "تارا" صاحبة البيت. لا بد أنها قد عادت من "كاخيتى" أثناء غيابي طوال النهار. أخيراً، جاءت من تُؤنسني في هذه العمارة الكبيرة التي أسكنها وحدي. ففتحت أقفال الباب الأربع لأجد أمامي كوفية فلسطينية ذات المربيعات التي تُشبه نقشة الـ"ببي دو بوول" التي أعشقها، مفرودة على ذراعيه كوشاح يُقدم لفائز في بطولة ما.

. "مطيع"!! هي "تارا" رجعت؟

. شو؟

. أوَّلَ مِنْ الَّذِي فَتَحَلَّكَ الْأَرْبَعُ أَبْوَابٌ؟

للمرأة الثانية أقابل مفاجأة من "مطيع" بسؤال سخيف، فحين حدثني في التليفون من أمام العمارة المرة السابقة، سألته كيف حصل على رقم تليفوني المحمول.

. ما حدا فتحلي أي أبواب. أنتِ ما سُكّرتبيها بالأساس يا حلوة.

تنفَّست الصَّعداء لأن "تارا" لم تكن موجودة لتشهد استهتاري وعدم اثباعي للتعليمات، ومددت ذراعي لأتلقّى الوشاح الهدية الذي كان قد وعدني به في مقابل الحكي الجيد.

. لا.. هاي بيلفوها على رقبتها أو على صدورهن.

وأخذ يلف الكوفية حول عنقي في طيات عديدة ببطء، مثل امرأة تعقد ربطه عنق لرجل تعشقه.

. عارفة؟ في بلاد "القوقاز" كانت المرأة بتقدر توقف الحرب، بس ترمي الشال بين الفريقين.

. على فكرة عندهم حق اللي بيقولوا عليك مجنون.

. طبعاً معهن حق.. بس مين هادول؟

لم أشاً أن أفسد جمال اللحظة بأن أقوم بتأنيب "مطيع" على إحراجه لـ"أمرا" في وقت سابق، وأن أخبره بأنها ضحية للتقطير العرقي مثلها مثله، وشكرت الظروف التي جعلته يستخدم كلمة شامية في جملته الأخيرة لأغيّر بها مجرى الحديث، فقلت له بدلال:

- هادول؟

لـ"مطيع" لهجة ذات حلاوة خاصة، تليق بوسامة وجهه الطفولي **والجعطفني أشعر برغبة في** استحلاب الكلمات التي تتدفق من فمه 704

وكانها حبات سكر.

. بدك تشربي قهوة؟

وقبل أن أرد عليه بأن واجب الضيافة فرض على أنا، كان يقف
وراء الكاونتر في المطبخ ويعد القهوة التركية، التي فاحت
رائحتها المُسّكّرة وأنا أجلس على أريكة الصالة في مواجهته
مستمتعة بالتفّرج عليه، كأنه يقدم أحد عروضه المدهشة على
قارعة الطريق.

. عارف إني هاشتغل حكاواتية زييك؟

. بتعربني؟

. علّمني...

كنت أمزح حين طلبت من "مطبيع" أن يعلمني فن الحكي، فقد
كُنْتُ أقول أي شيء لأبقي الحوار قائماً بيننا، لأتأكّد أنه ليس
غريب الأطوار مثلما قالت "أمرا". أود لو طالت جلسة "مطبيع"
حتى مطلع الفجر أو لصباح اليوم التالي، حتى وإن تطلب الأمر
أن أمنحه غرفتي ليننعم فيها بالراحة، وأغوص أنا على أريكة
الصالّة في نوم مطمئن. يمنعني وجه "مطبيع" الطفولي شعوراً
بالأمومة التي لم أمارسها سوى مع كلبي "چاكـيت"، ويدركني
شعره الفضي بخصلات شعر "چيمي جدو"، فيلفني إحساس كامل
بالدلال والتدليل. أما وجاهته الأوروبيّة وعطره الفوّاح،
فيجعلاني أستحضر هيئة "ألبرت" الواثقة، ثمأشعر أنني أجلس
على كرسي بامبو تحت شجرة النادي الكبيرة وأمتع بصري
وحاستي الشمية ب أناقة وأريح "فادي أباذهة".

وضع "مطبيع" أمامي صينية فضية صغيرة بها كوب من الماء
وفنجان قهوة واحد، ووضع يديه في جيوبه ووقف يتأنّ كل
اللوحات العالمية والكلمات المأثورة المعلقة بدبابيس على
الحوائط.

. إنت مش هتشرب معايا قهوة؟
100 دقيقة متبقية من «تمار..»

. بتعرفي شو أحلى شي بيهالبيت؟ الورقة ياللي هونيك.

وأشار إلى ورقة صغيرة مختبئة وسط المعلقات الكثيرة، وأخذ يُلملم أغراضه وهو يقول:

- أنا بس جيت مشان أدعوكِي على معرض الأزياء والحكبي
الفلسطيني بالسوق المفتوح يوم السبت.

ثم غمز بعينه، وأضاف:

- وكمان مشان أعملك قهوة. ما تنسي تسّكري الأبواب.

أذهلنِي أداؤه الجنوني فبقيت على صمتي، مثلِي مثلِ المترجَّين
الذين يتحلقون حوله في الشارع. لففت كوفيته مثل شال حول
ذراعي، وشربت "قبلتين" من قهوته جعلاني أُسهر حتى طلوع
النهار، وأنا أتأمّل الورقة المعلقة التي أعجبته المكتوب عليها:

"I don't want to be your friend. I want to be your lover"



"لا أريد أن أكون صديقك. أريد أن أكون حبيبك".



71%

(12)

99 دقيقة متبقيَّة من 100

عزيزني القس "أندراوس"،

لقد نفذ صبري.

سأذهب يوم السبت إلى السوق المفتوح،

وسوف أعرض فردة القرط ونسخة الإنجيل للبيع.

"تمار الشوافيلي".

اغتظرت من انصراف "مطبيع" المفاجئ من شقتي، على الرغم من تحذير "أمرا" لي بأنه مُختل عقلياً. كُنْت في قراره النفسي أتمّنَّ ألا أصدقها، أو صَوَّرْ لي غروري بأنه لن تطالني حماقتها. لم يخطر ببالِي الآن سوى القس "أندراوس" لأنفث فيه غضبي، فهو من وضعني في كل تلك المواقف بالأساس، إلا أنني مسحت كل ما كتبته ولم أبعث له بأي رسائل.

باقي على يوم السبت ثلاثة أيام، وحتماً سيكون "مطبيع" مشغولاً بالإعداد لمعرضه، ولن أذهب إليه عند مسرح "ريزو جابريادزة" ليحرجني مثلما أخرج "أمرا"، أو ليخذلني مثلما خذلني منذ قليل وتركني في اشتياق للكلام معه. الأجرد أن أهتم بنفسي وبعملي الجديد الذي سيضمن لي أرباحاً في مقابل شففي بالأحداث والمباني الأثرية.

دسمست يدي في الحقيبة الصغيرة وأخرجت العلبة المتوارثة التي تحوي القرط والإنجيل، ووضعتهما أمامي على الفراش. أعددت فنجاناً جديداً من القهوة ليبيقيني نشطة حتى طلوع النهار بعد أن هرّبت قهوة "مطبيع" النوم من عيني. قليل من البحث والتجوال على المتاحف سيفيد كثيراً في العمل الجديد. سأضع جدولًا بترتيب الأهمية: متحف "تيليسى" للتاريخ، ومتحف الحرير، ومتحف الفن الحديث، والمتحف الوطني، والمتحف الإثنوجرافي المفتوح. وفجأة، رنَّ جرس في رأسي حين وقعت عليه عيني في موقع البحث: المركز الوطني للوثائق والمخطوطات. 1/3 شارع "ميراب أليكسندرة". للمرة الأولى لم

أتلهف على البحث عن تاريخ "ميراب أليكسندرزه" هذا الذي سمي الشارع على اسمه؛ لأن اسم مؤسس المتحف قد قرع أجراً أعلى صوتاً، فقد كان اسمه "إيليا أبوладزه". أتغافل منذ فترة عن أمر يحييك به صدري لو انتبهت له ونقتب، لوجدت لي جذوراً راسخة في هذا البلد، فإذا كانت "الشوافيلي" ها هنا قد تحولت إلى "إيلشوفيلي" فلم لا تكون "أبو لاسة" هي نفسها "أبولاذة"؟ إن صح هذا الاحتمال، سيكون الكنز الموعود أرضاً خصبة فسيحة كالتي كانت تمرح فيها "أمرا" أو جبالاً مهيباً أو مزارع ومعاصر كروم كالتي شهدت طفولة "أمينات"، سأبيعها بمبالغ طائلة وأحمل كنزي وأعود إلى "چيمي جدو". لا تخيل نفسي أقيمت إقامة دائمة في أرض بعيدة عن الأرض التي يقيم فيها "چيمي جدو"، فهو ليس رجلاً عادياً استوفى مدة على الأرض وصار مثل أي فقير يبكيه الناس ويترحمون عليه. "چيمي جدو" بالنسبة لي كائن حي، ينام نوماً طويلاً هادئاً في حوش القرافة بجوار نبتة صغيرة لنخلة، ينشر عليها الحراس كل يوم ماء من الوعاء نفسه، فتمتصه التربة وتمزجهما معًا لتعطيه النبتة طراوة، ويفتحها "چيمي جدو" نماء. يبدو أنني من كثرة ما أعطيت أذني لحواديت "أم إدريس"، تخللتني سيرتها للدرجة التي صرت كالتاريخ الذي يعيid نفسه، وساختار البقاء بالقرب من أرض الرجل الذي أحبه، فيتندر الناس بحكاية المرأة المخبولة التي تركت وديانًا وجبالاً وأنهاراً لتجاور جثمانًا في قرافة، شأنى شأن "أم إدريس".

سقيث أصص الفل والريحان الموضوعة على سور البلكون كما أوصتنني "تارا"، وما إن بدأت تصل إلى مسامعي نداءات النسوة على أولادهن، ممزوجة بزقزقة عصافير الصباح، حتى ارتديت ملابسي واستقللت التاكسي متوجهة إلى شارع "ميراب أليكسندرزه".
قلت للسائق:

- متحف المخطوطات.

فنظر لي باندهاش، واعتبرني معتوهة تهذي. تقطع السيارة الشوارع التي لا أكاد أراها من فرط التوتر، كأنني متوجهة إلى ^{72%} _{الجهاز الثانوية العامة}، أو للحصول على نتيجة تحاليل طبية

لمرض عضال، فقد قرأت ليلة أمس على الموقع الإلكتروني للمتحف إنه يحوي مجموعة كتب مقدسة تُشبه تماماً النسخة التي بحوزتي، بالإضافة إلى مخطوطات بلغات أخرى محفوظ مثلها في القدس وجبل "سانت كاترين"، وبارييس و"سانت بطرسبرج". يوجد أيضاً في القسم الأدبي بعض المخطوطات الأصلية لـ"شوتا روستافيلي" لملحمة التماريات، ومخطوطات لـ"تولستوي"، وـ"ديستويفسكي". لو كنت معـي يا "شادي"، لدفعت نصف عمرك في مقابل إلقاء نظرة على تلك القطع الورقية النادرة.

انحرف بي التاكسي يميناً ويساراً مرّات عدّة حتى وصلنا إلى شارع "ميراب أليكسندرزه"، وأخذنا نبحث عن رقم مبني مركز الوثائق والمخطوطات؛ لكننا لم نجدـه. استوقفنا عدّة أشخاص في الشارع لسؤالـهم، رجال ونساء وشباب، فلم أحصل سوى على النظرة المتشككة نفسها بأنـي كائن فضائي هبط عليهم ليـسأل عن أشياء خرافية. اقتربـت منـا امرأة خرجـت للتوّ منـبيتها، وسمعتـني وأنا أسألـ المـارة في إصرارـ ويـأسـ مـعـاً. أشارـت بهـدوءـ وـثقةـ للمـبنيـ الذيـ نـقفـ أمامـهـ بالـضبطـ وـالمـجاـورـ لـمـسـكـنـهاـ. هـرـعـتـ بـخطـىـ حـثـيثـةـ نحوـ المـدخلـ وـكـأنـيـ قدـ تـسلـمـتـ الـكنـزـ بـالـفـعلـ، فـقـدـ أحـضـرـتـ نـسـخـةـ الإـنجـيلـ مـعـيـ لأـقـارـنـهاـ بـالـنـسـخـ المـعـروـضـةـ، وـلـأـتـأـكـدـ أـنـيـ لـأـسـعـىـ وـرـاءـ سـرابـ.

استوقفـيـ موـظـفـ الاستـقبالـ، وـعـانـينـاـ كـثـيرـاـ، وـاستـعـنـاـ بـآخـرـينـ لـكـيـ أـشـرـحـ لـهـ أـنـيـ لـاـ بدـأـ زـوـرـ قـسـمـ المـعـروـضـاتـ، وـرـدـ عـلـيـ بـأنـ المـركـزـ مـغلـقـ لـلـصـيـانـةـ وـلـاـ يـسـتـقـبـلـ الزـائـرـينـ. لـمـحـتـ قـطـعةـ مـتـواـضـعـةـ مـنـ الـورـقـ الأـبـيـضـ مـلـصـقـةـ عـلـىـ الـحـائـطـ، وـمـرـسـومـاـ عـلـيـهاـ سـهـمـ صـاعـدـ وـمـكـتـوبـ بـالـإنـجـيلـيـزـيـةـ: إـلـىـ قـاعـةـ "أـبـولـادـزـةـ". فـهـمـتـ وـسـطـ الـمـهـاـتـراتـ أـنـ يـمـكـنـيـ أـنـ أـعـودـ بـعـدـ شـهـرـ، فـعـدـتـ إـلـىـ الشـقـةـ فـيـ حـالـةـ إـعـيـاءـ مـنـ السـهـرـ وـخـيـبةـ الـأـمـلـ.

فتـحـتـ المـوقـعـ الـإـلـكـتـرـوـنـيـ لـمـركـزـ المـخـطـوـطـاتـ، وـدـخـلـتـ إـلـىـ الصـورـ لـأـجـدـ شـبـيـهـ؛ إـنـجـيلـ منـ الـقـرنـ الثـانـيـ عـشـرـ، مـكـونـ مـنـ مـائـيـنـ 72% وـثـلـاثـيـنـ مـنـ صـفـحةـ "مـكـتـوبـ" بـخـطـ الـنـسـخـ الـجـورـجـيـ الـقـدـيمـ عـلـىـ

عمودين، ومزين بصور القديسين الذهبية، تجاورها مخطوطات مقدسة من القرن الخامس، طمس ما عليها لشكتب "مزامير داود".

ثقلت جفوني من كثرة التركيز، وجلبت كلمتي "المزمير"، و"داود" ذكرى حواديت "أم إدريس" بصوتها المحسنة الناعس عن الدين الذي لا يعرفه كثير من الناس ويسمى الزابور.. وعدوبة الألحونات القدسية.. و"داود" النبي.. والـ"عمنون" .. وـ"ثamar" ..

وكان يدًا غير يدي هي ما تدق أزرار البحث الإلكتروني وتكتب "الحل الأثرية في چورچيا"، فتظهر غوايش وعقود وأوان وأقراط من الذهب من القرن الخامس الميلادي، تم العثور عليها ضمن ما يسمى كنوز "أحالجوري"، وتشبه تماماً فردة القرط المتکسرة التي بحوزتي. برؤية مشوشة تماماً، وبأصابع ترتعش من فرط الدهشة والإعياء، أكتب وأنا أغرق في عمق سحيق من النوم:

عزيزي القس المُبَجَّل "أندراوس"،

مددث فترة إقامتي لأجل غير مسمى. أنتظر لقاءك على أحد من الجمر.

لن أغادر "تبليسي" حتى ألقاك.

خالص تقديرى واحترامي.



"تمار الشوافيلي".

ـ 94 دقيقة متبقيـة من «تمار ..



(13)

للمرأة الثانية أقف في مواجهة حقيبتي الضخمتين ونزول الأدوار الثلاثة في العمارة المهجورة، فقد انتهت المدة المحددة للإيجار ويجب على إخلاء الشقة للسكان الجدد. لفحت "أميات" الحقيقة الفوشيا بيديها العفيتين، وساعدت "أمرا" في حمل حقيبتي الموف. آه لو تعرف المرأة أنهما تتکَّدان كل تلك المشقة وأنا لم أرتِ زِيًّا واحدًا من التي جئت بها من مصر، واكتفيت بالفساتين الجورجية الواسعة التي تُشبه الجلباب الفلاحي.

عرض عليَّ "أمجاد" منذ بضعة أيام غرفة بفندق "ميجوتيل"، بنصف سعر شقة "تارا"، حتى يتسنى لي العمل الجديد بسهولة، كمُرافقة سياحية لنزيارات الفندق. أما المواجهة الأخرى التي أعمل لها ألف حساب لولا سخاء العرض هي كيف سأضع عيني في عيني "ريموندا" موظفة الاستقبال كل يوم بعد أن سطوت على وظيفتها الإضافية.

عدت للغرفة المطلة على كنيسة "ساميبا" بصلب رحلاتها المدرسية وحفلات زفافها وباصات الشركات السياحية التي تفرغ أنسًا سعداء يرطبون بكل اللغات تحت بلكوني. أما اللغة العربية بجميع لهجاتها فتصل إلى أصواتها من الدهليز المقابل، والموضوع فيه المكواة ومنضدة الكي المتاحة بالمجان للنزلاء. عرفت من "أمرا" أن اليوم إجازة "ريموندا"، فنزلت إلى المطعم المواجه لمكتب الاستقبال بكل شجاعة. أعدت لي "أمرا" حساء ودولجين محممة وشاياً مصرىً بالنعناع، تناولته على أصواتي⁷³

موسيقى أغنيات جورجية وفرنسية وأرمينية؛ بينما تدور على شاشة التليفزيون الكبيرة المعلقة على الحائط أحداً متشابهة على قناة "العربية". لا أصدق أنني مُحاطة بكل هذا الونس والسحر اللذين صنعواها "أمجاد" بأن أضفى على هذا المكان "الكوزموبوليتان" الصغير لمسات مصرية بمنافض السجائر على الموائد والأطباق الخزفية على الحيطان المزخرفة بأيقونات "توت عنخ آمون"، و"إيزيس"، و"حورس". روح وراحة، كلمتان تترددان في رأسي وكأن ملاكاً يُملئهما عليّ. هذا المكان روح بالنهار وراحة بالليل. تدفق تيار هوائي من الباب الصغير، ممتزجاً بدخان الشيشة التي يُشعلها "أمجاد"، فعطست بصوت حادٌ. فوجئت بالبنات الجورجيات الثلاث اللاتي يقفن في مكتب الاستقبال يهتفن بحماس في نفس واحد:

- الحمد لله.

وللمرة الأولى منذ شهور أضحك ملء القلب.

. "أمجاد" معلم فاشل. أنا التي تقول الحمد لله بعد العطس، لا أنثـنـ.

وبينما أشير بإصبعي نحو "أمجاد" الجالس بجوار الباب، تدخل "ريموندا" وتتجه نحوه مباشرة، وتقول:

. "تمارا.." عرفت أنك وصلت منذ قليل. أريدك في أمر مهم.

. أقسم أنني كنت سأعتذر لك، فلا ذنب لي.. "أمجاد.." اشرح لها إنك أنت الذي...

. هل لديك بعض الوقت لتناول القهوة بعيداً عن هنا؟

لم نبتعد كثيراً، فقد أخذتني "ريموندا" إلى الجانب الآخر من المدينة القديمة لنجلس على مقهى في مواجهة كنيسة "أبو تبيليلي" المنحوتة في المرتفعات الصخرية المطلة على نهر "كورا"، جنباً إلى جنب مع البيوت الجورجية ذات الطرز الشرقية، والبلكونات الخشبية الملونة. أتوقع أن تلومني "ريموندا" أو

73% دقة متبعة من «تمار..» 92%

ستخسره جراء سطوي على وظيفتها. فلأبادرها وأقول لها إنني غير متمسكة بالوظيفة، وإنني لن أنسى معرفتها معي في اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى "تبليسي"، فقطعت هي الصمت وقالت:

. هل تُسدين لي معرفة؟ هل يمكن أن تأتي غداً لتناول العشاء معي بالبيت لكي يتفرّج أبي وابنتي على شكلك؟

تزداد "ريموندا" غموضاً كلما استطردَت في الحكي، خاصة حين قالت:

- جئت بكِ خصيصاً إلى هذا المكان بين كنيسة القديس "أبو تبيليلي" ونهر "كورا" الذي امتلأ ذات يوم بالدماء؛ لأنَّه المكان الأفضل لسرد حكاياتي.

امتصصٌ توثر "ريموندا" بصمتِي الإجباري، فلم أجد قوًّا مناسباً لهذا الموقف الحرج بالأساس، وأخيراً قالت ما يفسر الأمر قليلاً:

. أحببُت رجلاً مصرياً من نزلاء الفندق يعيش في دبي واتفقنا على الزواج، وأهلي لا يوافقون. لو قابلوكِ وتتكلّموا معاً قد يقتلونكِ لأنَّ ليس كل المصريين يتزوجون أربع نساء، ولا يسمحون لزوجاتهم بالحركة خارج البيت، والأهم أنَّ المسلمين لا يحملون السكاكين والخناجر ليقطعوا رقبَكَ من يتمسَّك بال المسيحية.

لاحظت "ريموندا" أنَّ بدني قد اقشعرَ من جملتها الأخيرة، وقالت:

- هذا تعبير مجازي، فلقد درست الآداب والفلسفة، أما أهلي فأناس بسطاء ومؤثرون بما تتناقله الأجيال من حكايات التاريخ، وبما تعرضه السينما من أفلام تحكي عن خطف العرب والأتراب للأطفال الجورجيين ليصبحوا مماليك في قصور سلاطين مصر والشام، وكيف كانوا ينتزعون من أحضان أمها لهم ويقتلون عن إخوتهم، ليصيروا جنوداً يحاربونهم ويقتلونهم حين يكبرون. أما أنا فكم أتوق إلى الذهاب إلى مصر لأشاهد ما شيدَه المماليك من آثار، ولأطأ الأرض التي مشى عليها أجدادِي كملوك سلاطين^{74%}

تنعموا في أفحى القصور، وازدانوا بالحرير المنسوج بخيوط الذهب.

سألتني "ريموندا" إن كنت أعرف "علي" و"نينو"، أو "أبو تبيليلي" فأجبت بالنفي. قالت إن "أبو تبيليلي" يسمى بالعربية "أبو التيفليس". يُقال إنه قد استشهد في الموقع نفسه الذي بُنيت مكانه هذه الكنيسة التي أمامنا. ولد في العراق في القرن الثامن، وكان شاباً مسلماً متديّناً يعمل في تركيب العطور. وذات زيارة إلى چورچيا، قرر أن يدخل في مناقشات مع كهنة وأساقفة البلاد، تشمل أدق التفاصيل الدينية، ودفعته هذه النقاشات إلى الاقتناع بال المسيحية، ومع ذلك تردد في إعلان عقيدته الجديدة، فقد كانت چورچيا تحت حكم الخلافة العباسية، لكنه ظل يُصلّي الصلوات المسيحية سراً. سافر "أبو" إلى "أبخازيا" التي لم تكن تحت سيطرة العباسيين، وأعلن ديانته الجديدة وانخرط في حياة الذهد والصلة، ثم عاد إلى "تبليسي"، وظل نحو ثلات سنوات مقیماً ومبشراً بين الشعب، فاعتقلته السلطات العباسية وحاكمته بتهمة الردة عن الإسلام، لكنه رفض التخلّي عن المسيحية، ونُفذ به حكم الإعدام. تناقل الناس الروايات عن أن آخر كلماته كان "الشكر لله" لأنّه حوال مهنته من تركيب العطور الدينية إلى الدعوة السماوية باتباع العطور الحلوة لوصايا المسيح. واعتبر قدّيساً وشهيداً وشفيعاً لمدينة "تبليسي". أما كوبري "ميتيخي" الذي نراه من هنا، فيسميه الجورجيون "كوبري المائة ألف شهيد". ففي القرن الثاني عشر، دخل "جلال الدين خوارزم" شاه "تبليسي"، وذبح أهلها المسيحيين، وتحول نهر "كورا" إلى اللون الأحمر. أما الرواية التي تتمسّك بها الأمهات فهي حكاية "علي" الأمير المسلم من "أذربيجان" الذي أحب "نينو" الجورجية المسيحية من صميم قلبه، وتحدى الظروف، وتزوجا، وأنجبا بنتا، إلا أن الموت أخذ "علي" وافتراقا ولم ينفعهما الحب والتضحية، حتى وإن خلّد الفنانون المعاصرون قضّتها في تمثال "علي" و"نينو" المتحرّك في مدينة "باتومي". هذا ما يعتقد فيه أبي ويلقنه لابنتي ليلاً نهار.

. وماذا سأفعل أنا بمفردي أمام كل هذا الموروث الثقيل؟

. لا شيء. سترتد़ين فقط فستاناً أنيقاً، وتتحدىن عن مُقتطفات من حياتك اليومية في مصر، وأهلك العصريين المُفتوحين، وسفرياتك، ودراستك للموضة بالخارج. كما سأمنحك فرصة عمل أخرى كمُدرّسة لغة الإنجليزية لابنتي، فهي تعشقها وتعشق كلَّ من يتحدثُها بمهارة.

. وما رأي والدتك؟

. ثُوقيت منذ سنوات في حادث سير، فارتاحت من أناقية أبي، وشربه للنبيذ ليلاً نهاراً، وتركها تعمل فترتين لكي تسدد رمقنا، ولو لأن طفولتنا كانت في الحقبة السوفيتية ما كنا نلنا أي قسط من التعليم، ولاكتفى أبي بتشغيلنا في أعمال الفلاح في مزرعته الصغيرة. كانت أمّاً جورجية أصيلة كتمثال "الأم چورچيا" الشامخ أمامنا، فخورة ومُثابرة، لكنها مغلوبة على أمرها، ومن أعظم إنجازاتها أنها تشبّثت بزوجي السابق في الحادث نفسه الذي ماتت فيه، ظنّاً منها أنه سينقذها، فأخذته معها وأنقذتني أنا منه، فلم يكن أفضل حالاً من أبي. هل ستقدّمين لي الخدمة وتأتين لتناول العشاء معنا غداً؟ وبالمناسبة، سيكون معرفوك هذا هو الأجر الذي ستدفعينه مقابل حرص التاريخ والإرشاد السياحي التي أعطيتكم إياها الآن وستنفعكم في وظيفتك الجديدة التي كنت أريد أن أتخلّص منها أصلًا لأتفرق لإجراءات السفر إلى دبي.

. هل سيؤثر ردائي الجورجي هذا على وجهة نظر أهلك ويجعلهم يقتعنون بي؟

. لا، أرجوكم أن ترتدي زياً عصرياً عادياً، فالنساء الملتزمات هنا ترتدِن الفساتين الواسعة المُريحَة من قبيل التديّن لا التزيّن؛ لأنهن يعتبرن البنطال حراماً. أريدكم أن تبدي على طبيعتكم، وليس كسائحة تلهو في أزياء أهل البلد من قبيل التسلية والبهجة المؤقتة.

ستخرج أخيراً ملابسي الضيقة، وعطر "شانيل تشايس"، وكعبى 74% دقيقة متبقيَّة من «نفار»

العالی من حقيبة السفر، وإن كنث أشك أنها سلائم قياسي
الجديد، وحتى يحين موعد رد الجميل لـ"ريموندا" مساء غدٍ،
سأجهّز بنطالي الجينز، وببلوزة حريرية ناعمة، وأجرّب لفّات عدّة
للكوفية التي أهداها لي "مطیع"، لأرتديها صباح غدٍ حين أذهب
لحضور معرضه في السوق المفتوح.



احتُرث هل أحِكَم لفَّ كوفيَّة "مطِيع" حول كتفي مثل وشاح أنيق، أم أطويها حول رقبتي باستهتار مقصود؟ عقدتها من الخلف لتتدلى على صدري على شكل "سبعة" أو عالمة النصر، وتوجَّهت في ثقة إلى المنطقة التي وطئتها مراًأة أيام تسْكُنَى الأولى في "تبليسي"، حين لم يكن لي ملاذ ثري بالألوان والمقتنيات والفرجة المجانية، السوق والمعرض المفتوح عند كوبري "درابي بريديج". لم يستغرق وقتاً لتحديد موقع "مطِيع"، فهو الركن الوحيد الذي يتحلّق حوله جمع كبير من الناس الصامتين، وتشرخ الهدوء نبرات صوته التي تتلَّون ما بين ضعف، وقوه، وحزن، وفرح، وفقاً لمُتطلبات الحُدوة. لا أستطيع أن أحَدَد إن كان "مطِيع" حَكَاءً ماهِرَا بالفعل، أم أن الأطفال ينجذبون لتشابه البراءة بينهم وبينه، وأن الرجال ربما يصبرون على الفرجة لكي يصلوا إلى نهاية بطولية تُغْذِي ذكورتهم وسط الأساطير والخرافات التي يدَّشُها وسط الحكايات، أما النساء فيتخلَّين عن حبهن للثرثرة ويُسكتنن أمامه؛ لأنهن غالباً مثلَّي أنا، لا يستطيعن أن يقاومن وسامته.

- تزوج غيري في عَزِّ الحرب، في عَزِّ حاجة الرَّلام، كُنْث بنت تلاتين سنة في عَزِّ صبَّاي، وفي عَزِّ جمالي.

يحكى حكاية على لسان امرأة فلسطينية في مخيم "البقعة" بالأردن. تزوج عليها زوجها أثناء الحرب عام 1967، وتركها وأولادها الصغار بلا أموال؛ لكنها عملت بالحياكة وبتصليح الملابس، حتى صار لها دُكَان صغير تبيع فيه أَزْرَاراً وَكُلُّف ولوازم الخياطة البسيطة التي تصنع أثواباً عظيمة "كالتي سُنحَّكَ حكاياتها في المعرض" كما قال.

لا يتمايع "مطِيع" أو يتقصَّع أو يرقق صوته كما يفعل الرجال حين يُقلُّدون النساء. والمدهش أكثر هو أن "مطِيع" يكون أكثر دلالة ورقةً حين يتكلَّم بلسان حاله هو، خاصة حين تطربني كلماته الشاميَّة مثل "هَلَّا"، و"هُونَ"، و"هُونِيك"، أو حين يُقطِّع كلمة "جلو" فتقطر شهدًا مع كل حرف وإلتوادة لسان. يلمحني "مطِيع" عن بعد، وأنا أُعد الكوفيَّة التي أهداها لي، فيشير نحوي بصوتٍ ^{75%} قال قبة ويسند عينٍ تمايلٍ⁷⁶ الحُدوة مثلما فعل المرأة السابقة عند

مسرح "ريزو جابريادزة".

- شايفين هالكوفية على شكل سبعة ياللي لابساها الحلوة؟ لما اتهجّروا الفلسطينية في عام 1948 ظنوا إنه مو هيغادروا بيولتهم أكثر من سبعة أيام، وبعدين صارت سبعة شهور، وسبع سنين، وسبعين سنه.

يحكى "مطيع" جزءاً بلهجته ليُدَغْدِغ آذان الجمهور ويُلْفِت انتباهم للجرس الغريب، ثم يعيد الحكي بالإنجليزية والجورجية والروسية.

أعترف بأن ما جاء بي ثانيةً لملاقاوة "مطيع" هو شغفي لمعرفة حدوته الشخصية، وكشف غموضه وتصرُّفاته الهروجاء، التي تتعارض مع اللفتات الناعمة التي يهدّهديني بها حين أكون في أشد العوز للطبعبة.

. يؤبّشني صباحك.

. بتقول إيه؟

. مش عم تقولي عليّاً ما ياص؟ يؤبّشني يبقى الدّلع تاع يقبرني.

. فلسطينية الكلمة دي؟

. والله ما بعرف إن كان حكيي فلسطيني، ولا سوري، ولا مصري، ولا أبصراً إيش، من كُـتر ما لقيت بالبلاد. على كل لون يا "باتيستا" متنل ما عم بتقولوا. أنا بحسدك إنك بتحكي مصري خالص.

. طيب مش هتعلمني أبقي حكاواتيّة زي ما اتفقنا؟

. عطيتك أول درس خلص.

!!!؟..... .

. تشوقّي المستمع عشان يضل بيجي لعندك، متنل ما جيتيني هلاً وأنت مو طايقاني. مش كده يا حلوة؟ أما الدرس الثاني هو إنك ما تنكسفي تحكي. إحكي أي شيء عن حالك عن أهلك.. عن

حبيبك.. حتى لو كانت الحدّوٰتة خلصت وبتشوفيها ما بتسوى،
بيجوز بتسوى كتير عند غيرك.. عندي أنا مثلاً.

- خلاص.. علمني أحكي من غير ما أتكلّف، بس ابتدئ أنت..
ونعملها لعبة.. حكاية منك، وحكاية مني.

. مو سمعت حكاية المرة ياللي جوزها تركها بالمخيم وصارت تبيع
وتشتري؟ هاي إمي. تعني فرجيكي شو خيطت هي وجاراتها وشو
باعوا وشو اشتروا وبحكيكي قصة كل إشي.

تقدّمني "مطيع" بخطوات واسعة نحو البقعة المنصوب فيها
معرض التراث الفلسطيني، وأخذ يتكلّم؛ لكن كأنه يُحدّث نفسه.
قال لي يكفي أن يكون لديك ولو مستمع واحد يسمعك بحماس
كافٍ لكي ينقل حكاياتك للآلاف، ويكتفي أن ترتدي امرأة واحدة
ثوبًا تعرف حكايته لكي تثبت لكل من يراها أن لهذا الثوب بلدًا له
تاریخ يحافظ على ثيابه من أيام الكنعانيين.

اختار "مطيع" ثوبًا مدهشًا من بين الفساتين الكثيرة المفرودة
والمعلقة في الحديقة، ورفعه إلى أعلى، وقال بالإنجليزية:

- هذا ثوب عروس مدينة "بيت لحم"، واسمها ثوب الملك، وغطاء
رأسه هذا اسمه الشطوة، ومُرْضَع بالذهب، والفضة، والمُرْجان،
سرقته "إسرائيل" وسجّلته ضمن تراثها في المجلد الرابع
بالموسوعة العالمية.

ألقى "مطيع" الثوب على المنضدة العريضة، وسحب ثوبًا ثانئًا،
وثالثًا، ورابعًا، وأخذ يقول:

- وهذا ثوب "أريحا" أقدم مدن الأرض، لذا عليه تطريز بطول
الثوب. وهذا ثوب "نابلس" يشبه الأثواب الدمشقية بسبب
التجارة والسفر بين البلدين، أما التطريز النبيذي هذا فمن "رام
الله"، والأحمر البرتقالي لـ"بئر السبع"، وهذا الثوب الساحلي يشبه
الإغريقي، والصحراوي لا تطريز به لأن النسوة لم يكن مُرفّهات
ويملّكن الوقت؛ لأنهن كن يزرعن ويكدحن...

ان فعل "مطيع" بدرجة كبيرة، وطفح الطفل الذي بداخله على ملامح وجهه، حتى إن عينيه تندتا بالدموع. سأله إن كان بخير فأجاب:

- بحب النسوان كتير.

قلت له بمكر:

- كل الستات؟

فقال:

- نعم.

. تبقى ما بتحبّش ولا واحدة.

. تعي فرجيكي بحب مين كبير، الساعة عشرة الصبح في شارع "روستافيلي"، هتلتقيني ناطرك في ميدان "الحرية"، ومعي بوكيه ورد كبير. اعملي حسابك بنقضي اليوم سوا، وبحكىكي حدّوتة، وتحكيني حدّوتة.

لست جاهزة لاعتراف بالحب من "مطيع" أو من غيره. لا أنكر أن كلماته التي تتلوّن بالمعاني تُغذّي أنوثة ومشاعر كادت تجفّ من فرط الهجر؛ لكنني لا أؤدّ أن يتتطوّر الأمر لأكثر من دلال أو غزل عابر يعينني على عبئية انتظار القس "أندراوس"، ومشقة العمل الذي سوف أبدؤه كمفاوضة للسائحات، والفيديوهات التي سأصوّرها لأحصل على أموال مقابل الإعلانات. أما من أحتج إلى اعتراف صريح بحبيها فهي ابنة "ريموندا"، مُستمعتي الوحيدة التي سأحدّثها بإنجليزية تُبهرها، وسأرتدي لها فستاناً مرحاً ماركة "دولشي أند جابانا"، لكي تتأكد أن المصريين لن يذبحوا أمّها ويُلقوا بها في نهر "كورا" إن تمسّكت ببياناتها، مثلما فعل رجال "خوارزم شاه" الذي أتى من "أوزبكستان" وقت أن كانت جزءاً من "خراسان"، بمساعدة بعض مسلمي چورچيا، حين كان اسمها "بلاد الكرج" منذ تسعمائة عام.



تأخر "مطيع" ساعة كاملة عن الموعد الذي حددته هو لمقابلتي في شارع "روستافيلي"، عند بوابة حديقة "الجمهورية الجورجية الأولى". قال لي سائقبالي في "كبسولة الزمن" لأحكي لك حدوثتي. لم تكن الحديقة المكان الأكثر رومانسية أو أناقة في الشارع الأشهر في "تбليسي"، فلقد دخلتها أثناء تسكيعي ذات مَرَّة، وحاولت أن أقع في غرامها، لكنني لم أستطع، وتركتها إلى ميدان "الحرية"، حيث النصب التذكاري الذهبي شاهق الارتفاع لـ"مارجرجس"، والمقاهي ذات الطابع الأصيل التي تطل على نهر "كورا". لا يؤنسني الآن سوى قراري بدخول الحديقة وانتظار "مطيع" على الدكَّة الأولى بالقرب من البوابة، ومحاولة فك رموز حملته التي قالها لي بالأمس، أن أرتدي بنطالاً جينز، وبلوزة 80 دقَّقة متبقيَّة من «تمارين» 76%

لاأدري إن كانت هذه إحدى مناوراته الكلامية لكي يبقيني على قيد الشغف بمقاتلاته، مع الحيرة في أمره إن كان يلْمَح لأن تأخذ علاقتنا مجرى آخر أم لا.

لولا أني ممتلئة بالدهشة والشعور بالتحقق في آن واحد، من زيارتي لبيت "ريموندا" ليلة أمس، ما كُنْتُ لأغفر لـ"طبع" أبداً عدم التزامه بالموعد. لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير في مشاهد الاحتفال الصغير، أو "السوبرا" كما يسميه الجورجيون، ووالد "ريموندا" الذي تولّى دور الـ"تامادا"، أو الرجل الذي يرفع الكأس ويلقي كلمة كنخب للترحيب بالمدعويين. كان والد "ريموندا" يشبه التمثال الذي يضعه الجورجيون في بعض الحدائق العامة لرجل يمسك بقرن من العاج أو الخشب ويشرب فيه النبيذ. يظل الرجل الـ"تامادا" يشرب ويشرب حتى آخر "السوبرا" شريطة ألا يفقد عقله أو خفة ظله أو قدرته البلاغية، حتى وإن سكر بعض المدعويين. الأمر العجيب هو أن والد "ريموندا" رفع كأس النخب الأولى من أجلي، أنا التي ذهبت إليه مرتبعة من أن يطردني. ظل يقول كلاماً إنشائياً مثل:

- نخب الأميرة الفرعونية التي جاءت من بلاد تنعم فيها أجدادنا بالجاه والسلطان وانصهروا بالحب والزواج مع أهلها منذ قرون، حتى صار لنا أبناء وأصحاب تجري الدماء الجورجية والمصرية في عروقهم.

ثم رفع كأسه، وقال:

- نحب الدماء المتداقة في العروق.

ارتبث من ذكر الدماء وسط المديح، لكن "ريموندا" شرحت لي إنهم يذكرون محسن كل شخص في الـ"سوبرا"، لا للتملق أو للنقد المستتر، بل ليعززوا في نفسه صفاتـه الحميدة، فيتمسك بها أكثر ولا يظهر جانبه السيئ لصاحب الحفل أو الآخرين. أما الأروع فهو أنني لم أبذل جهداً يُذكر مع ابنة "ريموندا"، فقد تولّى أمر المحبة البنطال الجينز الضيق المقطوع عند الركبتين والبلوزة الـ"دولشـي" ٨٧% التي ارتديتها، فضلاً عن الل肯ـة البريطانية التي

تسحرها وحدثتها بها، فذاب كل الجليد من أول طلة. أما ما أشعرني أنني لم أغادر غرفتي بفندق "ميجوتيل"، فهو وجه "أمرا" التي تهلكت حين فتحت لي الباب، فهي تعمل وتقيم في بيت "ريموندا"، وجعلتها زيارتي تشعر بأنها صاحبة بيت؛ لأنها صديقة شخصية لضيفة أصحاب البيت.

لا يعرف "مطبيع" أنني حفيدة "جمال الشوافيلي"، الذي كان يسلم زبائنه البدل التي يفصلها لهم، في الموعد الذي يحدده بالساعة والدقيقة، لا فقط باليوم. إن غاب أكثر من ذلك، فليذهب هو وقصة حياته وفضولي في ألف داهية، فقد بدأت فعلاً أشعر بالغل تجاه استهتاره وغموضه.

ها هو يدخل في مشية بطيئة مستفزة، لا يمحو آثارها سوى ضحكة عينيه الطفوليتين وباقة الورد التي يحملها، والقبلتين اللتين وضعهما على وجنتي. يسحبني من كفي إلى رقعة من النجيلة ويأمرني بنعومة بأن أنام فوقها ليعطيوني الدرس الأول. تمزّبالي خاطرة بأن "مطبيع" ممن يهونون ارتكاب الأفعال الفاضحة في الطرق العامة، فقد كنت أمامه في شقة "تارا"، وأعد لي فنجاناً من القهوة وانصرف على الفور. فلاأسيره حتى أعرف آخره، فلن يجرني في النهاية على فعل شيء لا أرغب فيه. استلقيت على النجيلة، فوضع حقيبته الصغيرة تحت رأسي، واستلقي إلى جواري بنصف جسده مستنداً إلى كوعه، وقال:

- أول حدّوتة بحياتنا بتكون هيك.. بالتحت.. بالسرير يعني، بتحكيكي إياها إمك أو أبوكي، وأنا قد أبوكي.. لا أنا أبوكي.

- يبقى أنا أكبر منك دلوقي، لأن أبويا أصغر مثّي. أبويا ساب الدنيا وهو عنده أربعة وعشرين سنة.

. بسّ أنا أبوكي، من ساعة ما البت الرُّغِيَّرة، ياللي اسمها "سهر"، ولاقيتها ع الطيارة قاللي أديركالي عليكي مثل بنتي.

. طيب إحكي بقى.

77%
غايرفة ليش هحكيكي؟ هالحكاية؟ عشان عمرى ما جروت أطلعها

بِرَّا صدري، متل ما بيقولوا عندنا في الأمثال: "خليها في القلب
تجرح ولا تطلعها وتفضح". كُنْتُ ناوي أموت زي ياللي بيموت
ويموت علمه معه، بس بعد ما لاقيتك وقلتيلي على حكاية
الأفلام ياللي عم تصوّريها في أماكن من چورچيا، حسيت إن الله
بعتك إلي عشان بس أقولك ياللي حابسه بقلبي. أنا جبتك لهون
عشان عايزة تحسي بالحكاية مكان ما حصلت، ووين ما دفن
أهل چورچيا "كبسولة الزمن". وعايزة تفكّري باللي باقوله
بلهجتك أنتِ وعClark أنتِ عشان لما تحكي حكاياتي، تطلع صادقة
بصوت قلبك، حتى لو حكتيها هون بالإنجليزي أو الجورجي.

وضع "مطيع" راحة يده على رأسي وأخذ يمسح على شعرى،
حتى شعرت بألفة خشيت أن أنعس بسببها قبل أن يبدأ الحكي،
وحين قال:

- كان يا ما كان بقديم الزمان.. نحكي ولا ن GAM?
إلا أن نصيحته لي بأن أفگر بصوتي أنا جعلتني أنتبه مثل طالبة
علم، ولا أستسلم لغواية نبراته ولكتته.

يواجهني "مطيع" كعادته بحركة أو جملة تقلب كل موازيني. فتح
موقعًا للبحث من تليفوني ووضع الشاشة أمام عيني، وقال:

- هل تعرفين المخرج والكاتب الفلسطيني "مطيع الشيخ"؟

ظهرت صورة "مطيع" في أكثر من موقع، وعلى مدار عدّة أزمنة،
حتى إني تعجبت أن شكله بالشعر الأسود الكثيف والملامح
الشابة ليس لها حلوته نفسها بالشعر الفضي والتجاعيد الرفيعة
التي تظهر من خلف نظارته الطبية الآن. لاحظ "مطيع" شرود
ذهني، فألقى مفاجأته الثانية:

- هذا أنا لكنه ليس اسمي، وليس هذا الذي في الصور هو من
أحمله في روحي.

قال "مطيع" إنه سيخكي لي حكاية لا اسم لها مثله ومثل هذه
الحكاية التي تحويها وتبدلّت أسماؤها مرّات عدّة على مدار
77% دقيقه متبقيه من «تمار..»

مئات السنين، واستطرد بصوته الناعس:

- فر جدّي من قريتنا قبل سبعين عاماً؛ لأنّه كان متذوراً لثأر، وذهب إلى قرية تُدعى "بلد الشيخ" في فلسطين. كان بين قبيلتنا وبينهم نسب وعشرة قديمة فغيروا اسم جدّي لـ"ابن الشيخ" حتى لا يتعرّف على كُنيته من يطاردونه. وما إن زرع أرضاً وبنى بيّنا وأصبحت له ذرية حتى وقعت حرب ١٩٤٨ وصارت مذابح وتهجير وطرد من تبقي من عائلة أبيي. أما أنا فولدت بالمخيم بالأردن. سمعت كل التفاصيل المُريرة التي وثقتها في خمسة كتب كنوع من تنفيذ وصايا النساء المكلومات اللاتي كن يحكين حكايا الترويع. أما أنا بيني وبين نفسي كُنّت لا أشعر أن هذا ما أريده حقّاً. فحين كُنّت في الرابعة من عمري، أخذني والدي إلى السينما. أطفئت الأنوار، وكانت هناك نجوم حمراء وصفراء في السقف، ظل أبي ينظر إليها حتى بعد أن بدأ الفيلم. كان فيلم أبيض وأسود "عترة بن شداد"، ضرب، وخیول، وكُرُّوفُرُّ، لم أحبها لعنفها وصخبها؛ لأنّها كانت تعطّلني عن مشاهدة ماظنته الفيلم الذي كان يشاهده والدي، تلك النجوم المتلائمة بالألوان على السقف. كبرت وأنا متعلق بالنجوم وركوب السماوات والترحال، وبداخلي تمزّد على التعبير التقليدي عن حب الوطن، الذي يختصرونّه في مفتاح صدئ لبيت دمّرته الحرب، أو شجرة ليمون تظلّ عليه. كُنّت أعرف أن الجدران والأرض رمز الحماية والأمان؛ لكنني كُنّت أراها أحلاماً متواضعة بحجم الطموح في بناءة تهدمت، أو شجيرة جفت. كُنّت أرغب في الأرض والسماء معًا، فدرست التمثيل في مصر والإخراج في "هوليود" والأدب في فرنسا. ولأنّهم يشبهون المدن بالنساء في المجاز الأدبي، كانت لي في كل مدينة امرأة جميلة، أحبها حبًا رقيقًا ناعمًا، وأعود إليها بين الحين والآخر كلما جرفني الحنين إليها؛ إلا "بلد الشيخ" والقرى والمدن التي تحيط بها كانت محّرّمة علىّ، وعلى كلّ من يرفع شعارات "حق العودة"، فقد صارت مدننا الصغيرة نساء يُغتصبن وتتعرّى من أسمائها لتلبس ثوباً عبرياً فاضحاً. لست صاحب بندقية أو حجر؛ لكن معّي الحكايات وأسماء المدن والقرى الأصلية. «تعاتُ الحكايات في الكتب، ولم أعرف إن كان

78% ^{والأرقام الأصلية.} ^{تعاتُ} الحكايات في الكتب، ولم أعرف إن كان

من سيلتقطها سيعاملها برفق أم سيمسح بها القاذورات، فقررت أن أنثرها في الهواء حتى تتسرّب إلى وجдан الماءة، ناس من لحم ودم أنادي عليهم، ويحكون حكاياتهم، وأبيع لهم الثياب التي تقول حكايات غزلتها أنامل النساء. إلا أن حكاياتي أنا ظلت بلا عنوان أو اسم مثلي، ففي كل بلد أحبب فيه امرأة، فقدت الحرف الأخير من اسمي الذي لا تحمله أبجديتها، حتى صرت على ألسنة كل عشيقاتي "موتي". لذلك صار يلُّح علىَّ المثل الشعبي الذي كانت تردد النسوة "من طين بلادك لطع خدادك"، فاشتهيت بعد فوات الأوان امرأة مثل أمي، تحتفظ في بيتها بطنجرة صدئة، أو ثوب باهت لجذتها، وتعلق في صدرها مفتاحاً سلمه لها جدُّ جدها، أو مثلك تحتفظ بفردة قرط وكتاب مقدس، وتسافر بهما لآخر الدنيا ل تستعيد دارها المفقودة. صرت أحلم بأي امرأة تحمل أبجديتها حرف الـ"عين" ليكتمل في فمها اسمي وهي تتلوّي في لحظات العشق صارخة "مطيع.. مطيع"، وليس مثل "كاترينا"، التي من كثرة ما رددت "موتي.. موتي" دون أن تدري معناها بالعربية، كان لها من الاسم نصيب، وكنت لها "موتاً".

مدًّا "مطيع" يده في الحقيقة التي جعلها لي وسادة، وأخرج إكليلًا من الورد الصناعي الملوّن الذي تبيعه النساء عند كل ناصية، ووضعه فوق رأسي. أتصوّر أن شكلي أصبح الآن مثل بنات جزر "الهاواي"، وأقف استعدادًا لأن يمنعني باقة الورد الطبيعي التي كان يحملها حين دخل الحديقة، لكنه أبقاها معه، ثم جذبني ثانية من يدي، ومشينا نحو رُخامة عند بوابة الحديقة مكتوب عليها "كبسولة الزمن"، ومال نحوها وأراح باقة الورد الطبيعي.

ُكُثْ فاكراك حاتَّيني البوكيه الحلو ده، مش حاترميه ع الأرض!

- الورد الطبيعي مثل البشر، بيكون حلو بالبداية، بس بالأخير بيموت. عارفة إني ما اشتريت ورد طبيعي من عام 2004؟

. إشمعنى 2004؟

. من يوم ما اختفت "كاترينا".

. اختلفت؟

ما بحب قول "ماتت"، عشان ما بعرف إن كانت فعلاً ماتت في 2004، ولا روحها مشيت وسابت لنا الجسد قبل هالوقت بخمس سنين. اسمعي.. هاي درس الحكي الثاني، بتحكي وأنتِ واقفة هون جنب "كبسولة الزمن"، وهتحكي الحكاية كيف ما بذك بس المهم بيكون فيها كل ياللي هاقوله إللك.

يبدو أن شغفي بعالم الموضة والأزياء قد أثّر على ولعي بالتاريخ والمؤرخين فغفلت عن وجود ما يسمى "كبسولة الزمن" الرمزية التي عرفها لي "مطيع". لم أفهمه في البداية ثم شرح لي أنها عبارة عن مكان يضع فيه أهل البلد كل ما يخص حياتهم المعاصرة؛ صور، ملابس، خطابات، وأوراق بها تكهناً للمستقبل، يقومون بدهنها في موقع ما، ويضعون عليه حجراً أو رحاماً، محفورةً عليها تاريخ فتح تلك الخبيئة، بعد مائة عام أو أكثر، لكي يتواصلوا مع المؤرخين وعلماء الاجتماع في العصور التالية. أما "كبسولة الزمن" الخاصة بـ"تبليسي" هذه فقد دفنت في عام 2016، وسيتم فتحها في عام 2041 في العيد الخمسين لاستقلال چورچيا.

قال لي "مطيع" إنه يريد أن يكون قلبي "كبسولة الزمن" الخاصة بحكياته، شريطة أن أفتحها كل عام في مثل هذا الوقت، وأنذّر أنه في مثل هذا اليوم منذ ثلاثين عاماً جاء شاب إلى "تبليسي"، كان يحمل بداخله طفلاً يطير وراء نجوم السماء، وعاشقًا يجوب الأرض خلف النساء. وذات يوم قابل امرأة من چورچيا تدعى "كاترينا" في أرض ثلاثة غير أرضهما. كانا يسجلان كتبًا للمكتبات السمعية في باريس، هي تقرأ ما كتبه "إدوارد سعيد" عن الإمبريالية والصهيونية، وتجد تشابهًا مع حال بلادها مع الاحتلال الروسي، وهو يقرأ الملhma الشعورية لكاتب چورچيا الأعظم "شوتا روستافيلي"، الذي كتبها في القرن الثاني عشر في عهد الملكة "تمار". شف الشاب "مطيع" بچورچيا وتمنىً لو كانت "كاترينا" حبيبته تحمل اسم "تمار". كما شعر بقليل من الحسد؛ لأن روستافيلي "ميرقاد" في سلام منذ ثمانية قرون في كنيسة^{7%}

"الصليب المقدس" في القدس، وهي المدينة التي عرف "مطیع" لاحقاً أنها كانت مسقط رأس جده، وكان له فيها لقب آخر غير لقب "الشيخ". ظل "مطیع" يرسم "كاترينا" عارية كل مساء على مدار شهر كامل في غرفتها الباريسية الصغيرة، ولم يمسسها حتى لا يفقد شففته بها، فهو إن أحب امرأة بحق، ترك حبه يغلي ببطء مثل فنجان قهوة مظبوط. فقد كان يريد أن يرحل معها بالحماسة نفسها إلى بلدها ليرى بعينيه مخطوطات من القرن السادس عشر للملحمة الشعرية التي أوقعته بحبها، وليمرحا بقلوب ملتهبة في حدائق ومسارح ومتاحف شارع "روستافيلي". ويعلقان شريطاً حريرياً في غصن بشجرة الأمنيات بـ"متسيختا" بأن يظل حبهما متوهجاً. وأن يجربا كل أنواع وألوان النبيذ في "كاخيني"، ويغوصا ويذوبا تحت أمواج البحر الهائجة في "باتومي". تأكد "مطیع" أنه يريد أن يمضي باقي حياته مع "كاترينا"، خاصة حين أخذت تئن تحته وتكتم صرخ لذتها "موتي.. موتي".

تغاضت "كاترينا" عن غيرتها العمياء، وقررت أن تعرفه بصديقاتها. ولأن "كاترينا" كانت من عائلة ثورية قديمة ولا تصادق إلا من يشبهها، فقد حددت موعداً بأن يتقابل "مطیع" وصديقاتها في المظاهرة السلمية التي ستتجمّع أمام البرلمان في شارع "روستافيلي"، للمطالبة بالاستقلال عن الاتحاد السوفياتي، والاعتراض على حركات الأبخاز الانفصاليين الذين تحرضهم روسيا لكي يظلو مُنتميين لها. بدأ "مطیع" في الإضراب عن الطعام، تضامناً مع "كاترينا"، فهبط مستوى السكر في دمه، وشعر بدوار رهيب في اللحظة التي حاصرت فيها الدبابات الروسية الشارع، وأخذ عساكر الشرطة يضربون المتظاهرين فوق الرؤوس بجرائم، وسط الرؤية الضبابية والتدافع للهروب من قنابل الغاز.

كان "مطیع" ينظر إلى "كاترينا" وهي تهرب لإنقاذ صديقتها وتناديها ليساعدتها وكأنه في حلم مزعج، كلما هم بأن يرفع صوته ليخبرها بأنه سيغشى عليه أو يشدّها من ذراعها، خارت قواه. كان هذا في التاسع من أبريل عام 1989، حين فقدت "كاترينا" صديقتها الأعز إلى قلبها، واللاتي كانت منقطعة عن مقابلتها 70%^{70%} حشيشة أن تغresa "تماماً" بمطیع أو يُغرم بهما. فهمت من التواري

المذكورة في هذه الحكاية أن "مطيع" قد نفث كل الغليان الذي يحمله في صدره في وجه "أمرا"، وعاقبها على ذنب لم تقرفه، حين كانت بين المارة المستمعين إلى حكاياته، وقالت له إنها من "أبخازيا"، ومولودة في التاسع من أبريل. ثلاث خبطات في ضربة واحدة؛ ذكرى مذبحة "دير ياسين"، ومؤسسة "تبليسي" التي كان الأبخاز الانفصاليين من أهم مسبباتها. العجيب أن "مطيع" لم يتذگر توبيقه لـ"أمرا"، وبالتالي لم يشعر بالذنب حين قلت له إن الأبخاز قد شرّدوا "أمرا"، وطردوها هي الأخرى من ديارها على ذنب لم تقرفه.

تزوج "مطيع" بـ"كاترينا" بعد انقضاء فترة الحداد، زواجاً مسيحيًا للحصول على مباركة أهلها، وزواجاً إسلاميًا لنيل رضا أمّه. لم يُحمد الزواج الحب، خاصة أن "مطيع" كان يعمل مترجمًا بالنهار، ومُحرّك عرائس في مسرح "ريزو جابريادزة" بالمساء. إلا أن "مطيع" كان يلمح نظرة جانبية تُوجّها "كاترينا" نحوه، وكأنها تلومه لأنه لم يهرب لإنقاذ صديقتها، وأنه لولا ولع النساء به، ما كانت لتقاطعهما قبل وفاتهما وتحاسبهما مُسبقاً على ذنب لم يقترفانه أصلًا. نخر الحزن الذي تحول إلى اكتئاب مُزمن قلب وجسد "كاترينا". وفي الثالث والعشرين من نوفمبر عام 2004، تم بناء نصب تذكاري لضحايا المظاهرات التي حصلت چورچيا بسببها على استقلالها. أخذ "مطيع" باقة ورد كبيرة وذهب مع "كاترينا" إلى شارع "روستافيلي" ليهدى الورد إلى أرواح الشهداء، لكن "كاترينا" أغماي عليها، ونقلت إلى المستشفى، وتركت الدنيا قبل نهاية العام. اكتشف الأطباء أنها كانت تعاني مرضًا نادرًا خبيثًا، لكنهم لم يحددوا إن كان هو السبب في الاكتئاب، أم أن الحزن هو الذي استدعاه إلى جسدها. لم تعد لـ"مطيع" حاجة للأموال التي يُدرّها عليه العمل كمحرك للعرائس في ظلام المسرح، وصار هو دمية نفسه وبطلاً لحكايات النساء التي لا يستطيع أن يعبث بها المحتل، مثلما تبدل اسم قرية "الشيخ" إلى "مستعمرة نيشير"، ومثلما تبدل اسمه قهراً في الغربة من "مطيع" إلى "موتي".

وتوته توته فرغت الحدوة.

. ليش زعلانة يا حلوة؟ أنا زي البمب كيف ما بتقولوا. احكيكي نكتة وترقصيلي؟ طيب شوفي كيف صار لونك أسمرا من كُتر الطلع بالشارع والمياصة؟ بتعربني؟ إمي كان بدّها أتزوج واحدة سمرا، وكانت عم تقول "سمرا ونفحة ولا بيضا ودفحة". يالا يا سمرا.. بدّي أعرف بس مين المخبول اللي حاطتك هالورد العجيب على راسك، ولوين بنروح عشان تحكيلي مين أكثر واحد خربطلك حالك.

حتى وإن كان "مطيع" قد نجح في استعادة روح المرح بغازله وشغبه الطفولي، فقد بقيت على صمتي لبعض الوقت، لأنني لم أستطع أن أجد إجابة فورية لسؤاله، فمن يا ترى "خربيطي حالي" أكثر: "فادي أباظة" أم "شادي عبد الهادي"؟



(16)



ليتنا بدأنا لعبة الحكي المتبادل أنا و"مطيع" قبل أن أغادر شقة "تارا"، فهي المكان الأنسب الذي يصلح ملهمًا وخلفية لبداية حكايتها مع "شادي عبد الهادي"، نهار خارجي، الباحة الخلفية التي تكاد تماثل شقة "الدرب الأحمر"، زقزقة العصافير على أغصان شجرة التوت، والنسوة اللاتي يرتدين قمصان النوم في البلكونات ويشبهن "أنستازيا". والأهم هو حين يتحول الديكور إلى "ليل داخلي" فتطل روح "شادي" من اللقطات الفوتوغرافية الاحتراافية المعلقة على الحوائط، فضلاً عن الجمل المأثورة التي تمجد فن التصوير وتغذى غرور المصور.

قال "مطيع":

- شقتي مثل شقة "تارا" ياللي تركتها على فكرة. أنا ساكن بأول شارع "آجماشينيبيلي" يا بنت الجيران. وبتطل على الباحة ياللي عم يسموها "إيطاليان يارد"; بس بالدور الأرضي، عshan ما بطيق لا السلالم ولا الجدران.

.وليه ما قلتليش إنك ساكن جنبي أما جبتي من المطار وخدتني على أوتيل "ميجوتيل"؟

6. ^{كُلّ دُقُوقَةٍ مُخْتَفِيَةٍ مُتَكَبِّرِيَّنَ} عم بتحرّش فيكى.. أصلى كان بدّى 80%

أتحرّش فيكي.. بس إمي قالتلي ما تتحرّش ببنات الجيران. كمان فيه واحدة هونيك عم بتغير علىّ كتير. بتعنوري شو اسمها؟ "تامريكو".

لم تسمح لي "تامريكو" القطة بالدخول، فقد وقفت بعرض الباب الذي يفصل بين الشقة والبلكون المطل على الحديقة. حملها "مطيع" وأمسك يدي وجعلني أمسد على فرائها الغزير اللامع، فأغمضت عيني، بينما أتخيلها كلبي "چاكـيت". تساهلت معه قليلاً لكنها ظلت تنظر لي بعيرة نسائية أصيلة، حين تلهى عنها "مطيع" واسترسل في الحوار معه، ومع الجارات اللاتي أحضرن صينية شاي، وكيف مخبوزاً توأـ بنكهة البرتقـال.

كان اسمه "شادي".

. بدـك تسمعـي غـنية "شـادي" لـ"فـيروـز"؟

- لأـ. إـنت سـأـلتـنـي عنـ أـكـتر وـاحـدـ "خـربـطـلـيـ حـالـيـ". كانـ اسمـهـ "شـاديـ". وأـولـ يـومـ شـفـتهـ، كـنـثـ بـشـرـبـ شـايـ معـ كـيـكـ وـقـاعـدـةـ لـوـحـديـ سـرـحـانـةـ وـسـطـ نـاسـ كـتـيرـ فيـ مـكـانـ زـيـ دـهـ بـالـظـبـطـ.

كـنـثـ قـدـ عـدـتـ منـ لـنـدـنـ للـثـوـ، منـ رـحـلـةـ الـاستـشـفـاءـ منـ زـيـجـتـيـ الخـائـبـةـ، وـالتـقـلـبـ فيـ الـعـلـمـ هـنـاكـ عـلـىـ مـجـلـاتـ وـمـحـلـاتـ الـمـوـضـةـ، وـقـصـتـيـ الـقصـيـرـةـ معـ "أـلـبرـتـ" وـاضـطـرـابـ أـبعـادـ الـعـاطـفـيـةـ. أـمـاـ ماـ عـجلـ بـقـدـومـيـ فـهـوـ تـدـهـورـ الـحـالـةـ الـجـسـمـانـيـةـ وـالـنـفـسـيـةـ لـ"چـيمـيـ جـدوـ"، وـاستـغـاثـةـ تـيـتـةـ "ناـزـلـيـ" بـيـ لأنـهـ لـمـ تـعـدـ قـادـرـةـ عـلـىـ رـعـاـيـتـهـ.

كـنـتـ أـجـلـسـ فـيـ بـلـكـونـ الصـفـيرـ فـيـ الشـقـةـ التـيـ تـؤـجـرـهـ "أـنـسـتـازـياـ" لـلـفـنـانـينـ، عـلـىـ النـاحـيـةـ الـأـخـرـىـ مـنـ الـبـاحـةـ وـالـمـفـلـةـ عـلـىـ عـمـارـةـ تـيـتـةـ "زـكـيـةـ". ذـهـبـتـ مـعـ "ضـيـاـ"، وـكـأنـهـ المـرـأـةـ الـأـوـلـىـ التـيـ تـطـأـ فـيـهـ قـدـمـايـ بـاحـةـ "الـدـرـبـ الـأـحـمـرـ". إـحـسـاسـ غـرـيبـ يـنـتـابـ المـرـءـ حـينـ يـقـفـ فـيـ بـلـكـونـ جـارـهـ فـيـ الطـابـقـ الـأـعـلـىـ أوـ الـأـسـفـلـ، فـتـشـعـرـ أـنـكـ تـرـىـ الـمـشـهـدـ الـذـيـ تـرـاهـ مـنـ بـلـكـونـكـ كـلـ يـوـمـ؛ لـكـنـ بـمـنـظـورـ مـخـتـلـفـ، فـلـاـ تـدـرـيـ إـنـ كـانـ العـيـبـ فـيـ عـيـنـيـكـ، أـمـ أـنـ الـمـشـهـدـ يـُرـاـوـغـكـ. لمـ تـسـيـطـرـ عـلـيـ فـكـرـةـ أـنـيـ أـرـىـ أـصـصـ الصـبـارـ الـجـافـةـ،

وحزم الثوم المعلقة بمسمار، والكراسي الخشبية في بلكون تيتة "زكية" وكأنها لغرباء لا أعرفهم، فقد خطف عيني وتفكيرني مشهد أكثر غرابة داخل شقة الفنانين. كان هناك رسّامون كثيرون، يضع كل منهم أمامه لوحة، ويمسك بفرشاة، ويتبادلون أدوار الموديل المُراد رسمه. كانوا ينظرون بعمق في وجوه بعضهم بعضاً، وكان هناك فعلاً لممارسة الحب بين الأعين الثاقبة للرسام وملامح الموديل، ثم تتحوّل العلاقة المُريرة لعيوني مُحَقّق يُفتش عن الغرف المظلمة، واللحظات المُضيئة في الروح، ويختار أين سيضعها على الملامح؛ على الشفاه، أم فوق الجفون، أم على عظام الوجنتين، أم بين التجاعيد. كان المشهد بمثابة تحقيق صامت:

س: لماذا تنفرج شفتاك بضحكة عريضة، بينما تنكسر عيناك؟

س: لماذا تنظر إلى أبعد نقطة، بينما البؤرة القريبة هي الأجمل؟

س: لما لا تُحدّق في مثلما أحّدّ فيك؟

أما الإجابة فتتجلى على لوحة "الكانفاس" بألوان الزيت الثقيلة، أو على الورق "الكانسون" بألوان الباستيل، أو بقلم الفحم، مصحوبة بشهقات الانبهار من المشاهدين، وتنهيدة ارتياح من المرسوم، الذي انعقد تواً من وضعية التمثال.

كنت أشرب الشاي ببطءٍ وأنا أفكّر أن حتى "وديدة"، وهي تجلس في المدخل على كنبة عرّشها ذات الكسوة المُتسخة المُنفتقة حشوها، لها أبعاد مختلفة من بلكون شقة الفنانين. وتساءلت لماذا لا تجعل "وديدة" أحداً من أبنائها يجمع الأشياء المكسّرة في الباحة وفوق السطح، التي تجعل المكان وكأنه كان قد تعرّض لقنبلة، ويحتاج أن يتقطّع غني حرب القطع النادرة وسط الخراب، ويبيعها ليصير من أثرى الأثرياء. انتزعوني جملة "شادي" الآتية من خلفي من استغرافي في الأفكار:

- يااااه.. إذا كنت بتشريبي الشاي بمزاج كده، يبقى بت.. بت..

«64 دقيقة متبقيّة من «طار..»
يتشرّبى حمرّة إزاى؟

كانت هذه هي المرأة الثانية التي كُنْت قد سمعت فيها جملة قالها "شادي". ولم أدقق في ملامح وجهه أو هيئة وسط ثراء المشهد. أما المرأة الأولى فقد كنا في حالة أكثر إبهاراً، حين اصطحبني "ضيا" إلى حفل غناء صوفي قبطي، وقابلنا هناك صديقه "شادي". عمَّ الظلام المسرح إلا من بُقعة الضوء المُسلطَة على المُنشدين. مررت أسماء الله الحسنى كقيمة طيبة تحلق تحتها يمامات بيضاء، فتلحق بالسرب "كيرياليسون"، وتنشبك "يا رب ارحم" مع صفة "الرحمن الرحيم" في تناغم سماوي. أغمضت عيني، واستلهم قلبي تصميماً لثورة "كلوش" لونها أزرق فاتح عليها يمامات تفرد أجنتها، وأتخيل "ضيا" وهو يُطَرِّز طرفها بخيوط الحرير بجملة "والروح تسري في مجالات الغلا".

- بتحبّي ربنا؟

كانت هذه هي الجملة الأولى التي سمعتها بصوت "شادي"، وكانت السؤال الذي لا إجابة له سوى نفس عميق مُعَبَّق بالحالة الطربية الروحانية وإغماض تام للعينين. أغمضت عيني لا عملاً بمقولة "النفري" "إنما أحاديثك لترى، فإن رأيت فلا حديث" التي كان ينشدها المنشدون في تلك اللحظة؛ بل لأنني كُنْت فعلاً أريد أن أغضَّ الطرف عن أي علاقات تجرفني إلى مزيد من الألم. تعوَّدت أن أحسب سنوات عمري بتوافر الموضات على جسدي؛ كم من الأزياء ارتديت، وكم استغنىت ثم ندمت لأن موضته قد عادت بكل ثقلها، فاشترت ثياباً كُنْت أمتلك مثلها بأضعاف أسعارها، ومن كثرة التكرار فقدت ابهاري وشغفي بكل جديد. حينها استطعت أن أقول بملء العين والجسد "لقد هرمنا"، ولم تعد تبهرنني سوى الملابس التراثية وتثورة الصوفي، التي تصوَّرتها صفة بيضاء تحتمل كل الإبداعات، على الرغم من دورانها الدؤوب بعدد لفَّات الزمن. كان أول ما جعلني أترفع عن الاستجابة لتلميحات "شادي" هو اسمه، فتشابه كلمتي "شادي" و"فادي" جعلنيأشعر بأنني سأعيَّد ارتداء ثوب بطلت موضته، وفي الوقت نفسه، كأنني أخون ثواباً تراثياً يجب أن يظل في خانة من لا يشبهه أحد. ولم أجده أمراً لائقاً أن أستبدل حرفاً من

حروف اسم "فادي" لأرتدي "شادي".

لم يعرف "شادي" حينها أنني لا أستجيب لفحيح صوته بسبب تشابه الأسماء، ومع ذلك أفرط هو في استعمال اسمي، وتحوّل من صوت هامس في ظلام المسرح إلى رسائل نصية لا عدد لها على تليفوني المحمول، لا تحوي سوى اسمي، "تمارا" في الثانية عشرة ليلاً، "تمارا" في الثالثة بعد منتصف الليل، والرابعة والخامسة فجراً، والسادسة صباحاً، والسادسة والرابع، والسادسة والنصف، إلى أن أستيقظ وأرد بكلمة واحدة "نعم"، فتكون الرسالة التالية:

أحرف أربعة بها هام قلبي، تاء.. ميم.. ألف.. راء..

يتكرر الأمر كل ليلة لأستيقظ في الصباح على: "أشتهي وصالك"، أو "يجب أن أتوّضاً لأدخل قدس أقدس (تمار الشوافيلي)".

وتوّضاً ولا شو؟

. إنت مش قلتلي أحكي لك ولا هاتهزّ؟

. باين عليه هجّاص صاحبك هاي.

هذا ما تصوّرته أيضاً في البداية، ولم آخذه على محمل الجدّ؛ إلا أنني فوجئت بنفسي أستيقظ كل بضع ساعات حين أشعر برفة في القلب واحتطاف للروح، لأجده ينادياني في رسالة. أحببـت اسمي حتى أدمـت على روـيـته مكتـوباً، لـدرجـةـ أـنـيـ فـكـرـتـ في تصـمـيمـ تـثـورـةـ تـتـنـاثـرـ عـلـىـ أـنـحـائـهـ التـاءـ،ـ والمـيمـ،ـ والأـلـفـ،ـ والـراءـ،ـ بـتـشـكـيـلـاتـ وـخـطـوـطـ عـرـبـيـةـ وـخـيـوـطـ مـنـ الـذـهـبـ الـمـقـضـبـ أوـ الـحـرـيرـ الـمـلـوـنـ،ـ وـفـكـرـتـ أـنـ تـقـومـ وـرـشـةـ "ـضـيـاـ"ـ بـتـفـيـذـ خـطـ إـنـتـاجـ التـثـورـاتـ هـذـهـ وـنـسـمـيـهـ "ـتمـارـاـ تـثـورـةـ".ـ شـعـرـتـ أـنـ ظـهـورـ "ـشـادـيـ"ـ الـمـفـاجـئـ فـيـ حـيـاتـيـ عـلـىـ هـيـئـةـ رـسـائـلـ نـصـيـةـ،ـ وـجـمـلـ قـصـيـرـةـ يـقـذـفـهاـ سـرـيـعاـ لـيـ مـرـّتـيـنـ فـيـ الـأـسـبـوـعـ فـيـ شـقـقـ الـفـنـانـيـنـ،ـ هـمـاـ الـيـوـمـانـ نـفـسـهـمـاـ الـلـذـانـ تـأـتـيـ فـيـهـمـاـ الـمـمـرـضـةـ لـمـرـاعـاـتـةـ "ـنـازـلـيـ"ـ وـ"ـچـيـميـ جـدوـ"ـ،ـ كـانـ بـمـثـابـةـ جـنـاحـيـ يـمـامـةـ طـيـبـةـ،ـ تـحـمـلـنـيـ بـعـيـداـ

عن دفعـةـ تـبـالـخـنـرـةـ الـتـيـ تـنـتـابـنـيـ كـلـماـ شـاهـدـتـ اـضـمـحـلـ ذـاكـرـهـ 82%

"چيمي جدو" وأفوله الوشيك. ولل الحق أعترف أنني قررت أن أستخدم "شادي" كأيقونة للإلهام، مثلما يترك الشعراء قلوبهم تذوب في أعين المُلهمات؛ لكنني كنت شريرة طيبة، فعزمت على ألا أسرق روحه ومشاعره بالكامل، لو سلطت عيني في عينيه، واحترق سحرهما صميم قلبه. هذا ما قاله بعض من قابلتهم ولم يؤثروا فيّ، أنني أسرق الروح من الأعين. قررت أن أظل ألعب دور المُتلقي الصامت المفتون بالعرض حتى بعد أن تعددت لقاءاتنا بعيداً عن إطار شقة الفنانين، وهو الأمر الذي غذى شغف "شادي" في استعراض إمكاناته وقدراته الإبداعية.

. وشو قدراته الإبداعية سي "شادي"؟

. إنت بتغير ولا إيه؟

. إيه.

صار "شادي" بالنسبة لي مثل ثوب شاهدت صورته في مجلة، ولم أصدق أنه سيليق بي، ثم قمت بتنفيذ بنيفيسي وارتديته مرة لأجريه، ومرة لأن شكري فيه قد أعجبني، ومرة لأنني اعتدته، حتى صار مثل رداء لا أمتلك غيره.

يُمسّد "مطيع" على شعرى للمرأة الثانية اليوم، وكأنني قطته "تامريكو"، ويأخذنى إلى داخل الشقة تاركين أ��واب الشاي وبقايا الكيك وجبلة النساء بالبلكون المفتوح على الباحة.

شقة "مطيع" مُعتمدة قليلاً بسبب غلق النوافذ، ولا يضيئها سوى اللون الأبيض المهيمن على بياضات الكراسي، وخشب المناضد، والبلاطات الرخام، والأطباق الخزفية، التي تزين المكتبة، والتماثيل الخشبية البيضاء. أي مصادفة تجمع بين هذا المكان شاهق البياض وسيرة "شادي عبد الهادي" بقمصانه الكتان البيضاء. قال "مطيع" إنه يحرص على نصاعة الأبيض منذ وفاة "كاترينا" ولا يطأ هذا البيت غرباء خشية أن يلوثوا لونها المفضل الأوحد، حتى هو ينام أغلب الليالي الصيفية على الكنبة التي كنا نجلس عليها في البلكون، وفي الشتاء إما أن يبيت في

"ميجوتييل"، وإنما يجوب بلدان العالم، ويختبر وقع حكاياته الشيّقة على قلوب وأجساد النساء.

الأبيض لون مُراوغ، يقولون عنه أصل الألوان، وتقديسه الديانات، ويرمز للطهر والنقاء في دنيا الأحلام، لكنه أيضًا اللون نفسه للأكفان والحداد في بعض البلدان، كما يشبه الضوء الأبيض باخر النفق الذي يشاهده من تُغادر أرواحهم أجسادهم لثوانٍ ويظلون مُعلقين في "البين بين"، ثم يعودون للحياة ويحكون أن البياض الخالص كان لون الموت. انتقلت لمرحلة "البين بين" مع "شادي" حين توقفت رسائله القصيرة، وصار يعتمد على الكلام. لم يكن "شادي" رسّاماً لكي يظل ينظر إلى في صمت؛ بل كان يتربّد على منطقة "ال滴滴 الأحمر" لكي ينفذ حلمه بمشروع ترميم البيوت الأثرية وتحويلها إلى نُزل لاستضافة السائحين المتخصصين، مثل وكالة "الغوري" في الأيام الغابرة. كان يكتشف زياراته لبيت "أنستازيا" ولغيره من بيوت أهل الحي، ويلقط صوراً فريدة للأزقة، والبلكونات الحديدية، وقباب ومقرنصات الجوامع، بالإضافة إلى لقطات ضبابية باللون الرمادي لوجوه كل المتردّدين على شقة الفنانين، وضعوها كإنجازات نادرة على بروفايلاتهم ومواقعهم على "السوشيوال ميديا". استهلك "شادي" ساعات نهارية طويلة في المرور على المصالح الحكومية لاستخراج التصاريح في المدة المحدودة التي كان يقضيها كإجازة من عمله مهندساً معمارياً يصمم فيلات وقصور الأغنياء في الخليج.

هدم الروتين والبيروقراطية أحلام "شادي"، فارتدى إلى حالة نostalgia ستينية بالأبيض والأسود، كان يعيشها أصلاً، ويعيش في أعماقه السوداء؛ لكنه كان دائم التخيّل وراء نصاعة قميصه الكتان الأبيض. تحولت رسائله التي تصرخ باسمي مثل طفل يستغيث بأمه إلى مقولات صوفية لـ"النفرى" الذي يعشّقه، لكن ليست التي تلمح لوجه الغرام مثل ذي قبل؛ بل كدعوة إلى الاستغراق في الحزن: "ومعرفتك بالبلاء بلاء، وإنكارك للبلاء بلاء"، و"القلب يتغير وقلب القلب لا يتغير، والحزن قلب القلب".

⁸³ تعلّق "شادي" بأن "تغير" مزاجه المفاجئ يعود إلى عدم مقدرته

للتواصل مع ابنه، الذي تُرِبِّيه طليقته على غير ما يرغب في بلد أجنبي. وكلما راوغني برسالة ظننتها عودة لسيرة الحب، وجدتها مجرد رغبة في إنجاز مهمة سريعة لإسكات إلحااح الجسد، عَلَّها ثُهدَّئ روحه الصَّالَّة.

كُنْت أذوب فيه عشقاً حين أستيقظ صباحاً فأجد رسالة بأغنية "عُوَدْت عيني على رؤيَاك"، أو "أَمْل حيَاكِي". ومع كل حرف وكل نغمة، يصور لي خيال مُراهق أن "شادي" هو مَنْ أَلْف الكلمات، ووضع الألحان ليوجهها خصيضاً لي مثل أي فتاة ساذجة، فيتبعها برسالة أخرى يسألني أن أضع وحدة قياس لمدى حبي له فأقول:

- بحَبَكَ قد كُلَّ الأَغَانِي.. وَأَنْتَ وَحدَة قياسك إِيَّه؟

فِيُعاوَدُه عَرِيبِيَّه الْبَائِسُ، ويقول:

- بعَدْ مَرَّاتِ الْأَوْرِجَازِمِ مِنْذَ بَدَءَ الْخَلِيقَةِ إِلَى الْآنِ.

ثم لا يترك لي مساحة للقبول أو الاعتراض، حين يرسل لي بعدها مباشرةً أغانيات حماسية للشيخ "إمام"، ويعلق عليها بـ"ناح التَّواح والْتَّواحة علىكي يا مصر". ثم ينصحني بأن أشاهد فيلماً وثائقياً بعنوان "الستينيات في زمن ناصر"، وأن أرسل له تعليقاً فوريًا عن انطباعاتي. أما ما احتلَّ الجزء الأعظم من رأسه هي تلك المرحلة التي درس فيها الهندسة المعمارية في موسكو، فكان يبدأ في السُّخرية مَمَّنْ يُحاولون التَّدْرِيب على رسم البورتريهات في الْدَّرَبِ، مقارنة بالتحف المرسومة في جاليري "تربيتياكوف"، أو متحف "الكرملين"، ومتحف "بوشكين". وحين كُنْتُ أحَاوِل إشباع النَّهَمِ الفنِي لدِي "شادي" باقتراحات لعمل جولات على متاحف وجاليريهات الزَّمَالِك، بعد تناول القهوة والإفطار على النيل، كان يفاجئني بالكلام عن مشروع إدارة الثورات الملونة والخطط الأمريكية لإشعال الجبهات في روسيا، وأحقيتها في جزيرة القرم.

فَكَرَّثُ أَنْ أَبْقِي "شادي" مُلْهَمًا حتى الرَّمْقِ الْأَخِيرِ، خاصةً أنه كان يُعاوَدُ النَّدَاءَاتِ اللَّيلِيَّةِ الْمُلْحَّةَ من حين إلى آخر، فاخترت من بين 83%

مقوّلاته الجافةً ما يصلح للتطريز فوق ثنّورة ترتديها فتاة تحن إلى زمن ليس بقريب، وليس بعيد، تماماً مثل "شادي": "تضحكى للصبح يصبح، بعد ليلة ومضيّة، تطلع الشمس تلاقيكي، معجبانية وصبية، يا بهية". أسأله بماذا يشعر حين يرى تصميّماتي فيقول:

- أشعر بأنني أرحب في إيلامك بشدّة، فاللذة شقيقة الألم.

ثم يبكي لأنّ أمه قد أوحشتـه. أمه التي تسمى "نادية"، وكان يناديهـا بـ"نانا"، وكـذا كان ينادي "نادين" حبيبـته السابقة.

كان قد تبـقى على سفرـه يومـان، قضـينا معظم ساعـاتـهمـا في قوارـب نـيلـية، وكـأنـه يـرغـب في الـارـتـدـاد إلى حـالـتـهـ الجنـينـيةـ فيـ المـحيـطـ المـائـيـ برـحـمـ أـمـهـ. كان يـضعـ رـأسـهـ علىـ رـجـليـ، حـينـ سـرحـ كـثـيرـاـ واستـطـردـ فيـ الحـكـيـ مثلـ طـفـلـ يـهـلوـسـ قـبـلـ الخـضـوعـ التـامـ للـنـومـ:

- أـشـتـاقـ إلىـ "نـانـاـ"ـ، هـكـذاـ كـانـتـ تـرـيـحـنـيـ عـلـىـ حـجـرـهـاـ بـالـسـاعـاتـ وـنـنـامـ بـعـمقـ حتـىـ مـطـلـعـ الصـبـاحـ.

سألـتـ بـدـلـالـ وـأـنـاـ أـثـقـ أـنـهـ يـقـصـدـ أـمـهـ:

- "نـانـاـ نـادـيـةـ"ـ، أـمـ "نـانـاـ نـادـينـ"ـ؟

فـقالـ بـتـلـقـائـيـةـ:

- "نـانـاـ نـادـينـ"ـ، كـنـاـ نـلـتـقـيـ كـلـ يـوـمـ فيـ حـدـيـقـةـ "مـكـسيـمـ جـورـكـيـ"ـ عـنـدـ نـهـرـ "موـسـكـوـفاـ".

سـأـلـتـهـ:

- وـلـيـهـ سـبـتوـاـ بـعـضـ؟

رـدـ بـتـلـقـائـيـةـ:

- مـعـرـفـشـ.

نـكـافـرـ "شـادـيـ"ـ لـيـعـوـدـ إـلـىـ عـمـلـهـ الـذـيـ قـالـ إـنـهـ يـتـحـوـلـ فـيـهـ إـلـىـ تـرـسـ 84%

في آلة في الإمارات. غابت رسائله عشرة أيام، كُنْث أتلَّهِي خاللها بالإعداد لعمل صفحة إلكترونية لتسويق "تمارا تُثُورَة" المزركشة بحروف اسمى، التي ألهمنى إياها حكاياتي مع "شادي عبد الهادى". أرسلت اسمه خمس مرات في رسالة واحدة مثلما كان يفعل باسمى، ليشاركنى رأيه وفرحتي بتصميم التُّثُورَة الجديد، فكان ردُّه: "مش قادر أرغي"، واختفى اسمه من على قائمة "الواتساب".

حين بعثرت على "تمارا تُثُورَة" الحروف المبهمة، كُنْث أقصد بالتابع أغنية "توبَة"، وبالمعنى "مشاعر"، وبالألف "إنت عمرى"، وبالراء "راجعين يا هوى راجعين"، أما الألف الأخيرة فكانت لأهواك". كان كلَّ من يدقق في الحروف يرى كلمات مثل تمر، أو أمر، أو أم؛ لكن حين غاب اسمى تماماً من رسائل "شادي"، صرت لا أرى على التُّثُورَة سوى حرفي كلمة "مُر". لكنك تعرف بعد مرور الوقت أنك تعافيَت من حبِّ قديم حين تركب قارباً في النيل، ولا توخرَك شَكَّة في القلب لكلمة قيلت فيه وأوجعتك، أو حين تتردَّد على شقة الفنانين وتشرب الشاي رشفة رشفة، وتغمض عينيك دون أن يضجرك تساوئل تسمعه بصدى صوتك إنه إن كُنْث تشرب الشاي بمزاج هكذا فكيف تشرب الخمر؟ حتى وأنا أتفرج على الصور التي التقاطها "شادي" للمكان ولوجوه أصحابه، وعلَّقوها بالدبابيس على الحوائط، فگَرَّت دون حسنة بمقولة إن أفضل شيء في الصور هي أنها لا تتغير، حتى وإن تغيَّرَ من ظهرروا بها، وإن من أعجب مزايا التصوير هو أن مادَّته الخام الضوء والوقت.

وتوتة توتة فرغت الحدوَّة.

همس "مطيع" في أذني:

- برافو يا شاطرة. حكيتي حلو. بتعرفي إني عمرى ما لاعبت ولا واحدة لعبَة المدن بالبيت هون؟

. إيه لعبَة المدن دي؟

. يتقولي اسم مدينة من بلدى وبقول اسم مدينة من بلدك، واللى 54 دقَّيقَة متبقيَّة من «تمار ..»

يقول أكتر يبوس الثاني بوسة طويلة. يالا أنا باقول "القاهرة"
"إسكندرية" "طنطا" "بنها" "كفر الشيخ" "السويس" "الإسماعيلية"
"بورسعيد" ...

ضحك وقلت:

- "غزة"، "أريحا"، "بيت لحم"، "الناصرة"، ثم صمت.

. "مطيع" .. أنا تعبت، و لازم أروح أنام.

نامي هون.

. لا، لازم أمشي، تصبح على خير. إنت مش وعدتنى تاخدى بكرة
"مت BXHITA ؟"

أفلتنى "مطيع" برفة، وتركني أخرج ثانية إلى الباحة لأجدد الهواء
الذى لوث صدري بحكاية موجعة.

شعرت برغبة في أن أكمل اللعبة مع "مطيع"، وأن أعود وأقول له
بكل اشتياق: "رفح"، "جنين"، "حيفا"، "عكا"، "القدس"، "نابلس"،
"رام الله"، "الخليل"، لكنني أردت أن تظل حكايتى معه في خانة
"غموض ما قبل البدايات"، ذلك السحر الذي يُنبئك بأن هناك حدثاً
عظيماً ينتظرك، رداءً ملكياً سيبهرك في المرة الأولى، فإن ارتديته
ربما أراحك في المرة الثانية، لكنك حتى لن ترتديه مرة ثالثة،
شأن كل الملابس شديدة الروعة التي تبقيها في غزلة لقيمتها
الرفيعة، فتعلوها الأتربة حين تبقى أسيرة الحقائب الضخمة أو
خزانات الملابس.



تعجب "مطيع" لامرأة مهووسة بتاريخ الأماكنة مثل أن تحصر نفسها في "تيليسى" لشهر ونصف الشهر، وتكتفي بالترفرج على أطلال التاريخ داخل الشوارع الضيقة، وقاعات المتاحف، مثل فأر مذعور محبوس في مصيدة. بينما التاريخ بذاته يُعرّي نفسه ويُعرّيد في كل المدن الجورجية على بعد أميال قليلة. قلت له إنني فعلاً مثل فأر رهين الانتظار لرسالة أو زيارة مفاجئة من القس "أندراوس"، وإنني أنفذ تعليماته بالحرف، لئلاً يغير رأيه ويحرمني من الكنز. لم يصدق "مطيع" أيضاً أنني كُنْتْ جادَة حين حكيت حكاياتي مع القرط، والإنجيل، والبراق الذي طار أمام نافذتي، وظنني أريد أن أبهر المارة وأختبر مهاراتي في حكاية تشبه أسطورة "جاسون والصوفة الذهبية" التي دارت أحداثها في "أكولـلـقـيقـعنـقـ" أحد تهمدن چورچيا في العصور الغابرة، حيث كان 85%

اً ثمّي "مطبيع" بالخبّل، أو بتعاطي عقاقير للهلوسة، لكي أترك ورائي في بلدي بيّنا له جدران أربعة، وباباً يُوصد، وسقفاً غير مُهدّد بالقصف، وجدةً حتى وإن كانت عجوزاً، وأختاً حتى وإن كانت بلهاء، وجيراً، وملاعب صبا، وحيطان مدرسة، وبقايا ذكريات تُعاش بالروح والجسد، وليس فقط على ألسنة العجائز في الحكايات. نصّبني "مطبيع" بأن أستمتع في چورچيا بالتاريخ الذي أُشّقه، بلمس أحجاره، وشم رائحته، وغسل روحي في ينابيع المياه الدافئة، والمناظر الجبلية الخلابة، وآثار الأزمنة البعيدة والقريبة التي طبعها الغُزا الرومان، والفرس، والبيزنطيون، والعرب، والأتراك السلاجقة، والمغول، وأخيراً الروس والسوفيت. وأن أمتّص رحيق مدن "كاخيتي"، و"باتومي"، و"بورجومي"، و"كوتايسي"، ثم أعود مُحملة بالحكايات الشّيّقة التي أرويها في مصر. وأن أصير مثل الـ"ناتسياللياني" في الأسطورة الجورجية، وهو أولئك البشر الذين بُوركوا بمنحة إلهية، تظهر على هيئة بريق على عظام الظهر الناثنة، وتنمّح صاحبها قدرات حارقة، ويجب لا يُحدّث عنها أحد، حتى لا يزول السحر. سأبقى الآن فردة القرط معى مثل حلقة في أذني، والكتاب المقدس الفامض الذي ورثته عن جدّاتي في مكان عزيز ومقرّب من قلبي.

وعدني "مطبيع" بأن نبدأ بـ"متسيخيتا"، المدينة التي تبعد عن "تبليسي" بعشرين كيلومتراً فقط بحسب إطارات السيارات، وبقرون بعيدة بحسب الأزمنة. يكفي أنها من أقدم المناطق التي عاش فيها إنسان على وجه الأرض. اتفقت معه أن نتناول الإفطار في المطعم الصغير بصالة الاستقبال بفندق "ميجوتيل"، ثم ننطلق.

الحظ حركة مُرتّبة في المطبخ، وأن الذين يقدمون الإفطار موظفات مكتب الاستقبال بالتناوب، وليس "أمراً" كما تعوّدت. تضع "ريموندا" بنفسها فنجان القهوة أمامي، مع الخبز، والجبن، والمربي، ويشتّت نظرها بين الموائد الأخرى والمطبخ. تسألني:

ـ الماذ المتردّي على أيّ من مُكالماتي أو أيّ من رسائل "الواتساب" 85%

التي أحاول أن أرسلها لكِ منذ صباح الأمس؟

عبثٌ بتليفوني لأبحث عن رسائلها، فاكتشفت أن مدة شحن الكارت قد انتهت منذ أيام ثلاثة، وأنا غارقة في حكاياتي وخروجاتي مع "مطيع". قالت لي "ريموندا" إن "أمراً" اختفت منذ يومين، فقد حزمت معظم أمتعتها وغادرت البيت. ظنوا أن والد "ريموندا" قد ضايقها في نوبة سُكر، أو احتجَت إليها الفتاة المراهقة في لحظة تمرُّد. بحثوا عنها في الفندق، لكنها لم تحضر إلى العمل، فسألوا عنها صديقتها "أمينات" التي سرحت بعينيها بعيدًا وكأنها تهمس لنفسها، وقالت:

- فعلتها يا "أمراً"؟ لن تهدئي حتى تصيري جُثَّة هامدة، وربما يسكنكِ السلام فعلاً حينئذٍ، لو حَقَّقتِ أمنيتكِ بأن تموتي وثُدْفني في الأرض التي تربَّيت فيها.

فلطالما تمَّت "أمراً" أن تعود إلى "أبخازيا"، وأنه لن يأتي عيد ميلادها المقبل إلا وهي هناك، حيَّة أو ميَّة.

انضمَ إلينا "مطيع" والتقط الجزء الأخير من الحوار، وقال ساخراً:

- رفيقتكن هاي مولودة بيوم نحس، 9 أبريل ياللي عاملينه العيد القومي لچورچيا هوالي اليوم نفسه ياللي تلفت بيه أعصاب "كاترينا"، وياللي دخلت به قوات التحالف بغداد، وأسقطوا تمثال "صدام حسين"، وبيسُمُّوه عيد الشهدا في تونس، ناهيك أصلًا عن أن أجدادي اندبحوا فيه في "دير ياسين"، وكمان اتفجر فيه كنيستان بمصر. يالا خلّينا "نفوت" على "متسمختا" قبل ما تيجي "أمراً" وتنفجر بوجهنا.

تركت تليفوني لا"ريموندا" لكي تجدّد لي شحن الكارت، وتركت نفسي لا"مطيع" ليُبَشِّني وصايه وتعليماته. لم يأخذني "مطيع" إلى "متسمختا" تحديداً لقربها الجغرافي، ولا لأنها تضرب بجذورها في أعمق التاريخ فحسب؛ بل لأن بها شيئاً له علاقة بالثياب، وهو ما يفترض أن أقدمه في الفيديوهات التي سأقوم بتصويرها؛ لكن الثوب المدفون في إحدى كنائسها ليس ثواباً 49 دقَّيقَة متبقيَّة من «تمار..» 85%

عادياً، بل القميص المقدس الذي صُلب فيه السيد المسيح. كان قميصاً بغير خياطة، منسوجاً كله من فوق إلى تحت. قيل إن رجلاً يهودياً چورچيا من "متسيختا" كان بالقدس وقت الصلب فوجد القميص وأتى به إلى چورچيا. تشبّثت أخته "سیدونیا" بالقميص، وماتت من فرط الانفعال وهي ممسكة به، فجعلوه لها كفناً، ودفنت به. وبعد قليل، نمت شجرة أرز كبيرة فوق قبر "سیدونیا". أمر الحاكم "میریان" أن يتم بناء معبد فوق قميص المسيح، المدفونة به "سیدونیا"، فاضطروا أن يقطعوا شجرة الأرز، ويصنعوا منها سبعة أعمدة. تم دق ستة أعمدة وبقي السابع معلقاً في الهواء. أخذت القدّيسة "نینو" ثلبي طوال الليل، فتجدد العمود في الهواء، وأخذت تنزل منه نقاط زيت مقدس، وصار يأتيه الناس من كل صوب وحدب ليستشفوا بزيت الكنيسة التي صار اسمها "سفیتیتسخوفیلی"، ومعناها بالجورجية "عمود منح الحياة". ويُقام عيدان عندها أشبه بالحج في الثالث عشر من يوليو، وفي الرابع عشر من أكتوبر للتبرّك بالزيت وبالقميص المقدس.

قلت لـ"مطيع" ليتنا انتظرنا حتى الأسبوع المقبل، فقد بقيت سبعة أيام على هذا العيد، فقال إنه يريد أن يُفرّجني التقاء نهرى "کورا" و"أراجفي" عند سفح دير "جفاري". يلتقي النهران تحت سفح الجبال الخضراء المُزرّكشة بالورد البنفسجي، وكأنهما حبيبان التقى بعد طول غياب، ثم يسيران يداً بيد في طريق جميل لا نهائي. وبجوار الدير، شجرة الأمانيات، التي تتدلى منها الشرائط الملونة التي يعقدها الحجاج على أغصانها، وهم يتمثّلون أمنيات ويأملون أن تتحقق.

- لو كنتِ بعدك زغيرة، و كنتِ مثل نهر "کورا"، مين ياللي كنتِ تمنّي يشكك فيكي مثل نهر "أراجفي"، وتعقدوا شريطة حرير عند شجرة الأمانيات بأنكن ما تفترقوا أبداً؟

. كُنْتُ أَتَمْنِي مَا أَسِيبَشْ إِيد "فادِي أَبَاظَة".

. طَبِّبْ إِحْكِيَّنِي . 47 ذِيقَنَةٌ مُتَبَقِّيَّةٌ مِنْ «تَمَار ..»

. إنت إِرَّاي لئيم كده وعرفت تجيبني الجنة دي عشان أحكي لك
الحكاية دي بالذات؟ إحنا فعلاً كنا على طول بنمشي ماسكين
إيدين بعض كده تحت الشجر العالي المتشابك في النادي، وأول
مرّة شفنا فيها بعض كنا لابسين قميصين مقلمين أزرق في أبيض،
زي ألوان الأنهر والبحر. وتاني مرّة اتقابلنا تصادف برضو إننا كنا
لابسين تيشيرتين بلون المانجا، لون مش مألف أوّي، بس بيدي
إحساس بالصيف وحلاؤته. وقعدنا حوالي ست شهور بنلبس
حاجات بالصدفة شبه بعض بالظبط، لدرجة إن أصحابنا كانوا
فاكريتنا متفقين من وراهم، بس إحنا كنا مستمتعين بالدهشة
اللي بتحصلنا إحنا شخصيّاً كل مرّة نتقابل صدفة.

في المرّة الأولى التي التقينا فيها، كانت ثمين على الهواء رائحة
فواحة هي مزيج من عطر "ميس دبور" الذي كان يفوح من
رقبتي ونبضاتي، وبين زهور الياسمين الصغيرة التي تزين الشجر
العربي الذي نجلس خلفه، وبين عبق "فادي" الذي له حلاؤة
الزهور وقوّة خشب الصندل، ويذوب الشذا ويتدخل في بعضه
بعضًا ليحدث التأثير الحالم نفسه على قلبينا وعقلينا.

. وسي "فادي" كان عم يلبس مثل البنات ويتعطّر مثل البنات؟

. بنا؟ ده كل البنات في النادي كانت هتموت عليه. عارف إن
شياكته الرجال مش بتكمّل إلا إذا كان فيها لمسة حريري؟

كان لـ"فادي" جسد إله إغريقي، كالتمثيل العاري التي نشاهدتها
في الواقع الأثري والمتحف. إلا أنه كان يكسو هذا الجسد
الفارع قمصان، وسراويل، وأحذية، تزيده روعة، كالعارضين
الرجال الذين گُنث أتفرج على صورهم في الكتالوجات السميكة
المُترافقّة بعنایة على منضدة صالة الاستقبال في أتيليه "چيمي
جدو"، وكنت أرسم قصصاً في خيالي تجمعني بهم، وأعيش حلماً
مختلفاً مع كل بطل على حدة.

كنا نشتهي الأزمنة الجميلة، ليس بحسرة الأبيض والأسود التي
كانت تطفو كقيمة كثيبة فوق رأس "شادي عبد الهادي"، بل
كثيّرات متنقّطة، وأزرار كبيرة ملوّنة، وببيونات بيضاء، وكسرّ 86%

كثيرة تحت الوسط، وأغنيات تتركك لاهثاً بفرحة مثل "يا مصطفى يا مصطفى"، و"تنيست"، و"سواي"، و"روك أند رول"، لدرجة أن أصحابنا كانوا يسموننا "سعاد حسني" و"رشدي أباظة"، لكن "فادي" كان يسمّي نفسه "بليتو" أي "أفلاطون". بينما كان يخطئ أناس كثيرون في النطق ويقولون عليه "بلاتوو"، أي مكان تصوير السينما.

وَمَا كَنْتُمْ بِتَعْمِلُوا شَيْءًا سَوْيًا تَشْلُحُوا تِيَابًا وَتَغْنُوا وَتَمْبَاعِيْوَا وَلَا
شَوْ؟

لأ طبعًا. كنا صغيرين بس كان عندنا أحلام، ومشاكل كتير.

كان "فادي" يكبرني كثيراً في حجم الجسد، إلا أنه كان يصغرني بعام، وقد كان يشكل هذا الأمر معضلة كبيرة في بداية حكايتنا. كُنْتُ في الثانوية العامة، وعلى وشك دخول الجامعة، وكان أمراً غير مقبول بين الصديقات أن تحب فتاة في الجامعة صبياً ما زال في المدرسة. كنا نحلم بأن نلتحق بأكاديمية الفنون معًا؛ هو في قسم السيناريو، وأنا في قسم الأزياء. كان لـ"فادي" في طفولته جدّة عمياء، تجلسه بجانبها قبل أن تنام لكي يُسليها، فتسليّه هي بالحواديت، وتنام في منتصف الحدّوٰة، فينسحب إلى غرفته، ويتخيل الجزء الناقص من الحدّوٰة ويكتبه. وفي الصباح، يقرؤها عليهم في البيت بعد أن عبث بصفتها، فتضحك جدّته العجوز كثيراً، وتنهّر طنت "هدى" والدته، لأنّه تعطل عن تحصيل دروسه، وأضاع وقته في هذا الهراء، فصار يحلم بأن تكون دروسه وواجباته هي حكايات الآخرين التي لم تكتمل. أما أنا فقد أصاب عينيَّ فيروس نادر وسط الامتحانات النهائية، جعلني أعجز عن الكتابة بخطٍّ سويٍّ، فصممت على أن أكمل الامتحانات في لجنة عادية، وليس في لجنة خاصة، حتى إن رسبت، تكون حجّة مقبولة أمام "چيمي جدو"، وتيتة "نازلي"، ويستطيع "فادي" أن يلحق بي دراسيًا؛ لكنني وللأسف نجحت، وبذلك خسرت أن ندخل أنا وـ"فادي" الجامعة معًا. كُنْتُ أحب التاريخ بالقدر نفسه الذي أُعشق به الموضة، فدخلت كلية الآداب، حاصنة التي لم أكن متأكداً منها، واثقة أن طنت "هدى" ستتوافق على التحاق

"فادي" بأكاديمية الفنون.

. واضح أن الأستاذ "فادي" كان "ابن إمه" وما إلو كلمة.

. بالعكس، ده كان راجل جدًا. أبوه مات وهو صغير، وكان بيعتبر نفسه راجل البيت اللي بيخلي باله من مامته وجده الكيفية مامت باباه. عشان كده ماكنش بيحب يزعّلها، ويقول كفاية عليها شبابها اللي راح.

اعتبرت طنت "هدى" "فادي" أيقونة تعبّر عن الزوج الذي فقدته والحاصل الذي تعشه بقوّة، والمستقبل الذي تتطلع إليه. كانت تُسمى نفسها "هدى أباظة"، حتى إن كل من في النادي كانوا يعتقدون أن هذا هو لقبها الأصلي، لكن "فادي" قال لي إنها ترغب في أن تلصق اسمها في كل ما يقربها لأبيه الراحل وله. تمكّن "فادي" من أن ينقل لي حبه وتعاطفه مع أمّه، فحملت كثيراً بأنه يوماً ما سيضمنا بيت صغير أنا و"فادي" وطنط "هدى أباظة"، وسينشغل "فادي" في أعماله ويتركنا معًا في المساءات، فنشرب الشاي والكيك أمام مسلسل أجنبي، أو فيلم عربي قديم، ونبكي ونضحك مع الأبطال. وتحكي لي طنت "هدى" عن قصة حبها مع والد "فادي" الذي أحبته ووافقت على الزواج منه فوراً؛ لأنّه كان يمثّل بصلة القرابة لـ"رشدي أباظة". وقعت أنا أيضًا في غرام طنت "هدى أباظة"، ليس فقط لأنّها كانت تعاملني بلطف حين تقابلني في النادي، بل لجمالها وأناقتها الغامضة غير المُتعمّدة. كان كل ما في طنت "هدى" فاتح اللون، بشرتها الوردية، وشعرها الكستنائي، وفستانها السادة بألوان الباستيل، وسلسلتها البلاتينية ذات حبة اللؤلؤ الواحدة. تصوّرتها تيّة "نازلي" في شبابها، لو لم تستبدل الملابس الهاوّة المحايدة بملابس الحداد الصارخة بالنّقمة على القدر. وأحياناً أخرى أتخيلها أمي لو كان "چيمي جدو" قد تولّ أمر تصميم أزيائها، وطمس عنها معالم الأزياء ذات النقوشات المُربكة للعين، كالتي ترتديها تيّة "زكية". إلى أنّ كان اليوم الذي ارتدى فيه "فادي" قميصاً سماويّاً فاتحًا لحضور الحفل الراقص بالنادي. كانت هذه هي المرأة الأولى في حياتي التي أضع فيها أحمر شفاه بلون «وردي» فاقع، كما كانت المرأة الأولى التي أريج 87%

فيها رأسي على صدر "فادي" في رقصة بطيئة ناعمة. عاد "فادي" إلى البيت بعد منتصف الليل، ووجد طنت "هدي" في انتظاره في الصالة، وبدلًا من أن تُسْتَفَ له خطبة عن أصول ومواعيد الدخول والخروج من البيت، أغنى عليها لبعض دقائق، فقد طُبعت على ياقه قميص "فادي" السماوية تفاصيل شفتين باللون الأحمر الفاقع.

تبَدَّلت مُعاملة طنت "هدي" معه، وصارت تمدُّلي يداً ببرود في السلام، ثم تُدِير ظهرها إن رأتنا أنا و"فادي" آتيين من بعيد. أنا أيضًا صرت أنتزع كفّي من بين أصابع "فادي" فور أن أشعر بوجود طنت "هدي" في النادي. لم أفهم لم تخلّط طنت "هدي" عن جزء كبير من لطفها معي، فأكمل لي "فادي" الجزء الناقص من الحدثة. قال إن أمه منذ أن رأت أحمر شفاهي على قميصه، وهي تراني كفتاة مُستهترة عديمة الأخلاق، سوف أؤثّر على مستقبله، وعلى سمعة عائلته، كما أخذت تتوسل لأصدقائه وأقاربه أن ينصحوه بالابتعاد عن "الصَّايِعَة بنت التَّرْزِي"، فقد صار هذا هو اسمي ولقبي على لسانها وبين معارفها. كما قال "فادي" بسخرية وثقة إن كل ما تفعله أمه لن يؤثّر فيه، لكنه سيتحمّل مضايقاتها لبعض الوقت حتى يحصل على شهادته، ويعمل، ثم نُواجهها معاً. أي عمل هذا كان يصبو إليه "فادي"؟ إكمال الحواديت الناقصة، وتبديل نهايات الأساطير في سيناريوهات سينمائية؟ ليس كل جزء ناقص من حدثة جديراً بأن يُحكى، فقد كان من الأفضل أن يحتفظ "فادي" لنفسه بما لم أعرفه من كلام أمه. لم تجرعني إهانتها لشخصي ولسلوكي، بل شعرت أنها طعنتني بمقضٍ حادٍ حين وردت سيرة "چيمي جدو" كنقيصة تُقلل من شأنني، وليس كتاج أتفاخر به بأنني حفيدة صاحب أتيليه ومحلات ملابس "ال Shawafily" ، "جمال بك الشوافيلي" ، كما كان يُناديه كل زبائنه.

أصابني خرس أمام حكاية "فادي" التي سردها ببساطة، وكُنث أرى فيها النهاية الحزينة لفيلم رومانسي مرح. كُنث مُربكة لأن "فادي" كان هو رفيق الروح ونصف القلب، فعدت إلى البيت

بعينين دامعتين، لاحظهما نصف القلب الآخر "چيمي جدو". وحين ألحَّ على معرفة ما بي، وهو يضع رأسه على صدره، وجدتني أختلق قصَّة له لأنني شاهدت "فادي" يمسك بيد فتاة أخرى. كان "چيمي جدو" يعرف "فادي" كصديق في الشلة، لكنه لم يكن يعرف بحكاية الحب وعهود الغرام، فحكيتها له كاملة مع تغيير نصف الحكاية الأخير مثلما يفعل "فادي" بالحواديت.

طلب مُنِي "چيمي جدو" أن أَتَصل بـ"فادي"، وآخذ معه موعداً في النادي في اليوم التالي، وهو اليوم الذي تجتمع فيه النساء مع والدته. قال "چيمي جدو" لـ"فادي" أن يستأذن والدته أن تترك النساء لخمس دقائق. نظر لي "فادي" ليفهم ما يحدث، لكنني بقيت على صمتي؛ لأنني أيضًا لم أعرف ما ينتويه "چيمي جدو"، سوى أنه سيخرجني من حُدُوْته لا أستطيع الإفلات من حبائلها بمفردي. تقدَّم "چيمي جدو" نحو طنط "هدى أباطة"، وانحنى مُسْلِمًا عليها في تأدُّب، وقال بضع كلمات، وأخذني وانصرفنا:

- "هدى" هانم، إحنا يشَرَّفنا إن بنتنا "تمارا" تكون صديقة لابنك، لكن إنه يستغل الصداقة دي، ويطلع إشاعة إنها عايزه تتجرَّزه، فأظن إن ده ما يرضي حضرتك. أرجوكى خليه يديَّنى وعد دلوقتى حالاً إنه ما يتكلَّمش أبداً مع "تمارا".

بعد تلك الواقعة بقليل، أصدر "فادي" مجلة حائط في النادي سُمَّاها "أفلاطون"، فكنت أعرف أنه ما زال يُكمِّل الناقص من الحكايات، وأتساعل كيف سيُكمِّل ما لم يعرفه عن نهاية حكايتنا. ركَّزت أنا في تلك الفترة على استلهام دوائي من الداء نفسه الذي سبَّتنى به طنط "هدى"، فلم تشفيَّنى سوى مقولات الخياطين؛ "إيف سان لوران" و"كريستيان ديور"، مثل "عليك بتتبع الموضة، في الفترة التي لا تعرفي فيها من تكونين"، فانحرفت في شراء الكتالوجات وتنفيذ ما بها، والتسوق من المحلات الفاخرة ذات الأسعار الباهضة، ربما صادفت "فادي أباطة" يقود سيارته في الشارع، أو لاقيته في إحدى الطرق. بدأت أشعر بالارتياح والثقة فيما أرتديه، وأن هذا حتماً سيجلب السعادة وفق ما تقوله النظريات، لكن مزاجي الياسمين التي تملأ روحي كانت تخزنني 88%

بغضّة في الحلق، فتخلّصت من كل زجاجات عطر "ميس دبور"، التي لها سلطان على مَن يتعطّر بها لأنها بقيت كثيراً قريبة من قلب مَن صنعها "كريستيان دبور" نفسه. استبدلتها بـ"إستيه لودر"، وـ"كلوي"، وـ"شانيل"؛ لكنني ظللت أتوق إلى "ميس دبور"، وكفّ تشتبك أصابعها الكبيرة في كُفّي الصغيرة. توقفت عن وضع أحمر الشفاه، خاصة الوردي الفاقع، عملاً بمقولة إن أفضل ماكياج لوجه المرأة هو شغفها، لكنني كُنْت قد فقدت الشغف أيّضاً وشحت بشرتي. ربما كانت هذه هي الفترة التي أرسلت فيها تيّة "نازلي" الخطاب لطنّت "هدي" تشرح لها فيها طيب أصل عائلة "ال Shawafily" ، وعاد الخطاب لأنّه لم يستدلّ على المرسل إليه. تركت طنّت "هدي" مسكنهم وأخذت "فادي" ليعيشا مع أخيها في أمريكا، بعدما ماتت حماتها جدّة "فادي". علمت لاحقاً من بعض الأصدقاء أن "فادي" جرحت كرامته بسبب ما فعله معه "چيمي جدو" ، لكنه أخذ يلوم نفسه لماذا لم يكلّمني كما وعد جدي، وأصرّ على أن يتبنّى دور الجنتلمن الذي يحمي نساء بيته ويفي بالوعود للرجال.

ما ساعدي قليلاً هو سُباب تيّة "نازلي" في طنّت "هدي" وعجرفتها، التي كانت تصفها لها نساء يكرهن طنّت "هدي" ويسترسلن في ذلك في مُكالمات تليفونية بالساعات، لكنني لم أكره طنّت "هدي" ، ووُضعت كل همي في الانحراف في أحداث تاريخية وقعت في بلاد وأزمنة بعيدة لأناس غيري، كما شجّعني تيّة "نازلي" على السفر إلى لندن لعمل دبلومة الأزياء. صارت أحلامي أكبر من مجرد جلسة تحت شجرة مع صبي في نادٍ. تمثّلت أن أصير مصمّمة أزياء عالمية، تقرأ طنّت "هدي" اسمها في مجلات "فوج" ، وـ"إل ماجازين" بعد أن ثُقّام لي عروض في لندن وروما وباريس، وأن يكون لي بيت أزياء يشير إليه السائحون في شوارع "الشانزليزية" ، وـ"أوكسفورد" وـ"فيا فراتينا" ، لكنني فشلت حتى في إكمال مسيرة "چيمي جدو" ، بعد أن باع محل وسط البلد والأتيليه والسيارة المرسيدس، وخسرنا شقة "جاردن سيتي". شعرت أن هذا جزءاً عن ظلمي لـ"فادي" حين عبّرت بالجزء الناقص^{89%} من حكايته، ولم أبُرّ له ما فعله "چيمي

جدو" معه. أثق أن الله قد عَوَّضه بتحقيق حلمه، وبحبِ وأطفال يرعاهم كأب حقيقي. لكنني ما زلت أتوق لأن أكون مثل نهر "أراجفي" هذا الذي يشتبك مع نهر "كورا" على شكل قلب وسط حقول البنفسج.

. تعالى نربط شريط بشجرة الأمنيات ونجيبي بعد أسبوع نشوف شو حصل معك. يمكن نروح "أبخازيا" ونحنا بندور على "أمرا" وبنلاقي صاحبك "أباطلة" هاي لابس قلنسوة فرو وبالطوط مُحاربين لونه أسود بأكمام طويلة لحد الركبة، ولا فف ع وسطه زنار بخنجر، وعم ينط بحذاء برقبة في رقصة بطولية شركسية.

- إنت بتهزّ؟ طيب والله طنت "هدى" كانت بتقول إنهم أصلاً شركس.

- بتعربني إيش؟ أنا مرّة أخذت طوبة من البحر الأسود هون، وحطيتها بالبحر الميت في الأردن. كُنْث عم بتشاقى مشان أحير علماء الأركيولوجي.. ممکن حدا ينكلك صاحبك من أمريكا لـ"أبخازيا". لا، عن جد، أنا قريت ملحمة نارت تبع الأبخاز، وبعرف إن "الأباطلة" شعب يعيش غالبيته على أراضي "أبخازيا" و"شيركسيا"، وأغلبهم منحدرين من اللاجئين من منطقة "القوقاز" بعد الحرب مع الإمبراطورية الروسية. وكمان بعرف إن الحكومة في "أبخازيا" هلا عم يبعتوا لكل الناس ياللي تركوا أراضيهم بعد الحروب، وموجودين بتركيا ومصر والأردن، مشان يرجعوا ويعمروا.

- خلاص تعالى نروح نتفرج عليه وهو بيرقص، ونرقص معاه، وبالمرّة ندور على "أمرا".

. والله "أمرا" هاي غلبانة، صارت تصعب عليّ وحاسس فيها، بس أنا كُنْث متغاظ منها شوي، مشان خلتكم تفكريني وحش كاسر لما انفعلت عليها.

خلعـت شـريـطاً كـنـث أـعـقـدـ بـهـ شـعـرـيـ، وـرـبـطـهـ لـيـ "ـمـطـيـعـ"ـ فـيـ جـذـعـ رـفـيـعـ بـشـجـرـةـ الـأـمـنـيـاتـ.ـ قـالـ لـيـ أـنـ أـغـمـضـ عـيـنـيـ وـأـتـمـئـ،ـ فـقـلـتـ لـهـ 89% ذـكـيـرـةـ مـنـقـيـةـ مـنـ «ـتـمـارـ..ـ»ـ

إن الشجرة قد سمعت وعرفت كل ما قلناه.

أجمل ما في "متسخيتها" أنها مثل بساط الريح الذي ينطلق في الزمان والمكان في لمح البصر. عدنا بعد نصف ساعة إلى فندق "ميجوتييل" لأجد "ريموندا" في مكانها عند مكتب الاستقبال، وتناولني تليفوني بعد أن أعادت شحن الكارت. جلست أمامها على أريكة المدخل أعبث بقائمة رسائل "الواتساب" والإيميل، لأجد قائمة طويلة من الرسائل التي وردت منذ أيام ولم تقرأ، رسالة على "الواتساب" من "ضياء" يخبرني فيها أنه وجد ممولاً لمشروع "تمارا تُّورِّة"، ويقترح أن نطلق عليه اسم "تي تي" فهي تصلح اسمًا فرعونياً يلقى رواجاً إن وزعناه في دول غربية. شعرت أن الشريط الرفيع الذي ربطته عند شجرة الأمانيات قد بدأ سحره. كانت الرسالة الثانية على الماسنجر من "أليبرت" يخبرني فيها أنه سيصل إلى "تبليسي" بعد أسبوع، ويطلب مني عنوان الشقة أو الفندق الذي أقيم فيه. أما الرسالة الثالثة فقد كانت منه أخيراً، القس "أندراوس". فركت عيني وأغلقت التليفون وفتحته لأتتأكد أنني لا أحلم. كانت الرسالة لا تزال على رأس قائمة الوارد في الإيميل، وما زالت بالتاريخ نفسه، وباسمه مثلما رأيته؛ القس "أندراوس".

أردت أن أهرع خارج الفندق لللحق بمطبيع وأخبره أنني لم أكن أهزي، أو أن أصرخ وأنادي على "ريموندا" وأقول لها إنني سوف أصير مصممة أزياء عالمية، لكنني تماسكت قليلاً حتى أقرأ ما بالرسالة أولاً.

العزيزة "تمارا"،

اتمنى لك يوماً مليئاً بالفرح والسلام.

سامحيني إن كُنْت قد تأخرت عليك، فقد كانت خطة الرب هي أن يرسلني إلى صلاة خاصة مع الرهبان في دير "فارديزيا". وفي طريق العودة، انقلبت الحافلة وبها كل ما يذكر بمحاطباتنا، فقد شاء الرب أن أصحاب بارتجاج في المخ، فقدت معه الوعي والذاكرة القريبة لبضعه أسابيع. نشكر الله لأنه أعادها لي، إلا أنني 89%

لن أتمكن من القدوم إليك في "تبلisi" مع وجود جبيرة حول ساقي المكسورة وتنبيه الطبيب بعدم الحركة. أهل الخير أعادوني إلى مكان إقامتي بجوار دير "جريمي" في "كاخيتسي". إن تفضلت بالحضور أكون في غاية الامتنان. لست بحاجة إلى أن أذكرك بـ حضار فردة القرط والكتاب المقدس.

محبتي، وليرعاك الله ..



القس "أندراوس".



8)

© CanStockPhoto.com - csp48130028

90%

33 دقيقة متبقيّة من «تمار ..

وددت أن أطوف بكل شوارع "تبليسي" أحكي للمارأة حكايتها، وأقول لهم إن القدس "أندراوس" واقع لا خيال، وأنني سأقابله بعد بضعة أيام بجوار الكنيسة والدير في "كاخيتى". بحثت عن "مطبيع" عند مسرح "ريزو جابريادزة"، فلم أجده، لكنني وجدت بعض السائحين يسألون عن "الفلسطيني الذي يحكى حكايات الجدات ويغنى أغانيات عربية ويرقص الدبكة"، فقال العاملون في المقهى المجاور للمسرح إنهم لم يروه اليوم. ذهبت إلى شقته في شارع "آجاماشينيبيلى"، فوجدت البلكون موصداً، وتجلس "تامريكو" فوق سور تترقب وصوله.

قررت الاحتفال باللقاء المنتظر على طريقتي، بشراء ثوب بهيج. أعرف أن أكثر ما يليق بلقاء قس هو تلك الفساتين الواسعة التي اشتريتها من هنا، وشال عريض أضعه كحجاب مثل كل الچورچيات حين يدخلن الكنائس، لكنني أحبببت أن أكون على طبيعتي التي كدت أنساها في المتأهة التي ابتلعني. يكاد الطقم المعروض في الفاترينة يقول خذيني؛ ثُوراة حمراء واسعة بطيات عديدة، معلقة ومفرودة بوضع جانبي في الهواء، ومعها بلوزة مُنقطة بالأبيض والأسود، وكأنما يرقصان معًا فلامنكو سعيداً. اشتريت قبعة مقلمة بالأبيض والأسود، وفي وسطها شريط عريض أحمر وتوكة ذهبية.

نصحتني "ريموندا" بأن أذهب إلى "كاخيتى" مع شركة سياحة في رحلات اليوم الواحد التي تنطلق من المدينة القديمة بـ"تبليسي"، وتستغرق ساعتين ونصف الساعة، بدلاً من الركوب مع سائق متهور، تُوثّرني قيادته الطائشة وتجعلني ألاقي القس في حالة نفسية بائسة. حجزت "ريموندا" الرحلة في اليوم الثاني عشر من يوليو، وهو الموعد الذي أخطرت به القس، فقال إنه سيكون في انتظاري طوال ساعات اليوم. أعدت لي "ريموندا" حقيبة صغيرة بها زجاجة ماء وشوكولاتة وسدادات، مثل طفلة تدع لها أمها علبة الغداء لرحلة مدرسية. وضعث الكتاب المقدس والقرط الذهبي في ركن آمن من حقيبتي، ووقفت أنتظر الباص الصغير أمام شركة السياحة في شارع "كوت أبخازى".

سلماني المرشد السياحي التذكرة، المطبوع عليها خط السير، فاكتشفت أننا لن نتوجه إلى الدير مباشرة، بل سوف نمر على بضعة معالم سياحية قبل الوصول. كان المرشد روسي الجنسية، ومعظم السياح الموجودين بالباص، فيما عداي أنا واثنين من اليابان. قال المرشد إنه لن يتكلم الإنجليزية إلا حينما نصل إلى المعالم الأثرية، أما طوال الطريق، فسيتحدث بالروسية إرضاءً للأغلبية. أكاد أكون الوحيدة التائهة بملامحي الشرقية وسط هذه الجموع من الروس، الذين يتحدثون لغتهم الأصلية بأريحية ويفهمون بعضهم بعضاً، مع أنني قد أكون ابنة شرعية للمكان، وذاهبة للتعرف على جذوري.

خرجنا من "تبليسي" لنمر على بيوت شبه آيلة للسقوط، وكأننا قد غادرنا الحرب العالمية للثُّو. صوت المرشد معدني بارد، ولا يكُف عن التحدث للسائحين الروس. لست شغوفة بمعلوماتك التاريخية أبيها المرشد، والتي تشير لي بلغة الصم أنه ستشرحها لي لاحقاً، فلتأخذني فقط إلى الدير، ولتسلمني إلى القس "أندراوس". يفوت الباص في طرق تحفها جبال خضراء وتحللها أنهار جفَّت. أشعر بعُصَمَة في الحلق، كلما تحدث المرشد السياحي، وكأنما سيفوتني شيء سيقوله عَنِّي. ليتنني ما تركت نفسي كالدُّمية في يد "ريموندا"، وقفت بحجز سيارة خاصة تأخذني إلى الدير مباشرة. نعش معظم السياح، وأراحوا رؤوسهم على زجاج النوافذ، ربما لأن المرشد يحكى حكاياتي التي لا تخصُّهم.

سكت المرشد تماماً مع سطوع الشمس، وتحلَّ أشعتها الباص الماُر وسط الجبال. تمنعني الشمس والجبال شعوراً بالأمل والاحتواء، فالقمم الجبلية المزروعة نُهود لأمهات يُرضعن صغارهن من تحت ثيابهن الخضراء. أما الأشجار العالية بطول الطريق، فتبدو كأيدي راقصات الباليه وهن يمددنها، ثم يدورن بتنورات من الثُّل الأخضر الشفاف. لا تفلح محاولات إلهاء نفسي بأفكار إبداعية، فكلما هَدَّ الباص السرعة، واقتربنا من أي مبني عتيق، ظنتته الدير المقصود، فيخيب ظني حين ينطق المرشد بالإنجليزية ويقول أسماء أخرى غير دير "جريمي". نتوقف عند ٣٦ دقيقه متبقيه من «طار..»

قلعة "أوجارما"، ودير "شاومتا"، وللمرة الأولى منذ وعيت على محبتي للتاريخ، أريد أن أسدّ أذني عن شرح المُرشد لحروب، وهروب، وقتل، وأديرة احترقت، ومبانٍ دُمِرت، وممالك زالت، وشعوب حلَّ محل شعوب أخرى. يدخلنا المُرشد إلى صلاة جنائزية في كنيسة تمتلئ بالنسوة المحجَّبات والرَّاهبات الغارقات في الحُمُر السوداء. تصوّبن جميعاً نظرات نارية باجْهالي، حين يُحدث نعلي صوًّا يُحدث نشازًا وسط الترنيم، وأشعر أنني عاهرة بتُنورتي الحمراء وبلوزتي المُنقطة وذراعي العاريَّين. تطردني بصمت الوجوه الطويلة، والأعين الحزينة، والإضاءة المُعتمة، واللحن الجنائي، لأنَّه فأجد قسًا شابًا يُناولني كأسًا من دم المسيح. لست في حالة تسمح لي بشرب الدماء، حتى وإن كان دمًا رمزيًّا مصنوعًا من النبيذ. لا أريد أن أقابل القس "أندراوس" وأنا في هذه الحالة من الانقباض والتَّوْرُّ. أسأل المُرشد كم من المعالم تبقى قبل أن نصل إلى دير "جريمي"، فيجيب بأننا أوشكنا على الوصول، ولم يتبقَ سوى صعود سور "كاخيتي" العظيم، الذي كان يحمي البلدة من الأعداء، وزيارة مدينة "تيلافي"، و"سيجناجي" مدينة الحب ببيوتها الصغيرة وبحياتها الرومانسية، ودير "بودبي"، ورحلة تذوق النبيذ الجورجي والمرور من الأنفاق الباردة لحفظ النبيذ لعشرات السنين، ثم سنصل في النهاية إلى دير "جريمي". قطعت كل رحلات الصعود لأعلى الأديرة والمشي في النفق البارد وأنا مُتلفحة ببطانية للثَّرُّج على زجاجات وبراميل النبيذ المحفوظة تحت الأرض، وقد بدأت أهداً قليلاً، حين تناولت الغداء أمام بحيرة تحيط بها الجبال الشاهقة والورد زاهي الألوان. وأخيراً، سمعت اسم المكان، فانتابني دُوار خفيف وألم في البطن كأنني مُقبلة على اختبار لم أستعد له بالمُذاكرة؛ دير وقلعة "جريمي"، وأجراس تدقُّ من برج الكنيسة، لتعمق الإحساس برهبة الموقف. تنحبس أنفاسي وتتضاعف ضربات قلبي مع كل دقة جرس، يرتفع صوتها، وأنا أصعد التَّلَّة وأقترب من باب الكنيسة. أتذكَّر مقولته أنه "حين يدقُّ جرس، ينبع جناح لملائكة صغار، وأتخيل نفسي محفوفة بأجنحة بيضاء لملائكة صغار، لكي أهدئ من روعي، أسأل خادم الكنيسة الواقف

91% دقيقة متبقيَّة من بقى .. دير

في الممر الحجري عن القس "أندراوس"، فيشير لي بيده نحو باب خشبي عتيق، محفور بنقوشات نباتية متكررة. تتقرب المدة الفاصلة بين كل دقة جرس وأخرى، ويتدخل معها حفييف خطواتي، وصوت الرياح، واهتزازات الأغصان، ثم تطمس الأصوات جميئاً طنين رئات الأجراس المتسارعة فوق رأسي وبين دقات قلبي. أتجاوز الباب الخشبي إلى داخل الكنيسة، فيتحوّل المشهد إلى تراثيم وصلوات هادئة بصوت ذكوري رخيم، يصلح كخلفية لحنية للإضاءة الخافتة، التي تلقي بنورها الهزيل على جدران الكنيسة الأثرية، ورسومات الفريسكو بأيقونات القديسين، التي تقشرت معظم أجزاؤها، واحتفظ ما تبقى على الحوائط ببقايا ألوان زاهية. لم يكن بالكنيسة سوى فتاة تُعْطِي شعرها وَثَلْثَلَيْ في تبتل، فاقتربت مني أظنها القس "أندراوس"؛ لأن خادم الكنيسة أشار نحوه. كُنْت قد رسمت له بضعة أشكال في خيالي، فقد تصوّرته طاعناً في العمر، ممتلي القوام، له شعر أسود كثيف، ولحية غير مُهذبة. وفي صورة أخرى، تخيلته ذات شعر فضي، وبشرة باهتة، وتجاعيد متعددة. آخر ما كُنْت أتصوّر أنه يكون القس "أندراوس" شاباً بهذه الوسامنة، فقد كان مليح الوجه، أشقر الشعر، يعقده في ذيل حصان، لعينيه زرقة صافية، ولبشرته لون وردي فاتح، تتوافق مع شفتيه بلون جبات الفراولة. أشفقت على الفتيات والنساء اللاتي يجئن للاعتراف أمامه، فقد يجئن شاكيات من ذنب خفيف، ليُعْدِنَنِ محملات بشعور عميق بالإثم بعد أن يرین حُسنه ويشهيـنه. وأشفق على نفسي مقدماً، حين يتبادل معي أطراف الحديث، الذي أظنني لن أقوى على ترتيب جملة مُكتملة فيه.

أراه بوضع جنبي، لكنه أدار وجهه نحوي فور انتهائه من الصلوات، وكأنما كان يشعر بأنفاس غير مألوفة داخل فضاء الكنيسة. تكلّم "أندراوس" مُرْحَجاً بي، فحمدت الله أنه ليس لصوته ولكنـه الإنجليزية الثقيلة الحلاوة نفسها لوجهه وردائه الأزرق المذهب. خرجنا من الكنيسة، وهو يستند إلى عصا، فتذكّرت أن ثوبـه الطويل يخفـي جبـيرة ساقـه المكسـورة. يساعدـه خـادـم

الـكـنيـسـةـ فـيـ الـجـلـوسـ» عـلـىـ حـجـرـ فـوـقـ تـلـةـ مـرـتفـعـةـ تـطـلـ عـلـىـ 91%

مدينة "جريمي". أثر الصمت وأمنه انطباعاً بأنني جئت فقط لأستمع، فهو يعرف عني ربما أكثر مما أعرفه عن نفسي، فضلاً عن الإيميلات العديدة التي أرسلتها له على مدار أكثر من شهر وبها من التهور وقلة الذوق ما يستحق الاعتذار. لكنه هو من بادرني بالاعتذار عن عدم مقدرته في أن يأخذني في جولة داخل الدير والكنيسة والقلعة نظراً لسوء حالة ساقه.

أشار إلى القلعة الملكية الأثرية والكنيسة بعصا، وقال لي إن تلك المباني صامدة من القرن السادس عشر. سرح في الجبال والحقول المنبسطة حولنا وقال إن "جريمي" كانت عاصمة مملكة "كاخطيي"، التي أنشأها الملك "ليفان"، وقد كانت مدينة مزدهرة وغنية بالتجارة، حيث كان يمر منها "طريق الحرير". هل سيعطيني هذا القدس درساً في التاريخ، أو يعيد سرد المكتوب في الواقع الإلكترونية؟ وفجأة، ذكر اسمي فانتبهت، قال:

- "تمار.. كان اسمها "تمار"، فتاة جميلة، وابنة أحد أكبر تجار الحرير والأقمشة في "كاخطيي". كانت معشوقة والدها وفتاته المدللة، فلم تطلب شيئاً إلا واستجاب على الفور، إلى أن طلبت أمراً لم يستطع أن يرضاخ له. كانت "تمار" تعشق شاباً مليحاً متديلاً من أسرة فقيرة لا تليق بنسب عائلتها. كانا يهيمان ببعضهما بعضاً منذ الطفولة، حتى بعد أن صارت له مكانة دينية لم يقبل به والدها زوجاً لابنته، فقد أصبح قسًا بهذه الكنيسة. كان حبها غذرياً لا يغضب الله، وكانا ينتويان أن يربطهما رباط مقدس أبدى بعد أن ينالا مباركة أبيها وأهلها. كانت "تمار" في سنوات المراهقة تتسلل نهاراً بصحبة خادمتها، وتقابل "أوتار"، الذي صار اسمه الكنسي فيما بعد القدس "أندراوس"؛ جدي الأكبر. كانت تتکبّد مشقة كبيرة بملابسها الثقيلة في الصعود إلى البرج، أو في النزول إلى قبو النبيذ، أو عند النفق السري المؤدي إلى نهر إنتسوبى".

لم يتتفق الحبيب والأب سوى على أمر واحد حطم قلب "تمار"، فحين أرسلت له رسالة مع خادمتها تبلغه بأنها تفتقده وترغبه

اللاهوتي "كن أميناً إلى الموت، فسأعطيك إكليل الحياة". شعرت "تمار" بالإهانة لعدم استجابة "أندراوس" لرغبتها في لقائه، واستجابت لطلب والدها في أن يرسلها مع القافلة المسافرة إلى مصر، تحت رعاية خالها وابنه. شعر "أندراوس" أنه قد أخطأ في حق العهد الذي قطعاه معًا بألا يسمحا لأحد أو لشيء أن يفرقهما، فطلب أن يقابلها ولو مرّة واحدة هنا، عند الحجر الذي نجلس فوقه الآن. كانت القافلة تستعد للرحيل، وكان "أندراوس" يهم بأن يجدد العهد مع "تمار" ويعدها بأنه لن يخذلها ثانية حين تعود من مصر. لكن الخادمة أخذت تصيح وتستعجلها لأن القافلة ستتحرّك، والجميع يبحثون عنها. خلعت "تمار" فردة قرطها، وأعطتها سريعاً لـ"أندراوس"، ولم يجد تحت يده سوى إنجيل الكنيسة ليمنحه لها، وليحفظها في طريق سفرها الطويل، وقال لها عودي لكي تردد الأمانة الفالية. حطّت القافلة رحالها في وكالة "الغوري" في القاهرة، في الوقت نفسه الذي أغارت فيه قوات الشاه "عباس الأول" الفارسي على "كاخيتي"، ودَكَّت المدينة بالكامل. كان هذا في عام 1615 حين وصلت أخبار الدمار الذي حلَّ بالبلد إلى "تمار"، وابن خالها، فقد مات خالها أثناء الرحلة وُدُّفن في الصحراء.

قاطع خادم الكنيسة القدس "أندراوس"، وأعطاه الدواء وكوب ماء، ثم وضع أمامي صينية عليها عصائر، وماء بارد، وشرائح "خاتشابوري" بالجبن. أشار لي القدس "أندراوس" بأن تفضلي، وأكمل حكايته:

- كانت القوافل تحمل الأقمشة الحريرية التي تنتجهها مدينة "يونن" في الصين، التي تخصص منتجاتها للتصدير إلى مصر خلال حكم الشركس، من تسمُّونهم أنتم "المماليك". وكانت هذه المنسوجات تُطرَّز برسومات تمثل التنين وطائر العنقاء، جنباً إلى جنب مع نصوص عربية كتبت بخط رائع وبديع. ونظرًا لدقّة صناعتها وروعتها تشكيلاتها وزخارفها، اكتسبت المنسوجات والأقمشة المصنوعة في مصر شهرة واسعة في أسواق دول البحر المتوسط. وقد كانت عائلة "إيلشوفيلي" والد "تمار"، وأسرة

"أبولادزة" والد "زكريا" ابن خالها، من أكبر العائلات التي تخرج في قوافل نقل الأقمشة والمنسوجات عبر "طريق الحرير".

لما علم الأهالي بالأزهر والغورية بما حدث في بلدة ضيوفهم التجار، سمحوا لهم بأن تطول إقامتهم بالوكالة، فقد كان في طوابقها الثلاثة العلوية تسعه وعشرون منزلًا، وتركوه يخزنون بضاعتهم في الطابقين الأول والثاني لأجل غير مسمى، وساعدوهم على إيجاد محل تجاري صغير يصرفون فيه بضائع الآخرين، حتى يشتد عودهم ويُعاودوا السفر في القوافل، أو يعودوا سالمين إلى بلادهم. أسرت معاملة الأهالي المصريين قلوب "تمار" وابن خالها "زكريا"، إلا أنهما لم يرغبا في أن يذوبا تماماً وتضيع هويتها الجورجية، بعد أن دخلا راضيين في الإسلام، فتزوجا وقررا أن يعطيا اسميهما معاً لذرتيهما: "إيلشوفيلاي" و"أبولادزة"، التي تحولت وتمضرت على مرّاً لازمان إلى "ال Shawavili" و"أبو لاسة". وأوصت "تمار" بأن تسمى الابنة الكبرى من ذريتها "تمار"، وأن تحفظ بفردة القرط وإنجيل، لسببٍ مجهول، لم يعلمه حتى "زكريا" ابن خالها الذي تزوجته.

لم ينم إلى علم "تمار" أن المكان الوحيد الذي لم يدمري في "كاختي" وقت هجوم الشاه "عباس" هو قلعة وكنيسة ودير "جريمي"، حيث كان القس "أندراوس" يؤدي الصلوات ويدعو لـ"تمار" بسلامة العودة. كانت خادمتها "ماريام" قد صعدت أيضاً إلى الكنيسة لتشاهد القس "أندراوس" عن بُعد، فقد كانت تحبه حجاً صامتاً، وكانت هي من أقنعت "تمار" بالرحيل. ولما هجمت الجيوش ودُكِّت المدينة ووُجد "أندراوس" خادمة "تمار" تؤدي الصلاة خلفه، أخذها وهرباً من النفق السري المؤدي إلى نهر "إنتسوبي". شهدا معاً أيامًا عصيبة، هونتها عليه "ماريام" بحبها ورعايتها. كان شقيق "ماريام" يعمل خادماً في القافلة التي سافرت فيها "تمار" و"زكريا"، وكان يراسل شقيقته ويعلم أن الدير و"أندراوس" لم يهلكا مثلما هلكت القرية. لكن أخته توسلت إليه بآلا يوح بهذا الأمر، وبأن ينقل للقافلة خبر الدمار الكلي فحسب. ظلت "ماريام" تراسل أخيها وعلمت بأمر زواج "تمار" الذي نقلته

في ابتهاج للقس "أندراوس"، وأقنعته بأنهما يجب أن يتزوجا وينجبا ذرية تumar الأرض التي خربها الأعداء، فتزوجها "أندراوس" كنوع من الامتنان ورد الجميل، وأنجبا ولداً. لم تنعم "ماريام" بالحب والنظرات الحانية التي كانت ترى "أندراوس" يبيثها لـ"تمار"، بل إنها من كثرة ما وقفت خلفه في الصلوات، فقدت سلامها الداخلي، لا لعيب في الصلوات، بل لأنه كان يردد آية "حيث دودهم لا يموت"، ويشرح لها أن هذا الدود هو الضمير المُوَبِّخ، الذي يظل يُبَيِّغُ الخطأ في عذاب الحياة المُزمومة. وذات صحوة كاملة لضمير "ماريام"، اعترفت لـ"أندراوس" بخطتها للتفریق بينه وبين "تمار"، والتي خدمتها فيها الظروف. لم يُوَبِّخ "أندراوس" زوجته "ماريام"، فيكفيها الدود الذي ينخر في عظامها. شد رحاله وصعد إلى الدير، وكتب نسخا عدّة من الحكاية كاملة، على هيئة وصية لذريته، بأنه لن يرقد في سلام، ولن يكون جديراً برفة القديسين أو بشفاعة الملائكة، لأنه قد وقع في الخطية وفرط في كتاب مقدس نقشت حروفه بماء الذهب، في لحظة إظام للعقل وإلهاب للعواطف، وأن هذا الكتاب المقدس موجود في مصر مع امرأة تدعى "تمار"، ومعه فردة قرط ذهبية، **"أمين هو الله" .. "عيناي على أمناء الأرض لكي أجلسهم معي"** (مز 101:6) أعيدوا للمرأة أو لذريتها فردة قرطها، واسترجعوا الكتاب المقدس، وضعوه حيث ينتمي، حتى ولو بعد حين **"لأن السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول"** (مز 31:13).

مات "أندراوس" راهباً، ذا ذرية شحيحة، منهم من قرأ الوصية واعتبرها حكاية للتندر، ومنهم من رأى أن جدهم الأكبر استحقّ الحرمان من الملوك والفرح، لتفريطيه في الأمانة ووقوعه في الخطية، ومنهم من تجاهل أو تكاسل لصعوبة المسألة وبُعد المسافات. أما أنا فقد تصادف أن عندي ولغاً بدراسة المخطوطات ودورها في تغيير التاريخ، فضلاً عن إيماني بأن يسوع المسيح لم يأتٍ ليؤسس لديانة، إنما تجسّد ليصنع الخلاص للإنسان. وقد كُنْتُ أكثر عشيرتي حظاً، لأنني أتيت في زمن يسهل فيه تتبع الآثار، وهي ثمينة وفيرة لنا الرب لنساعد أنفسنا وغيرنا على 93%

في ابتهاج للقس "أندراوس"، وأقنعته بأنهما يجب أن يتزوجا وينجبا ذرية تumar الأرض التي خربها الأعداء، فتزوجها "أندراوس" كنوع من الامتنان ورد الجميل، وأنجبا ولداً. لم تنعم "ماريام" بالحب والنظرات الحانية التي كانت ترى "أندراوس" يبيثها لـ"تمار"، بل إنها من كثرة ما وقفت خلفه في الصلوات، فقدت سلامها الداخلي، لا لعيب في الصلوات، بل لأنه كان يردد آية "حيث دودهم لا يموت"، ويشرح لها أن هذا الدود هو الضمير المُوَبِّخ، الذي يظل يُبَيِّغُ الخطأ في عذاب الحياة المُزمومة. وذات صحوة كاملة لضمير "ماريام"، اعترفت لـ"أندراوس" بخطتها للتفریق بينه وبين "تمار"، والتي خدمتها فيها الظروف. لم يُوَبِّخ "أندراوس" زوجته "ماريام"، فيكفيها الدود الذي ينخر في عظامها. شد رحاله وصعد إلى الدير، وكتب نسخا عدّة من الحكاية كاملة، على هيئة وصية لذريته، بأنه لن يرقد في سلام، ولن يكون جديراً برفقة القديسين أو بشفاعة الملائكة، لأنه قد وقع في الخطية وفرط في كتاب مقدس نقشت حروفه بماء الذهب، في لحظة إظام للعقل وإلهاب للعواطف، وأن هذا الكتاب المقدس موجود في مصر مع امرأة تدعى "تمار"، ومعه فردة قرط ذهبية، **"أمين هو الله" .. "عيناي على أمناء الأرض لكي أجلسهم معي"** (مز 101:6) أعيدوا للمرأة أو لذريتها فردة قرطها، واسترجعوا الكتاب المقدس، وضعوه حيث ينتمي، حتى ولو بعد حين **"لأن السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول"** (مز 31:13).

مات "أندراوس" راهباً، ذا ذرية شحيحة، منهم من قرأ الوصية واعتبرها حكاية للتندر، ومنهم من رأى أن جدهم الأكبر استحقّ الحرمان من الملوك والفرح، لتفريطيه في الأمانة ووقوعه في الخطية، ومنهم من تجاهل أو تكاسل لصعوبة المسألة وبُعد المسافات. أما أنا فقد تصادف أن عندي ولغاً بدراسة المخطوطات ودورها في تغيير التاريخ، فضلاً عن إيماني بأن يسوع المسيح لم يأتٍ ليؤسس لديانة، إنما تجسّد ليصنع الخلاص للإنسان. وقد كُنْتُ أكثر عشيرتي حظاً، لأنني أتيت في زمن يسهل فيه تتبع الآثار، وهي ثمينة وفيرة ^{93%} لنا الرب لنساعد أنفسنا وغيرنا على

الخلاص. أعرف أن وقتك محدود، وأنه يجب أن تعودي إلى "تبليسي" قبل حلول الليل.

أخرج القس "أندراوس" من جيبه كيساً من القطيفة عليه صليب، ثم أخرج منه فردة قرط نسخة طبق الأصل من التي معه، فيما عدا أن التي معه لامعة برأفة كالجديدة تماماً، أما التي بحوزتي، فمتكسرة بعض حواقيها، وبداخل نقوشاتها نقر سوداء كالصدأ المكين. سلمني "أندراوس" فردة قرط "تمار" الأصلية، وسلمته كالمنومة مغناطيسياً الكتاب المقدس الذي سيجعل جده يرقد في سلام، وينعم في الفردوس.

لا تكفي عدد شهقات الكون مدى الاستغراب الذي اعتراني لأنني صرت بطلة في حكاية تاريخية، أشبه ما تكون بحواديت ألف ليلة وليلة. حكاية تُحير أعنى المؤرخين، مثلما أراد "مطيع" أن يُحير علماء البحار حين نقل الطوبة من البحر الأسود ووضعها في البحر الميت، لكن المدهش لم يأت بعد، فقد همت بشكر القس على جُهده وحسن ضيافته، فاستوقفني وقال إنه لم ينته بعد.

- حين بدأت التنقيب عن "إيلشويفيلي" أو "أبولادزا"، راسلت كل من يمثّل اسمه من قريب أو بعيد لهذين اللقبين، حتى عثرت على "جمال أبو لاسة الشوافيلي". أطلعني على حالته الصحية الآخذة في التدهور، وأنه يريد أن يؤمن مستقبل حفيته "تمار"، وأن يحقق لها حلماً باقتناء محل للأزياء، يشاهد السائحون ويشيرون إلى روعة ما ابتكره خيال صاحبته، فباع كل ممتلكاته التي لم تعد تذرّ ريحًا، وكلّفني بشراء محل أنيق في شارع "شاردان" السياحي بالمدينة القديمة بـ"تبليسي"، فلا بد أن روح "تمار" الأم الكبرى ستكون أكثر حناناً عليها من لو صار لها دكّان صغير وسط وحش الموضة في باريس أو نيويورك،وها هو عقد المحل الذي وقّعته نيابة عنك، لا ينقصنا سوى إجراءات بسيطة لنقل الملكية. 19 شارع "شاردان"، "تبليسي".

وكلّي يقين بأنّ ما حدث في "كاختي" بالأمس ولقائي بالقس كان أضفافاً أحلام. أدّس يدي تحت المخدّة لأتّأكد من وجود الكيس القطيفي وفردي القرط التوأمّتين اللتين تشبهانني أنا و"ثقي"، فأجدهما ترقدان بداخله في سلام. أقفز من الفراش وأفتح حقيبتي، لأجد عقد المحل لا يزال مطويّاً بعنایة في ملف شفاف.

أنزل لتناول الإفطار في المطعم، فأجد البنات يتداولن خبراً تم نشره على الإنترنّت بأنّ البركة قد حلّت، وما زالت المعجزات تتحقّق في عيد "سفيتيسوفيلي" الذي يأتيه الحاج من كل صوب وحدب في الثالث عشر من يوليو، فقد وجد القساوسة في دير "جريمي" بـ"كاختي" صباح اليوم إنجيلاً أثريّاً من القرن السادس عشر كان ينتمي للكنيسة قبل أن تُدمّر البلدة، مكتوبة حروفه بماء الذهب، ومؤذنًّا بأيقونات مقدّسة، ولم يتقرر بعد إن كانوا سيبقونه في متحف الدير بـ"جريمي"، أو سينتقل في احتفال خاص إلى متحف المخطوطات الأثرية في "تبليسي".

عاهدت القس "أندراوس" أمس أن أحفظ سرّ جده، فالسر في المسيحية لا يشير إلى واقع غامض، بل إلى المشروع الخلاصي، الذي كان مُستترًا في الله منذ خلق العالم، وقد ظهر في يسوع المسيح، ولذا فالسر هو رفيق الحقيقة. أتناول القهوة في صمت وأنا أفگر في كتابة وصية خاصة بالأمانة الثقيلة التي صارت في حوزتي؛ فردي القرط التوأمّتين المُتنافترتين اللتين لا تقدّران بمال. هل أمنح "ثقي" فردة وأحتفظ بالأخرى، أم أهب فردة للمتحف الوطني في چورچيا والفردة الأخرى للمتحف المصري الجديد؟ ذهبت "تمار إيلشووفيالي" إلى مصر قهراً واضطراراً، وذابت في أهلها واحتواها دفئهم، فبقيت معهم، لكنها لم تستطع العودة إلى ديارها لأنّها لم يعد لها أهل ولا دار.

أما أنا "تمار الشوافيلى" فجئت إلى چورچيا غير مُخيّرة أيضاً، لكنني سأبقى وأعيش على أرض تحمل بعضًا من جيناتي، ومع ذلك سأعود إلى شقة الدرب، وأصنع منها بؤرة للجمال والأصالة. سأجعلها بيّناً للحواديت، يضم كلّ من تقلب أجدادهم في بلاد الله، وأنجبوها أمّا أنا فاللّه كله. سأحكى لماذا لاحظ الرّسامون 94%

العظماء في عصر النهضة ولع واعتزاز الأمراء والبلاء بالثياب المزخرفة بالخط العربي، حتى إن القساوسة كانوا يرتدونها ويحتفظون بها في خزانات الكنائس، فرسم الفنانون لوحات للعذراء والقديسين يرتدون أوشحة وملابس عليها نقوشات عربية. سأقول إن العصر المملوكي لم ينتج سفاحين وقتلة يُدبرون المكاييد للاستيلاء على العروش، فقد كان بينهم صانعوا منسوجات وأقمشة في مصر وبلاد العرب، مثل "الدمشق"، و"الفوشة"، و"الكشمير"، و"الموصليين"، و"التفتة"، حتى إن أسماءها العربية دخلت في اللغة الإنجليزية. لن أذيع سرّ القرط والإنجيل، بل سأروي سيرة القواقل المُحملة بالمنسوجات ذات التشكيلات الإبداعية التي استخدمت أحياً الأمثلة الشعبية والدعوات بالأمن والبركات، لتصير حلقة وصل بين الهند والصين و"القوقارز" ومصر والشام وأوروبا على طريق حريري ناعم كبساط الريح. وقد لا أكتب وصية وأحتفظ بفردي القرط لنفسي، وأتزّين بهما على حالهما؛ لأن إحداهما التي احتفظ بها القدس العاشق وحافظ عليها تمثّل الحب، أما الأخرى التي تهالكت وتناقلتها الأجيال في أسرتنا، فتمثّل الحياة. لن أخلع فردي القرط من أذني ليجلبها لي حبّاً أبدِيًّا خالدًا، وسأحتفل الآن وفوراً مع كل من شاركوني أيامِي. سأذهب إلى شركة السياحة، وأنظم رحلة على نفقتِي أدعو فيها "مطيع"، و"ريموندا"، و"أميد"، و"أمينات"، والعاملات بـ"ميجوتيل"، وـ"ألبرت" الذي سيصل إلى "تبليسي" بعد يومين، وربما دعوت "ضيا" وـ"سهر"؛ ليقوما بتنسيق المحل الجديد معي. سندّهُ إلى "متسبختا"، ونعلق مزيداً من الشرائط الحريرية على شجرة الأمانيات، أو نشدُّ الرحال إلى "سوخومي" في "أبخازيا"، وربما عثرنا على "أمرا" وهي تُحاول أن تمرق إلى بلدتها "جالي"، فتحتويها في الفوج الكبير الذي يضمُّنا ونحقق لها أمنية طال انتظارها.

سأخلع الشريط القطيفي الأسود ذا الحلية الذهبية ماركة "شانيل" الذي أعقد به شعرِي وأحرّر خصلاتي ليتخلّلها الهواء، لكنني لن أخلّق عنْهُ قسْنَوفاً^{95%} أرتديه مثل سوار أو حظّاظة في معصمي،

وفاءً لفترة حببية من حياتي. وسأكمل "الخاتشابوري" بالزبد السائح، و"الخينكالي" الشهي في نهاية كل أسبوع، فلا بأس من بضعة كيلوهات زائدة تستجلب هرمونات السعادة، خاصة أنه يمكن مُداراتها بالفساتين الواسعة التي ترتديها الأمهات في چورچيا، وصارت موضة يتباھي بها مصممو الأزياء.

أخطط لحجز باص كامل، ورحلة لسبعة أيام في "أبخازيا" نمارس فيها مُتعة الصيد، وركوب الزوارق بالبحر الأسود، ون تعالج ما تلف من عضلاتنا، ونُدَلِّ عظامنا بالمياه المعدنية في المنتجعات العلاجية، ثم ننطلق منها إلى قرية "جالي" للبحث وللاطمئنان على "أمرا".

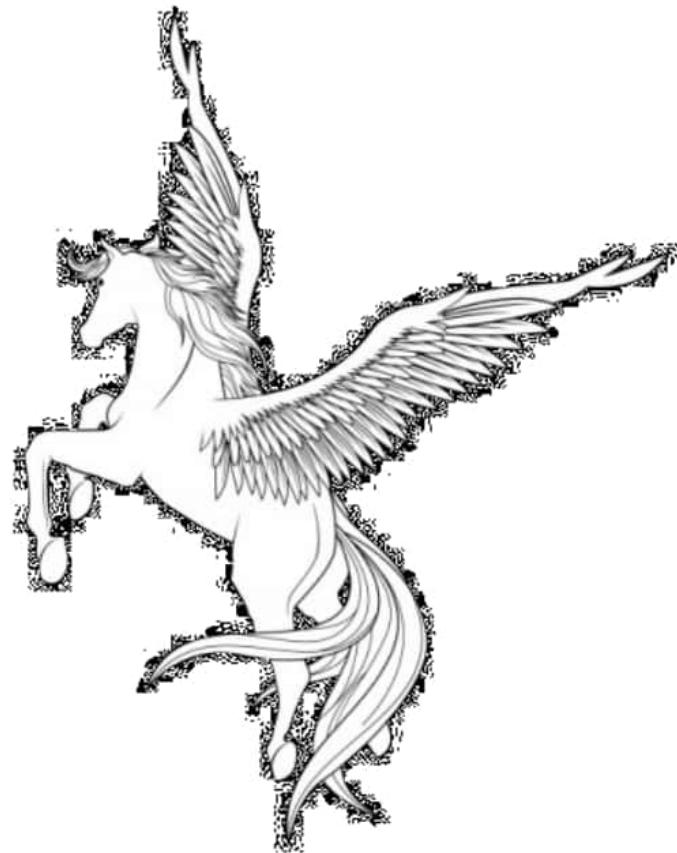
أقف في طابور صغير بشركة "أدفنتشر تورز" للسياحة، لتنظيم الرحلة المفاجأة لأفراد عائلتي الجديدة في "تبليسي"، وثراودني أحلام يقطة سعيدة بوقع المفاجأة على وجوههم. لم يتبقَّ سوى خطوة واحدة ويتتحقق الحلم، حين ينتهي الرجل الضخم الذي يتقدَّمني من إنهاء إجراءاته، هو والمرأة التي ترافقه وتجلس على كرسي متحرك.

تسأله موظفة الاستقبال عن اسمه واسم والدته المريضة، فيرد بصوت خفيض مألف:

- مدام "هدى أبو بكر" و"فادي أباطة".



القاهرة



"ثقى"

هل يفترض بي أن أصدق، أم أزغرد لنهاية حدوثة "تمارا" المفتوحة على الاحتمالات السعيدة؟ أم يجب أن أمضي الليل ساهرةً لأفگر معها، أيٌ من رجالها يصلح أكثر كفارس لأحلامها؟ "ضيا" رفيق الطفولة، أم "فادي" حبيب المراهقة، أم "شادي" محرّك أنوثتها، أم "أليرت" الإنجليزي، أم "مطيع" الفلسطيني، ولم لا يكون القدس "أندراوس" الجورجي؟ فلقد فتنت به أول ما رأته، وتعاطفت مع قلوب النساء اللاتي يذهبن للاعتراف عنده، وفقاً لما ذكرته في يومياتها التي ترسلها لي وقت حدوثها، أو تحكيها لي وجهها لوجه على شاشة التليفون في مكالمات الفيديو. لو فعلتها "تمارا"، لن يقولوا مسلمة أحبت قسًا، بل سيعتبرونها قصّة غرام خالدة، وربما نصبوا لها تمثالاً مثل تمثال "علي" و"نينو"، ولصارت "كافيتني" بسببهما مدينة الحب، ولأصبح اسم دير "حربيق" متبSTEM العاشقين³. أما أنا، حين كُنت صغيرة في الحادية

الحنوط الذي جلبه "عاطف" شقيق "ميراي" صديقتي من الكنيسة، وتطيّبُ به؛ لأنَّه يُشبه رائحة الياسمين، أو حين أُعجبتني مع "ميراي" صورة الفارس "مارجرجس"، الذي يركب الحصان ويقتل الوحش بشجاعة، فضَّبْطَثُها تيَّة في كرَّاستي، وكانت ليلة سوداء.

أفضل ما يليق بفرحة "تمارا" هو ثوب أبيض مُكَوَّن من خمس طبقات، قميص، وإزار، وحمار، ولفافة، وخرقة تُربِط فوق ثدييها، وقطع صغيرة من القطن تُوضع في أذنيها. نعم، أعلم أنَّ هذا ليس فستان زفاف؛ بل كفن، وأي فارق بين الزواج والموت؟ يصبح الزواج موتاً مزدوجاً حين يموت الحب في قلب من تعشقه المرأة، ثم حين يهجرها إلى غيرها، مثلما فعل زوجي "علاء المصري". احترث كيف ظلَّ يُعايرني ببدانتي وشرهي للطعام، لكي يرسلني إلى منتجع بعيد كالذي شهد لقاءنا الأوَّل، ولاعود وأجده يغطُّ في نوم مُريح على فراشي في أحضان أخرى، ذات وزن ثقيل أيضاً. أردت أن أعرِّفه أضرار البدانة على حق، فجلست بكل ثقلٍ فوق صدره وهو متمدَّد على ظهره، ووضعت المخدَّة فوق رأسه، فسمع الجيران استغاثات المرأة الأخرى، وأبلغوا الشرطة ونقلوني إلى مصحَّة نفسية كالمنتجع، أعطوني فيها عقاقير كثيرة وحقنًا ليلية ونهارية، وأجلسوني في حديقة، وألبسوني زيًّا مُوحَّداً باللون الأبيض.

أخذت روحي تهيم في سماء الرُّؤى، لم تكن خيالاتٍ وأطياافًا كالتي نشاهدتها في المنامات، بل رُؤى يقطة أراها بحواسٍ قلبي، ويحادثني فيها الأحباب والأولياء وأصحاب الكرامات. رأيت "ميراي" صديقتي على هيئة طيف يمُرُّ في صمت، وشممت زينًا مُعطَّراً يُناولني إياه "عاطف" أخوها، وسمعت سِئِي "أم إدريس" تُلْقِنِي دروسًا كالنفحات والعطايا الرَّبَّانية. قالت لي سِئِي "أم إدريس" إنه لا سكينة للنفس والروح إلا في الصمت والزهد؛ صمت اللسان عن الكلام، وصمت القلب عن الخواطر. نفَّذت وصايتها راضية، وصرت هادئة لَيْنة بعد شهر أو شهرين، فتسَلَّمَتْ خالي "عادل"، الذي قلت له بهدوء إنني شفيت وتعافت، وأربَدَ

أن أترك ألمانيا لأنني أشتق للعودة إلى البيت، فأرسلني تحت التوسل والإلحاح إلى شققنا بـ"ال滴滴".

أي مكان أفضل من balkon المطل على الباحة، بزقة العصافير، وهديل اليمام، ورفقة أجنة الحمام، وحفيظ أوراق الشجر، للتخلص من الوساوس والهواجس الشيطانية، فلم تعد نفسي الأمارة بالسوء تحكم في، وتطالبني بمطالبها من الطعام والشراب والنكاف. صرت مفتونة بالرؤى والمنامات التي تؤانسني فيها ستي "أم إدريس"، ولما كانت تغيب لبضعة أيام عن التحليق فوق فراشي، كنت أذهب إلى غرفتها في القرافة، فأجدتها جالسة على سريرها كالبدر المنير، تتجمّل بالجمال اليوسفي الروحاني، وليس الجمال الطيني مثل سائر البشر، فتنعم بمجالستها نفسي، وأعود إلى غرفتي راضية مرضية. لم أعد أقرب balkon أبداً لأنني تخلصت من الأهواء الإبليسية، التي تدعو المرء للشهرة وحب الظهور. أسمع خبطاً على الباب ورنيناً متواصلاً على جرس الشقة، وأصوات "وديدة" وـ"مأمون" يكزنان اسمياً لبضعة أيام. ولولا أن "ميراي" هي التي نقرت على الباب في المرّة الأخيرة ونادتني بصوت هادئ، ما كنت لأسمح لغيرها بالدخول، ومشاركتي خلوتي الأثيرة.

أجمل ما في "ميراي" أنها لا تحاول أن تشيني عن طريق أسلكه، أو تسخر مني حين أحاول الارتفاع في المقامات، فهي تعرف أنني وـ"تمارا" قد ولدنا في ليلة الإسراء والمعراج، وقد نلت أنا نصيباً من الخصوصية، وصار لي معراج كشفي. كنت أعرف أن "شادي عبد الهادي" شر، وأن "فادي أباظة" خنوع، وأن "ضيا" لعوب، وأن "ألبرت" الإنجليزي مضطرب، وأن "مطبع" اقترب أجله. كما أريد أن أحذر "تمارا" أن ما هي مقبلة عليه كرمز للحياة، فهو نذير شؤم بالنسبة لامرأة بمواصفاتها، فهي تشبه مشروعها "تمارا تئرة" بتئرة الصوفي، وكأنها لا تعلم أن الصوفي يلبس الأبيض كرمز للكفن، والأسود رمز الموت، والقلنسوة اللباد رمز شاهد القبر، والدورات الثلاث في ساحة الرقص هي مراحل التقرب إلى الله؛

العلم والرؤية والوصال.

حين أرادت سُيّي "أم إدريس" أن تُحِبِّبني في الصلاة، قالت لي إنني سأستطيع أن أمتطي حساناً أبيض له أجنحة لوأدَّيت الصلوات الخمس. فالصلاحة شكل من أشكال الإسراء والمعراج؛ مقام الوقوف يساوي الإسراء من مكة إلى بيت المقدس، والركوب فيها البراق. ومقام الركوع هو المعراج، وهو رحلة الارقاء من عالم الأرض إلى عالم السماء. أما مقام السجود، فهو دنو "جبريل" عليه السلام. لهذا صرت أحرص على الخشوع في صلواتي، خاصة حين أنصت في مقام السجود إلى الإلهامات التي يرسلها لي سيدنا "جبريل"، وقد دنا بروحه القدس ليلة أمس، وأوحى لي بأن أحسن الوضوء لصلاة العشاء، حيث سيلوح لي براق عند نافذتي مثلما ظهر لـ"تمارا"، سأمتطيه وأخرج إلى غرفتها في "تبليسي" في لمحات برق. ستكون ساجدة في الركعة الأخيرة من صلاة العشاء، وبجوارها مقص ذهبي كبير، ستقوم بتصويره وتجعله شعاراً لحلمها، مثلما أوصاها جدها "جمال الشوافيلي". ولأن "تمارا" هي نصفي الذي يثقل روحي ويشدُّها إلى ظلمات الأرض، ويحجب عنّي صفتني الرؤية والوصال. حدثني الصوت بأنك جئت إلى هذا العالم دون أن تتركي أثراً أو تنقذني بشراً. فلتمسك يدك الطاهرة ذلك المقص الذهبي اللامع ولتغرسه في قلب الشهوة الأرضية الراسخة في نفس "تمارا" لتنتحف من المفاسد والشبهات. سيكون البراق بانتظاركما، اركباه وحلقاً معًا في مقامات المربيدين المحبوبين، وانعموا بكرم إلهي يُنير القلوب ويفتحها لحضره علام الغيوب.

(20)



"ميراي"

لم أتخيل أنني سأكون مطلوبة للشهادة، وتحاصرني الاتهامات في قضية قتل في يوم من الأيام، وأن أقف أمام ضابط مباحث لا يقول لي سين وجيم، بل يشعل سيجارة ويقول لي: "إحكي لي كل ما تعرفيه عن المجنى عليها".

فتحت باب غرفة "ثقى" في المصحة التي تطوعت للعمل بها مُمرضة لأضع لها صينية الإفطار وجرعتها من الأدوية والحقن المهدئه. لم تكن "ثقى" مجرد مريضة أو نزيلة عاديه بالمصحة، فهي رفيقة الدراسة، وصديقة الطفولة، وجارة العمر، ولم يكن بالأمر الهين أن أرى ذلك المقص الحاد مغروساً في قلبها وهي غارقة في دمائها على سجادة الصلاة في وضع السجود.

صرت أنا و"ثقى" صديقتين منذ اليوم الذي فقدت فيه سيطرتها، وبللت ملابسها في الفصل. كنا في حصة التاريخ، وأخرجتها ميس "عايدة". صارت "ثقى" أضحوكة الفصل، ومحل سخرية البنات، إلا أنا، فقد كنت الوحيدة التي سمح لها أن تجلس بجانبى على الدكّة نفسها، دون أن يصيبني القرف. كنت أشعر

لشيء سوى أنني كنت واحده منهم. لم يكن لون بشرتي الداكنة وشعري الأكتر وحواجبي الكثيفة بالأمر الجاذب للفتيات، كما لم يكن لدي أي أمل في أن يعجب بي شاب حتى ولو كان مسلماً. فكُرت أن ألتحق بالديار، وأن أهرب نفسي للخدمة؛ لكنني لم أكن على درجة من التدين تجعلني أطيق حياة الرهينة، فاخترت الدنيا مع التطلع في الجمعيات الأهلية، ومساعدة فقراء الكنيسة، ورعاية "ثقى" في المصحّة النفسيّة التي يعمل بها أحد أقارب والدتي.

عادت "ثقى" من ألمانيا، بعد أن قضا فترة نقاوه في مصحّة نفسية بعد طلاقها من شخص يُدعى "علاء المصري". كانت أحياً تقول عليها ألمانيا، وأحياناً أخرى تقول عليها هولندا، لكنني لم أعتقد أن أعارضها، طالما ما تقوله لا يضرُّ الغير، كما أنني اعتدت منذ الصغر على أن أسمع منها حكايات خيالية كانت تجعلها في حالة أفضل، وتسلّيني في الوقت نفسه. فقد كانت تخيل أحياً أنها هي نفسها اختها "تمارا"، وأنها تعيش في "جاردن سيتي" مع جدها الثري، وكانت تقول إن لديهم سيارة "مرسيدس"، ويأكلون التفاح، ويُسافرون إلى باريس.

كان خيالها يصوّر لها أشياء تُعذّبها، فلقد تصوّرت أن حالها عادل قد تحرّش بها، مع أنني كنت أسير بجانبها حين أمسك "عادل" المكوجي صدرها، وهرّب إلى بلده، فصارت تظنُّ الظنوں بأي شخص يُدعى "عادل". هي من قالت لي ذلك في البداية، ثم سيطرت على رأسها فكرة أن حالها "عادل" يُريد أن يطردها ويُغيّر عقد الشقة باسمه، مع أنه هاجر واستقرَّ منذ سنوات في ألمانيا، وتزوج، وله أبناء من امرأة أجنبية، ويمتلكان مسرحًا صغيراً في "ميونيخ". ما يجعلني أؤمن ببراءة حالها أن "باتريك" الإنجليزي الذي يسكن في شقة الدور الأرضي قد عرض عليه أن يشتري شقتهم، ويقيم مشروعًا سياحيًا لاستضافة الأجانب، مثل "أنستازيا" التي تسكن في الشقة المقابلة. لكن حالها قال إن هذه شقة "ثقى"، ولا يحق له التصرُّف فيها، وهو نفسه من يدفع

التكاليف الباهظة للمصحّة والعلاج بحوالات بريدية.

كنا أنا و "ثقى" نختلس الفُرجة على مجالات "البوردا" القديمة عند بائع الجرائد، ونشتهي أن تكون مثل النساء الأنثى اللاتي تظهر صورهن فيها، ونحن على يقين بأنه لا أمل في ذلك أبداً: أنا لأنني أحتاج إلى جيش من خبراء الموضة والتجميل والأموال الطائلة، و "ثقى" لبدانتها التي لا سبيل إلى التخلص منها لحبّها وولعها بالطعام. وذات يوم، كانت بكرّاستي صورة صغيرة لـ"مارجرجس"، اشتريتها من الكنيسة، فسألتني "ثقى" عن حكايته، وما هذا التنين الضخم الذي يقتله وهو راكب على حصانه. فقلت لها إنه كان يعيش في بلد يُدعى "كبادوكيا"، أي أرض الخيول الجميلة، في آسيا الوسطى، وكانت أمه من فلسطين. كان قلبه ملتهباً بنار الحب الإلهي، ودافع عن المسيحية ضد الملك الوثنى، الذي مكث يعذبه ثلاث سنوات، وقد كانت يد الله تسنده ليقتنص نفوساً كثيرة للإيمان خلال عذاباته، فقد مات ثلاث مرات، وكان الرب يقيمه ليتمجد فيه، حتى استشهد في المرّة الرابعة، كما كان ينعم برؤى سماوية وسط الآلام تسنده وتعينه. وبعد موته، أخذ خادمه جسده الطاهر ولقّه في أكفان غالية فاخرة، ومضى به إلى مدينة "اللد" بفلسطين، وبُنيت على اسمه كنيسة عظيمة هناك، وأجرى فيها الرب آيات وعجائب كثيرة. سألتني "ثقى" عن التنين، فقلت لها إنه يرمز إلى الشيطان الذي يحرّك العالم الشرير ضد الإيمان، وهزيمة التنين تشير إلى هزيمة الشر بقوة الإيمان. حكت لي "ثقى" عن البراق الذي يشبه حصان "مارجرجس"، وقالت لي إن "أم إدريس" قريبتها قالت لها إنه الخضر الفلسطيني. صارت "ثقى" مهوسّة بتجمّيع صور "مارجرجس"، حتى بعد أن ضربتها جدّتها ظنّاً منها أنني أريدها أن تتنصرّ، ولم تخلّصها من يد جدّتها إلا "أم إدريس" التي حبّبتها في صلاة المسلمين. إلا أن حكاية "مارجرجس" ظلّت مُسيطرةً عليها، حتى بعد أن التحقت بقسم التاريخ كيداً في ميس "عايدة". تركتِ المنهج الأساسي وأخذت تقرأ تاريخ البلاد التي تَنَحَّذ "مارجرجس" شفيعاً لها، وتضع صليبه على علمها، ولا تتحدّث إلا عن تلك الدول؛ چورچيا وإنجلترا وروسيا وفلسطين. في تلك الأثناء، بدأت "ثقى" ثردد كلمات غريبة، مثل أنها ترى حصاناً أبيض يطير أمام نافذتها، وأنها

5 دقيقة متبقيّة من «طار..»

تشعر أن تَنْيَن "مارجرجس" يسكن جسدها. وفي أحياناً أخرى، تقول إن الشَّتَّين هو "تمارا" نفسها. قالت لي "ثُقى" إن "تمارا" قد أحضرت لها تورته الشوكولاتة، لكي تصرفها عن رعاية جدتها "زكية"، وجعلتها تتجاهل نداءها، فوَقعت الجَدَّة وتكسرت عظامها وماتت. ثم قالت إنها تظن أن حالها لم يكن يُريد أن يعتدي عليها هي؛ لأنها غير جميلة، أما المغوية فهي "تمارا"، مثل "ثامار" التي سمعت حكايتها ذات يوم في بيتنا، وليتها ما سمعتها.

رببت "ثُقى" عاماً بعد عام، ولم تفلح في دراسة التاريخ، فانتقلت إلى كلية الحقوق التي كُنْت قد التحقت أنا بها و كنت على وشك التخُرُّج، وصارت ثرِدَّد كلامي كالببغاء بأنها تدرس الحقوق لـ"تعرف كيف تغزل الخيوط التي تُحاك منها أكفان الحق والعدل"، ولتصير نصيرة المنبوذين، إلا أنها عندما رببت لعامين، قرر حالها أن يأخذها لتعيش معه في الخارج، وعملت هناك في خدمة الغرف بفندق. وفي أوَّل إجازة لها، صارت ثرِدَّد كلاماً أكثر غرابة عن "تمارا" الشَّتَّين التي تتلوى في بطئها وقلبهما، وأنها تحققَت في ألمانيا من صدق ما تقوله. فقد صدمتها سيارة وفقدت كثيراً من دمائها، وحين أرادوا عمل نقل دم لها، لم يتعرّفوا على فصيلتها، فسألوا إن كانت لـ"ثُقى" أخت توأم.

في تلك الإجازة، لم تبرح "ثُقى" البيت، وأخذت تقرأ عن "الكايميرا"، أو التوأم المُتلاشي، الذي يحدث في رحم الأم بسبب امتصاص أحد التوأمين لخلايا الجنين الآخر، ويحمل خلايا شقيقه، فيصبح شخصين في شخص واحد. لم يستوعب عقلي ما كانت تقوله، خاصةً أنني تعوَّدت أنها تأتي بحكاية واحتراع جديد كل فترة. حتى هي لم تُكرر هذه الحكاية مَرَّة ثانية؛ لأنها قالت إن "تمارا" ستنتقل للعيش معها في الـدُّرُب. أُعترف بأنني كُنْت قد فقدت شغفي الطفولي باحتراعات "ثُقى"، وكانت مُنشغلة بالمؤذكرة لاختبارات آخر العام، ثم سافرت "ثُقى" ثانية وتزوَّجت، وظُلِّقت، ثم عادت على تلك الحالة الذاهلة والهزال الشديد، فنقلناها إلى هذه المصحَّة، وأخذت أقوم على رعايتها بنفسي. شخص بعض الأطباء حالتها على أنها فضام، وشخصها آخرون

على أنها اكتئاب ثنائي القطبين، مصحوب بفقدان الشهية العصبي. أما "تقى" فقد ائتمنتني على سرّها الذي لم يكتشفه الأطباء النفسيون، وقالت لي إنه أهون عليها أن يتهموها بالجنون أفضل من يُشاع عنها أنها ابتلعت أختها وأذابتها في جسدها، كما فرّجتني على سترين متطابقتين مكتوب على كل منها بالإنجليزية: "هي الفاعلة".

اتّهمني المُحّقّق بأنني ساعدت مريضة مضطربة نفسياً على الانتحار حين تركت لها آلة حادة في متناول يدها، فقلت له إن تحسّناً ملحوظاً قد طرأ على حالتها منذ أكثر من شهر، وصارت تأكل بشكل طبيعي، واستعادت كثيراً من وزنها بعد أن صار لديها شغف بالفطائر والمعجنات. كانت كلما طلبت شيئاً أحضرته لها بعد استشارة الطبيب، فقد طلبت أعداداً من مجلات الموضة، وتليفوناً محمولاً به وصلة للإنترنت لم تضع عليه سوى رقمي، وكانت تتّصل بي أحياناً لتشاهد فيديوهات سياحية عن چورچيا، والحكايات التي ترويها النساء الفلسطينيات. واستدعتني أمس لأنها شاهد لها فيلماً لـ"رشدي أباظة"، وطلبت مني مقصّاً جيّداً؛ لأنها تريد أن تقضّ شعرها مثل "سعاد حسني"، في الفيلم الأبيض والأسود الذي كانت تتفرّج عليه.

لم يخطر ببالي أنها سُقِّدم على ارتكاب جريمة، فلقد تحسّنت حالتها للدرجة التي قلل الأطباء جرعات الدواء إلى الربع، وكانوا على وشك كتابة تقرير يسمح بخروجها وممارسة حياتها بشكل طبيعي خارج المصحّة. حتى ما ردّدته من أقوال غريبة أمس، كُنّث أظنه ضمن الطرائف والعجبات التي تشاهدتها في فيديوهات على الإنترت، فقد قالت إنها اكتشفت أنهم يُسمّون ظاهرة التوائم المُتلاشية بالـ"كايميرا" على اسم حيوان أسطوري في الميثولوجيا الإغريقية. وهي مجموعة من الخرافات آمن بها اليونانيون القدماء، حيث كانوا يؤمنون بوجود وحش يُدعى "كايميرا" له رأس أسد، ورأس ماعز، سيقانه الأمامية تنتهي لأسد، والخلفية للماعز، وله أيضاً ذيل أفعى، وحسب الأسطورة إنه كان مصدر رعب، حيث كان يقتل الأطفال، ولديه قدرة قوية على نفخ

النيران، فيقوم بحرق الأراضي؛ لكن في النهاية تم قتل الوحش على يد الفارس الشجاع "بيبلروفون"، ثم ظهرت على وجهها علامات ارتياح وصفاء نفسي بعد أن قالت لي في هدوء: "تصبحي على خير"، فقد كانت قد انتهت تؤًّا من ختم جزء من القرآن، ووضعت المصحف على الكومود بجوار كتالوجات الموضة ومجموعتها الحبيبة من صور "مارجرجس".

تنهد المُحَقِّق في زهق، ولم يُعلق بكلمة أخرى على ما حكى له، وكان يُدْوِّنه شخص آخر يجلس معنا. وجَه المُحَقِّق الكلام للرجل الذي يكتب وكأنه يُملِيه قائلاً:

- بعد الاطلاع على الأدلة وسماع أقوال الشهود، قررنا الآتي: يُقفل المحضر في حينه، وتُقيَّد الجريمة "اضطراب نفسي أدى إلى انتحار".

- تَمَّت -